

إعلموا أني فاطمة

(الجزء السابع)

عبد الحميد المهاجر

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

علي صراط الحق

حقوق الطبع والنشر محفوظة

مبادئی وقوانین
لکل زمان و مکان

مبادئ وقوانين

لكل زمان ومكان

قالت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام في معرض خطابها الذي ألقته على المسلمين في المسجد النبوي الشريف:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاهها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنّها بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتبليهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته وتعبداً لبريّته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة (زيادة) لعباده عن نعمته وحياسة لهم إلى جنته.

ولكي نعرف ما تقول فاطمة عليها السلام في هذا الخصوص تعالوا نفتح بحثاً علمياً في هذا المجال نتناول فيه المبادئ والقيم التي تضمنها هذا الجانب من الخطاب.



في نظرة واحدة نلقيا على هذا الكون الفسيح نستطيع أن نكتشف حقائق مضيئة تثير لنا الطريق، وتهيئ الدرب، فمثلاً، نجد القوانين التي تدير الكون والحياة والإنسان، تنقسم إلى قسمين: قسم طبيعي وقسم تشريعي.. والطبيعي يشمل كل القوانين المادية الكونية والسنن الطبيعية التي يجري الكون بمقتضاها ولا يحيد عنها مقدار شعرة واحدة.. في حين أن القسم الآخر، وهو القوانين التشريعية فإنها تشمل كل مناهج السماء التي جاءت لتنظيم حياة الإنسان في الأرض.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن قوانين الطبيعة هي التي تقوم عليها السموات والأرض، والجبال والبحار وهي لا تتبدل ولا تتحول أبداً.. هذا في القانون الطبيعي أما القانون التشريعي، أو قل القوانين التشريعية فإنها هي الأخرى لا تتغير ولا تتحول أبداً، وهي التي تقوم عليها الحياة البشرية الطيبة.. وهي كما قلنا: ثابتة لا تتحول ولا تتبدل بل تظل متجددة متوهجة تستمد طاقتها من الله العزيز الحكيم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (١).

خلق الله سبحانه وتعالى، الكون والحياة وجعلها تجري ضمن قوانين وسنن ثابتة لا تهتز، ولا تبلى. ليس فيها تغيير، ولا تحويل.. وهي التي يقوم عليها بناء الكون، والحياة والإنسان، البناء المادي الطبيعي. وهي مثل: قوانين الجاذبية، وسرعة الضوء، والصوت.. وقوانين الطفو، وسنن الفيزياء والكيمياء، والمعادلات الرياضية وقواعد الهندسة.. ومبادئ الجسم البشري التي يقوم على أساس معرفتها الطب.. وكذلك

(١) فاطر: ٤٣ .



قوانين انعكاس الصوت.. وحركة الأرض.. وحركة القمر.. والمد والجزر والقوانين الفيزيائية، والكيمائية كما قلنا.. وبكلمة: كل القوانين التي تقوم عليها الكائنات الحية.. هذه كلها لا تتبدل، ولا تتغير أبداً.. ولكن في المقابل هناك قوانين تشريعية تسيّر حياة الناس، وتبني المجتمع. هذه القوانين الاجتماعية التي جاءت لتنظيم حياة الناس جعلها الله في يد الإمام المعصوم الذي يقوم على إجراءاتها وتطبيقها في المجتمع لأنه هو الذي يأمر بتطبيقها وهو الذي يأمر بالعمل وفقاً لمناهجها.. وهنا لابد من توضيح النقاط التالية لكي تأتي الصورة واضحة وليست باهتة.

والنقاط هي:

أولاً - هناك فاصل يفصل بين قوانين الطبيعة وقوانين الشريعة، والفاصل هو أن القوانين الطبيعية هي قوانين مادية وسنن كونية ثابتة في هذا الكون لا يحتاج تطبيقها إلى طاعة الناس ولا إلى بذل جهود من أحد، وإنما هي تجري وفقاً لإرادة الله سبحانه وتعالى.. ولكن في القوانين التشريعية نجد الأمر مقلوباً، فعلى الرغم من أن القوانين التشريعية إنما جاءت بأمر الله سبحانه، وأن الله هو الذي أنزلها على الأنبياء والرسل لتكون نوراً لمن يريد الخلاص من الظلام، أقول: على الرغم من كل ذلك، إلا أن تطبيق هذه القوانين التشريعية يظل متروكاً لمشيئة البشر وليس لمشيئة الله، لأن الله سبحانه هكذا شاءت حكمته أن تكون الشريعة خاضعة لإرادة الإنسان وذلك أنها إنما جاءت لسعادة الإنسان وخلاصه من العذاب، وهذه السعادة إنما هي منوطة بإرادة الإنسان، فإذا أراد أن يكون سعيداً فإنه يكون سعيداً وذلك حين يختار



لنفسه طريق السعادة من خلال هذه القوانين التشريعية التي جاء بها القرآن الكريم ليكون للناس دليلاً ومنازلاً.. ولكن إذا لم يرد الإنسان أن يمشي على هذا الخط فإن الأمر يبقى متروكاً إليه، وليس لأحد أن يفرض سيطرته عليه، لأن الله خلقه حراً وجعل له العقل والسمع والبصر.. ثم زوده بفطرة ورشد ووعي، فإذا حطم كل هذه القناديل، وسار في الظلام، فإنما يجني على نفسه ويظلم نفسه وما ريك بظلام للعبيد.. ومن هنا يمكن أن نعرف هذا الفارق الذي يفصل بين الشريعة والطبيعة إذا عرفنا أن قوانين الطبيعة تجري على رغم الإنسان وليس في إمكان أحد أن يقف بوجهها.. فهي تجري شاء الناس أم أبوا.. بينما في الشريعة يأتي المبدأ العام: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ (١).

وما دام الإنسان جاء إلى الحياة حراً، وجعله الله حراً، فإنه من الأفضل أن يكون النظام الذي يسيره حراً أيضاً لأنه من غير المعقول أن يخلقنا الله أحراراً ثم ينزل علينا ديناً ونظاماً بالسوط والكرباج.

* وجوب طاعة الإمام:

ولذلك نجد القوانين التشريعية يحتاج تطبيقها إلى الطاعة، الطاعة من الناس إلى الله والرسول، وأولي الأمر.. وهم الأئمة المعصومون من أهل البيت - عليهم السلام - تقول فاطمة الزهراء عليها السلام: (وجعل الله سبحانه طاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة).

(١) البقرة: ٢٥٦ .



ومن هنا ندرك أن الإمام لا يستطيع أن يطبق الإسلام على المجتمع من دون طاعة الناس له، لأنه لا رأي لمن لا يطاع، ومعنى ذلك أن الإمامة تتعطل اجتماعياً إذا فقدت الطاعة وإن كان يبقى دورها التكويني سارياً، بمعنى أن وجود الإمام المعصوم ليس فقط للدور الاجتماعي وإنما للدور الكوني أي أن الكون لا يمكن أن يستمر في مساره من دون حجة الله في الأرض.. وهذا البحث سنتناوله إن شاء الله بشيء من التفصيل في المكان المخصص له في هذا الكتاب.. ومثالي على ذلك أن الإمام المعصوم حين يبتعد عنه الناس، فإن دوره الاجتماعي يتوقف كما حصل وحدث لكثير من الأئمة المعصومين.. وحتى الإمام علي عليه السلام كان دوره شبه معطل بعد وفاة النبي إلى خمس وعشرين سنة أي إلى حين جاءته الخلافة، وأخذ ناحية المجتمع بيده، ويكفي أن نعرف الفارق كم هو كبير، وذلك من خلال مقايسة وموازنة بين دور الإمام علي قبل الخلافة، ودوره بعد الخلافة.

* ارتباط القوانين الطبيعية بالقوانين التشريعية:

والآن نرجع إلى النقاط التي بدأنا بها، ونأتي إلى النقطة الثانية وهي: أن هناك ارتباطاً وثيقاً يشد القوانين الطبيعية إلى التشريعية بمعنى أن أي خلل يحدث في تطبيق الشريعة فإنه يترك أثره فوراً على الطبيعة أي أن التشريع يحكم على التكوين.. وأمثلة ذلك كثيرة ومتعددة وكلها تؤكد أن أي اختلال في تطبيق القوانين التشريعية، سيؤدي بالقطع إلى اهتزاز في القوانين التكوينية.. أو قل: الكونية.



فعقيدة الشرك مثلاً تترك زلزالاً عنيفاً في الكون عبر عنها القرآن بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (١).

ولنا أمثلة على ذلك كثيرة، لنأخذ على سبيل المثال العلاقة بين الإنسان والعرش، نجد أن بناء العرش له ارتباط وثيق بقلب الإنسان.. وهو ارتباط أشبه ما يكون بارتباط القمر بالبحر.. حركة القمر - كما هو واضح ومعروف - تؤثر على البحر فينتج عن هذا التأثير المد والجزر. إذن: فالقمر مرتبط بالبحر.. أو قل: إن له أثراً كبيراً في المد والجزر.. هذا صحيح.. والصحيح أيضاً أنه كما في البحر والقمر، كذلك في العرش، وقلب الإنسان.. بين قلب الإنسان، وعرش الرحمن، بحيث إذا انكسر قلب الإنسان اهتز له عرش الرحمن، وكلما كان القلب أرق، كان اهتزاز العرش أقوى وأشد.. لأن القلب الرقيق يمتلك قوة معنوية جبارة تستطيع أن تؤثر حتى على الجبال.. ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢).

فإذا كان الجبل يتصدع من القرآن فكيف استطاع قلب النبي أن يستقبل القرآن ويحتضنه؟.. إنما استطاع برقته وعذوبته. فالقرآن الكريم يصف قلب النبي بالرقّة فيقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٣).

إذن: فكلما كان القلب رقيقاً كان أكثر قوة على التأثير.. ولذلك نجد

(١) مريم: ٩٠ .

(٢) الحشر: ٢١ .

(٣) آل عمران: ١٥٩ .



أن الحديث عندما يتعرض لمسألة الطلاق يقول: إنه أبغض الحلال إلى الله، وأنه يهتز له عرش الرحمن.

وهنا أود، بالمناسبة، أن أذكر بعض النقاط حول هذه المسألة بالذات:

أولاً - لماذا يهتز عرش الرحمن من الطلاق؟.. السبب واضح وهو أن الأطفال الصغار يكونون هم الضحية الأولى لهذا الانفصال، ولذلك تظل قلوبهم منكسرة..

لذلك يهتز عرش الرحمن لهذه القلوب المتصدعة المنكسرة.

ثانياً - لاحظوا الدقة في الصفة التي أطلقها الرحمن على نفسه وهي الرحمة، فقال: عرش الرحمن ولم يقل عرش الله، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الله سبحانه يريد أن يذكر الزوجين بالرحمة التي قامت الحياة الزوجية بها منذ اللحظة الأولى التي تم فيها العقد، ونجدها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (١).

وهنا نجد الرحمة التي جعلها الله رباطاً مقدساً في الحياة الزوجية، نجدها تذوب في الطلاق وتتحول إلى حقد وعداوة وبغضاء.. ولذلك حينما يقول: يهتز عرش الرحمن فإنه يريد أن يذكرنا بهذه الرحمة المنسية المغمورة التي طمرتها أنقاض الخلافات، وحطام المنازعات المشتعلة تحت السرير الزوجي.

(١) الروم: ٢١ .



على أنه أحياناً يكون الطلاق باباً من أبواب السعادة والرفاه والفرج، وذلك عندما تتحول الحياة الزوجية إلى كتلة من المشاحنات، فتصبح الأسرة شعلة من الجحيم يصطلي بنارها الأطفال الصغار، فإن الإسلام هنا يفتح أبواب الطلاق والانفصال على مصراعيها ويعتبر الطلاق خطوة تقدمية (متقدمة) لأنها تحفظ الأطفال من الضياع والتمزق الذي ينتظرهم في جو الأسرة العابق بالدخان والرماد، فيقول القرآن الكريم مشيراً إلى هذا الباب بقوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ (١).

بمعنى إذا انفصل الزوجان بالطلاق فإن الله سيغني كل واحد منهما من سعته ورزقه ويجعل لهما مخرجاً وطريقاً إلى روح السعادة والفرج.. وهذا إنما يحدث حتى لا نتصور جمود الفكر الإسلامي وأن الإسلام يشمئز من الطلاق في كل الأوقات والأمكنة والأزمان.. لا وألف لا.. وكلا وألف كلا.. إن الإسلام دين الفطرة والعقل، ودين الحرية والانطلاق.. وهو - أي الإسلام - لا يريد لك أنت الرجل وأنت المرأة - لا يريد لأي واحد منكما أن يعيش مع شريك لا يستطيعه ولا يستلطفه ولا يستعذبه.

وإذا كان الإسلام يجعل الطلاق أبغض الحلال في كل الأوقات فما الفرق إذاً بين الإسلام وبين المسيحية التي حرمت الطلاق فوقعت في فخ المشاكل والمعاناة، الأمر الذي جعل الفاتيكان يقر ويعترف في النهاية بالخطأ الفادح الذي ارتكبته الكنيسة عندما حرمت الطلاق.. ثم

(١) النساء: ١٣٠ .



يضرب الفاتيكان على رأسه بعضا الواقع وهراوة الحقيقة فيشرع قانوناً يبيح الطلاق، ويسمح بانفصال الزوجين عند نقطة الجحيم العائلي.

على كل حال.. إنما ذكرت هذه النقاط استطراداً حتى لا يتصور القارئ أن الإسلام جامد وأنه ينظر إلى جانب واحد في هذه المسألة. أبدأ. وبالرجوع إلى أصل الموضوع وصبب البحث نقول: إن الطلاق في الأمور الاعتيادية والطبيعية يعتبر أبغض الحلال إلى الله، وكذلك فإن الطلاق يهتزله عرش الرحمن، وإنما ذكر الرحمن ليذكر الزوجين بالرحمة التي كانت تظلل جو الأسرة، وينعم تحت أغصانها الأطفال الصغار.

ثالثاً - إن العرش يهتز كذلك لدمعة اليتيم، فيقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : (إياكم ودمعة اليتيم فإنها تسري في الليل والناس نيام...). على أنه توجد هناك آيات وأحاديث كلها تشير إلى هذه الحقيقة وهي كون الطبيعة مرتبطة بالشريعة، وأن الأحكام التشريعية تحكم على الأحكام التكوينية.. ومن تلكم الآيات نقرأ الآيات التالية في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (١).

(١) الرحمن: ١-٩ .

وهنا لاحظوا الدقة في التعبير، إنه ربط ميزان السماء بميزان الأرض.. وميزان السماء يسير الكواكب والنجوم، وميزان الأرض يسير الحياة الاجتماعية فيقول: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، ثم رأساً وبلا فاصلة يقول: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

ونحن إذا ذهبنا أكثر وتعمقنا بشكل أوسع في هذا المجال، نجد أن أمماً وأقواماً، أخلوا بالميزان التشريعي وخانوا أمانة الميزان الاجتماعي فضربتهم السماء بوابل من العذاب، ونزل عليهم البلاء بسبب نقضهم لميزان الشريعة. فلأنهم نقضوا ميزان الشريعة، صفعهم ميزان الطبيعة، كما هو واضح في قصة قوم شعيب النبي حيث كان يقول لهم: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (١).

فخالفوه وعصوا أوامره، وساروا في ضلالهم غير مراعين للموازن، والمكايل، فكانت النتيجة أن جاءهم العذاب بغتة كنتيجة لمخالفتهم للميزان التشريعي الاجتماعي.. على أن هذه الأمور تحتاج من القارئ لكي يستوعبها إلى وقفة تأمل وتدبر وفطنة حتى ينتفع أكثر فأكثر.

على أن هذه القصص والقضايا كلها تشير إلى هذا الواقع، وهو أن السنن التشريعية تؤثر بالسنن الكونية سلباً وإيجاباً، فمثلاً نجد التقوى وهي قانون تشريعي يؤثر إيجاباً وسلباً على موازين الكون، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٢).

(١) الأعراف: ٨٥ .

(٢) الطلاق: ٣ .



إن مجرد التقوى تكفي لفتح أبواب السماء، وإنزال الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان.

ونفس الشيء يقال في الاستغفار حيث يقول القرآن الكريم مشيراً إلى هذه الحقيقة: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۝ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۝ (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ۝ (١٢)﴾.

ونحن نعرف أن الاستغفار قانون تشريعي قد ترك أثراً بالغاً في القوانين التكوينية وحرك سنن الطبيعة وهي إنزال المطر، وكثرة الذرية ونمو البساتين، والأنهار إلى آخر ما هنالك من قوانين كونية وسنن طبيعية تتحرك بمجرد الاستغفار والدعاء وهذه الأخيرة لا شك في أنها من القوانين التشريعية التي ليس عليها غبار. فأنت تدعو، وتستغفر فيسبب هذا الدعاء والاستغفار انفتاح أبواب السماء.. ولماذا العجب، فنحن عندنا في عالم الماديات أشياء مشابهة لهذا الذي نتحدث عنه.

الآن عندنا الأقمار الصناعية تدار من محطات رادار في الأرض.. وعندنا المركبات الفضائية والسفن التي تشق أعماق الفضاء هذه كلها تتحكم بها محطات أرضية توجهها إلى حيث تشاء.. ويحدث أحياناً أن المحطة الأرضية أو قل: محطة المراقبة تريد أن تفتح بوابة كبيرة في قلب السفينة الفضائية المنطلقة إلى المريخ، فتبدأ المحطة الأرضية بقراءة أرقام معينة مثلاً: ٥ - ٨ - ٩ - ١٠ - وما إن تنتهي من قراءة الرقم حتى تفتح البوابة الحديدية العملاقة التي هي في قلب السفينة

(١) نوح: ١٠ - ١٢ .

الفضائية بنفس السرعة واللحظة.. أقول: إذا كانت قراءة أرقام معينة تكفي لفتح بوابة السفينة الفضائية وهي على مسافة ملايين الأميال في الفضاء فكيف لا تستطيع كلمات الدعاء والاستغفار أن تفتح أبواب السماء بالرحمة والخير والبركة والعطاء؟ فإذا كانت في عالم الماديات، تستطيع الأرقام الجامدة أن تفتح بوابات السفن الفضائية، فكيف لا تستطيع آيات القرآن الكريم وكلمات الدعاء والاستغفار أن تفتح أبواب السماء بالرحمة.. بل كيف لا تستطيع أسماء أهل البيت محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم السلام - أن تفتح أبواب السموات والأرض؟.. كيف؟ إذا كانت دمة يتيم تهز عرش الرحمن فكيف لا تهتز أبواب السموات العلى لدمة مظلوم، أو محروم يئن تحت العذاب؟

أجل.. إنها تقدر، وتستطيع أن تحرك كل أبواب السموات والعرش، وهذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة التي تدعمها الأدلة من القرآن والسنة والعقل والإجماع، بل إن التجربة لتؤكد ذلك.

* الولاية التكوينية للمعصوم:

ومن هذا المنطلق تأتي فكرة الولاية التكوينية للمعصوم، فالمعصوم يمثل التشريع، وله ولاية مطلقة على الكون.. بل أكثر من ذلك نجد المعصوم يمثل القلب النابض في هذا الكون.. وكما أن القلب إذا أصابه اضطراب تضطرب أعضاء البدن معه، كذلك المعصوم إذا أصيب يضطرب الكون لإصابته كما حصل في وفاة النبي، ووفاة الزهراء، ومصرع الإمام علي. ومقتل الحسن واستشهاد الحسين - عليهم أفضل



الصلاة وأزكى السلام - . حيث انكسفت الشمس والنجوم، ومطرت السماء دماً، كما كشفت السيدة الحوراء زينب بطلّة كربلاء عن هذه الحقيقة حيث قالت: (أفعببتم إن مطرت السماء دماً، ولعذاب الله أخزى وأنتم لا تتصرون، فلا يستخفّنكم المهل، فإنه لا يحفزّه البدار، ولا يخاف فوت الثار وان ربكم لبالمرصاد).

هذا وقد تناقلت الأخبار، ورواد الحديث أنه بعد واقعة الطف ما رفع حجر عن حجر إلا وجد تحته دم عبيط، وهذه الأخبار نجدها منبثة في كتب القوم.

وتأكيداً لهذه الفكرة، فإننا نجد يوم تلقى الإمام علي ضربة من عدو الله ابن ملجم المرادي بالسيف على رأسه وهو قائم يصلي في المحراب في غرة التاسع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة، أقول: نجد أن الكون كله قد تغير، وهبت ريح سوداء مظلمة وتصكصكت أبواب الجامع، وحدث زلزال رهيب في الطبيعة فزع الناس على أثره، بالإضافة إلى أصوات البكاء والنياحة في السماء، وقد سمع الناس صيحة وبكاء جبرائيل الأمين وهو ينعى أمير المؤمنين وينادي بين السماء والأرض: (تهدمت والله أركان الهدى.. قتل علي المرتضى.. قتله أشقى الأشقياء..).

ونفس الشيء حصل يوم عاشوراء ساعة مصرع الحسين، حيث طلب الإمام زين العابدين من عمته زينب أن ترفع له طرف الخباء، فلما رفعت طرف الخيمة رفع صوته قائلاً: عمّة زينب عليك بالفرار هذا رأس أبي الحسين فوق رمح طويل.. وكان الكون قد تغير، ولذلك جاءت الحوراء زينب تسأل حجة الله السجاد عما يجري في الكون في هذه

الساعة. فلما أخبرها تيقنت أن البلاء قد نزل، فراحت تجمع العيال والأطفال من تحت سنانك الخيل وحوافرهما، لأنهم تتاثروا بالعراء كما تفرقت النساء هنا وهناك يبحثن عن المحامي والكفيل فلم يجدن أحداً يحامي عنهن، ولا أحداً يدفع الضيم عن حرم رسول الله ﷺ. ولا شك أن الطبيعة تحزن لموت المعصوم، وتفرح لفرحه.. وقد أشارت الأحاديث الواردة عن أهل البيت لهذه الحقيقة، وقد سار الشعراء، والأدباء على هذا المنوال.. فهذا أبو العلاء المعري الشاعر والحكيم يقف يقلب طرفيه في الماء فيرى الحمرة التي تصبغ الشفق فيقول إن هذه الحمرة إنما هي من دماء علي والحسين.. على أن العمى الذي أصاب عينيه لم يكن في استطاعته أن يصد أبا العلاء عن هذه الرؤية، وهذه، النظرة، فيقول:

وعلى الأفق من دماء الشهداء	علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجران	وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشر	مستعدياً إلى الرحمن

لذلك نجد الكون كله مشدوداً للمعصوم، سواء كان المعصوم من الأنبياء أم من الأئمة. وهذا الكون يفرح بمولد المعصوم.. ويحزن لفقده.. ثم هو - أي الكون - يعبر عن فرحه، وحزنه بطريقته الخاصة، من خلال أحداث، ووقائع تحصل خلال المناسبة.. فمثلاً في مولد النبي ﷺ أشرقت الأرض بنور ربها.. أشرق نور من المشرق إلى المغرب فأضاء كل بيوت مكة والمدينة، حتى وصل إلى قصر كسرى وإيوان هرقل ملك الروم.. ثم تساقطت شرفات القصر، وكان عددها أربع

عشرة شرفة - ولا أدري ما هو السر الكامن وراء هذا العدد الذي يطابق عدد المعصومين الأربعة عشر - ثم غاضت بحيرة ساوة.. وانطفأت نار المجوس وكانت مشتعلة لآلاف السنين والأعوام.. كما أنه في وفاة النبي انكسفت الشمس، واهتزت الأرض وتناثرت النجوم والكواكب واندلعت ريح سوداء مظلمة غطت سماء الحجاز لأيام عديدة.. وكما في النبي كذلك في الأئمة المعصومين.

ولا شك أن الكون يفرح، ويحزن. يفرح بمولد المؤمن.. ويحزن لموته.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾^(١) هذا طبعاً بالنسبة للكفار وهم فرعون وأصحابه.. فإذا كانت السماء لا تبكي لموت الكافر، فإن مفهوم هذا الكلام أن السماء تبكي لموت المؤمن وتحزن لفقده.. وقد كشف الإمام علي عليه السلام عن هذه الحقيقة حيث قال: (إذا مات المؤمن بكاه موضعان: موضع عمله الصالح.. وموضع صلاته). ورحم الله الشعراء العالمين الذين فتح الله بصائرهم فناجاهم بأفئدتهم فرأوا الحقيقة ناصعة أمام أعينهم. وهذا أحدهم يرثي الإمام الحسين عليه السلام فيقول :

أروحك أم روح النبوة تصعدُ	من الأرض للفردوس، والخورسجدُ
ورأسك أم رأس الرسول على القنا	بآية أهل الكهف راح يردد
وأملك أم أم الكتاب تنهدت	فذاب نشيجاً قلبها المتنهد
وشا طرت الأرض السماء بشجوها	فواحدة تنعى وأخرى تعددُ
لقد لبس الوحي العزاء ببيته	عليك حداداً والمعزى محمدُ

(١) الدخان: ٢٩ .



إذن: فالطبيعة تفرح وتحزن، لمولد وموت المؤمن، فما بالك بحجة الله في الأرض؟ لاحظوا الدقة في هذا الأمر، حتى كأن المعصوم لكون حاملاً لقوانين الحق التشريعية، أقول: كأنه قلب الكون والطبيعة، ولذلك إذا مات المعصوم اهتزت لموته الأرض والسماوات العلى. ولقد أشار أبو العلاء المعري إلى هذه الحقيقة وكذلك المؤرخون إلى الحمرة المغربية التي تلون الأفق بلون الدم والحزن والدموع.. وكيف أنه ما رفع حجر عن حجر إلا ووجد تحته دم عبيط.. وكيف أن عبدالله بن عباس رأى النبي في المنام يحمل بيده زجاجة مليئة بالدم وهو في حالة بكاء وحزن وقد بدت عليه آثار الغبار.. بدت على رأسه، ولما سأله ابن عباس عن معنى وتفسير هذا الدم الذي يحمله معه، قال له: يا ابن عباس هذا هو دم الحسين وأصحابه.. والرواية هذه موجودة في كتب السنة والشيعة، لا.. بل كل هذه الروايات التي أنقلها هنا إنما أنقلها عن كتب المسلمين كافة وليس عن طائفة دون أخرى.

* القوانين التشريعية ثابتة لا تتغير:

والآن نأتي إلى القوانين التشريعية بعد أن عشنا وقتاً لا يستهان به في رحاب القوانين الكونية في الطبيعة.. ولكن قبل أن ندخل في صميم الموضوع فإنه لابد من الإشارة إلى أن هذه القوانين الكونية المنبثة في الطبيعة، هذه القوانين تتفق. عليها الأمم كافة، إذ لا يخاف فيها أحد. ولكي تتضح معالم البحث بين أيدينا فإنه لابد من ذكر الحقائق التالية:

أولاً - إن في الكون كتابين: واحد تكويني وهو الطبيعة وقوانينها..



وآخر تشريعي وهو الشريعة وقوانينها .. وكما قلنا: إن الشريعة هي الحاكمة على الطبيعة.

ثانياً - إن هذه القوانين التكوينية لا يمكن أن يصيبها القدم ولا أن تكون عتيقة .. كذلك السنن التشريعية التي تدير المجتمعات فإنه لا يمكن أن يعتريها القدم ولا العتق.

ثالثاً - إن هناك تطابقاً شديداً بين هذه السنن سواء كانت سنناً كونية تجري في الطبيعة، أو كانت سنناً قرآنية تجري في الشريعة .. ففي كلتا الحالتين تظل هذه السنن ثابتة لا تتبدل، ولا تتغير أبداً .. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (١).

وبالمثل فليس في إمكان الإنسان أن يدخل تعديلاً في قانون الضوء .. في سرعة الضوء، كأن يزيد في هذه السرعة أو ينقص منها شيئاً .. أبداً .. السرعة ثابتة تجري في حدود ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة أو ما يعادل ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية .. وهذه هي سرعة الضوء في كل نقطة من هذا العالم الواسع، وهذا الكون الفسيح .. ليس في مقدور أحد منا أن يغير أو يبدل من هذه السرعة، شيئاً .. وما يقال في قانون الضوء، يقال أيضاً في بقية قوانين الفيزياء والكيمياء والهندسة، والرياضيات، حيث تظل قوانين هذه العلوم صامدة راسخة، ثابتة في أعماق هذا الكون .. وهي بعد هذا وذلك لا يعتريها فناء .. ولا يصل إليها القدم، ولا تكون عتيقة بمرور الأيام، إذ إنه لا الزمان ولا

(١) فاطر: ٤٣ .



المكان يمكن أن يخلق جدتها أو يذهب ببريقها.. إنما هي دائمة التجدد والتوهج والعطاء.

وبالمثل: فكما أن القوانين الكونية لا تعتق، ولا يصيبها القدم.. كذلك القوانين التشريعية، لا تعتق - هي الأخرى - ولا يصيبها القدم. ولتوضيح الصورة أنقل لكم بعض هذه القوانين التشريعية، في الواجبات، وفي المحرمات. ولنبدأ بالمحرمات أولاً:

١- شرب الخمر.

٢- الزنا.

٣- اللواط.

٤- لعب القمار.

٥- أكل الربا.

٦- أكل الدم والميتة ولحم الخنزير.

٧- أكل أموال الناس بالباطل.

٨- القتل وسفك الدماء.

٩- نشر الفساد في الأرض.

١٠- الغيبة والنميمة وما شابه ذلك.. إلى عشرات المحرمات الأخرى التي جاءت بها الشريعة وأكدت حرمتها وذلك لأن فيها ضرراً وليس فيها نفع للإنسان لا من قريب ولا من بعيد.

والسؤال الآن هو: هل يستطيع أحد أن يدّعي أن هذه المحرمات أصبحت بالية عتيقة يجب ألا تقف حجر عثرة في طريقنا بل يجب أن



نحولها إلى مباحة ومشاعة بين الناس؟.. هل يستطيع شعب من الشعوب أن يحلها بعد تحريمها بحجة التقدمية والانطلاق؟..

لا أظن ذلك.. لأن الحرام هو الحرام يظل يحمل بين طياته دماراً وخراباً وضرراً للناس والأفراد، والشعوب على حدٍ سواء.

إنه ليس في إمكان أحدٍ أن يقول: إننا اليوم تقدمنا، وهذه المحرمات أصبحت قوانين بالية مستهلكة عتيقة يجب أن ندوسها بأقدامنا ولا نلتفت إليها.

إنه ليس في وسع أحد - مهما أوتي من التقدمية والانطلاق - أن يدعي بأن الخمرة حلال، والزنا حلال، واللواط حلال، والمساحقة حلال، والربا حلال.. وقتل النفس وسفك الدماء وهتك الأعراض حلال.. أقول: ليس في مقدور أحد أن يقول ذلك ولا في وسع شعب أن يدعي ذلك.. وإن تظاهر بعض الناس باستباحة هذه المحرمات.. فعلى الرغم من استباحة بعض الأنظمة لهذه المحرمات، إلا أنها تظل محرمات بشعة تنفر منها الطباع، وتأبأها النفوس الأبية.

ولكي أوضح لكم الصورة، بشكل أكثر صراحة، دعوني أضرب لكم المثال التالي:

أولاً - تصوروا مجتمعاً يبيع الزنا واللواط، والربا، والخمر.. والقمار، وقتل النفس البشرية، وأكل أموال الناس بالباطل، أقول: إن مجرد التصور لمجتمع يستبيع الأعراض ويسفك الدماء ويحل القتل والنهب، والسرقه.. إن مجرد تصور مثل هذا المجتمع يبعث على الغثيان والقرف، فما بالكم إذا وقع مجتمع ما بهذا الفخ، وهذا المقلب؟!

وأي مجتمع هذا الذي تجري حياته بهذا اللون من الفوضى... هل يمكن أن نطلق عليه اسم مجتمع... لا أصدق أبداً.

إن نظرة واحدة نلقيها على المجتمعات الغربية التي أباحت بعض المحرمات.. أباحت قسماً من المحرمات وليس كلها، إذ ليس هناك مجتمع يبيح القتل وانتهاك الأعراض، والاغتصاب، والاختطاف، والسرقة والنهب، والسلب.. أبداً ليس هناك من يحلل هذه المحرمات، بل يكاد يكون شبه إجماع بين شعوب الأرض على تحريمها ومنعها، إلا أنه لا توجد مجتمعات لا ترى بأساً في . إشاعة الفاحشة، وشرب الخمر وانتشار اللواط، وما شابه ذلك من القضايا المعروفة لدى الحضارة الغربية اليوم.

أقول: مع هذا كله، فانظروا ماذا حل بتلك المجتمعات اليوم.. إن الأخبار تحدثنا، وتطالعنا صباحاً ومساءً عن هزيمة مروعة للإنسان الذي يعيش في هذه الحضارة المادية.. هزيمة روحية.. وهزيمة نفسية ظهرت آثارها على الفرد، والعائلة والمجتمع.. حيث الأسرة محطمة في الغرب.. وحيث الأولاد مشردون.. ضائعون . . تائهون، تلعب المخدرات في عقولهم.. وتعبث صرخة الأفلام الجنسية بأعضائهم، حتى أصبح الشباب هناك لا همّ لهم سوى إشباع شهواتهم، وإرضاء غرائزهم، وكأنهم بهائم سائمة.. وقد بلغت هذه المحنة ذروتها في الشباب الأمريكي بالخصوص، حيث إنه لا يقبل من كل عشرة شباب يتقدمون إلى السلك العسكري، الجنائية، لا يقبل منهم سوى اثنين، وذلك بفعل الأمراض النفسية والجسدية التي حطمتهم وحولتهم إلى أشباح متحركة.. وإنه لما يعتصر القلب أسفاً ومرارةً أن تكون هذه الحضارة

الجميلة تتجب أولاداً معاقين، مشلولين محطمين. كل ذلك بسبب
النقص، والتسبب والفلتان الذي يرافقهم في غوغائية وفوضى، من
جانب، وبفعل الأمراض التي تعصف في أجسادهم ونفوسهم من جانب
آخر.. بحيث أنك ترى الواحد منهم إذا قام من طينة وقع في طينة
أخرى، ويظل غارقاً في الوحل والظلام، فهو إذا أفلت من قبضة نقص
المناعة المكتسبة (الإيدز) أخذه الهريس من مكان آخر.. وإذا نجا من
شبكة الأمراض البدنية.. أخذته الأمراض النفسية، من قبيل: مرض
الكآبة.. والقلق.. واليأس، والتردد.. والشعور بالإحباط الملازم له طوال
أدوار الحياة.

هذا طبعاً في المحرمات.. فهل يوجد من يجيز استعمالاتها،
واستباحتها؟ كلا.. بالطبع.

وهل هناك مجتمع يبيح القتل.. ويسمح به..؟ أبداً.

وهل يوجد من يسمح بالسرقة والسطو، والاعتداء على حقوق
الآخرين؟ كلا.. بالطبع.

إذن: فهذه قوانين يحتاجها البشر ولا يستغني عن تحريمها أحد.

هذا طبعاً في المحرمات.. ولكن في بداية حديثي هذا قلت لكم:
تعالوا أضرب لكم مثلاً على ذلك، لكي تأتي الصورة واضحة، ويبدو
أنني شطحت عن المثل، وهنا أود أن أذكره، وأثبتته لكم في هذا المكان
ليكون دليلاً قوياً، وبرهاناً قاطعاً على صحة هذه الفكرة الإسلامية
الرائعة. والمثل هو:

تصور أن إنساناً يريد الخلاص من حياته، ولكنه لا يملك الشجاعة



لذلك، فهو لديه مسدس ولديه طلقات نارية ويقرر الانتحار، ولكنه ليس شجاعاً إلى درجة الإقدام على الانتحار (طبعاً بين قوسين أقول: إن الذي يريد الانتحار هو من أجبن الناس وأتفههم كما تقول التقارير الرسمية في هذا المجال، في مجال علم النفس، حيث أثبتت الأرقام أن الذي يقوم بمحاولة انتحار إنما هو شخص يعاني من الجبن وانعدام التركيز، وضعف الشخصية، وهذه سجلتها لئلا يتحرك الشيطان في دمك فيدفعك إلى هذه الهاوية، وإنما نحن في مثال نريد منه أن نقرب الصورة إلى الأذهان ليس أكثر)^(١).

أقول:

تصوروا شخصاً يريد الانتحار، وعنده أدوات الانتحار من المسدس وطلقات نارية، ولكنه لا يملك الشجاعة، فيبدأ بالبحث عن صديق له يساعده على إجراء هذه العملية، وتنفيذ هذه المحاولة، وبالتالي يقع اختياره على صديق له، فيدعوه إلى بيته ويعرض عليه الأمر قائلاً: إني قد سئمت الحياة وأريد الخلاص منها، ولكني لا أملك الجرأة الكافية لإطلاق النار على نفسي، فأرجوك من صميم قلبي أن تأخذ هذا المسدس وتطلق النار على رأسي وتختتم حياتي.

إنه طلب عجيب بقدر ما يثير الشفقة والفرع في آن واحد.. إذ كيف يمكن لإنسان أن يقتل أخاه الإنسان وهما في بيت واحد، وعلى مائدة واحدة.. إنه لا شك - سؤال غريب، وطلب عجيب!!.. ولكن الرجل يظل مصراً في إلحاح على صاحبه يريد منه أن يقوم بتنفيذ هذه

(١) أخذنا هذا المثال من كتاب فن الخطابة للشيخ محمد تقي الفلسفي، ونقلناه هنا بتصرف.



العملية.. ولكن مع هذا الإصرار، والإلحاح، فإن الصديق يرفض الطلب معتذراً إنه إذا أطلق النار عليه فإن القضاء سيلاحقه وان الشرطة ستلقي القبض عليه، وتزجه في السجن.

وهنا نجد الشخص الذي يريد الانتحار، يطلع من نافذة أخرى على صديقه فيقول له: اعلم يا أخي أنني سأكتب لك هنا عريضة موقعة بقلمى وخط يدي، وموجهة في الوقت ذاته إلى السادة القضاة أعضاء هيئة محكمة الجنايات العليا.. أوضح لهم أنني أنا الذي طلبت منك أن تطلق النار علي وإني أعفيك من المسؤولية وأوقع لك بإمضاء يدي وقلمى، فماذا تريد بعد أكثر من هذا؟.

وهنا يلتفت الصديق إلى صاحب الطلب ويقول له: لو أنك كتبت هذه الرسالة، ووقعتها، فهل يا ترى يقبلها القضاة والحكام ثم يتركونني لسبيلي حراً أكل الطعام وأمشي في الأسواق؟ الجواب طبعاً لا.. لماذا؟ لأن القتل هو قتل، وهو جريمة، ولا يمكن لأي إنسان أن يستبيح هذه الجريمة أبداً.

وهذا المثال يبين لنا أن الحرام هو حرام عند كافة الشعوب، وأنه ليس هناك من يقول: إن جريمة القتل أصبحت بالية وان هذا القانون صار قديماً ويات عتيقاً وعلينا أن نعيش التقدمية والازدهار ونرفع القوانين القديمة، والآن نبيح القتل والسلب والانتحار.

وكما في المحرمات.. كذلك في الواجبات.. إذ لا بد من الالتزام بهذه القوانين، ولا بد من تطبيقها وإجرائها على الجميع ليعيش الناس في أمن، وفي سلام. وإلا فهل من الممكن القول: بأن الواجبات، والحقوق أصبحت هي الأخرى قوانين قديمة لا بد من رفضها وسحقها؟ أبداً...



إن قانون الحقوق.. حقوق الإنسان، والحفاظ على الحقوق بكل ألوانها وأشكالها.. وقانون العدالة الاجتماعية.. وكذلك قانون الحريات وإعطاء الحريات للناس.. هذه كلها قوانين تتجدد كل يوم مع طلوع الشمس وغروبها.. وليس في وسع أحد أن يرفضها بحجة أنها قديمة عتيقة قد مر عليها آلاف السنين.. أبداً.. أبداً.. لا بد من قبولها واحتضانها، وإلا فمن دونها تظل البشرية تتعثر في ظلام دامس.. وتغرق في طوفان من الدماء، والحديد والنار.

* توضيح الفكرة بالمثل:

ويكفي لتأكيد هذه الفكرة، أن نلقي نظرة واحدة على شعب يعاني من وجود حاكم ظالم.. لتري كم هي المآسي، والآلام التي يزرعها هذا الشعب تحت نارها وحديدها.. واليوم يمكن أن ينطبق هذا المثل وهذه الصورة على شعب العراق، هذا الشعب الذي وقف كفزال جريح يجاهد من أجل البقاء، واسترداد شخصيته التي مزقتها طاغية العراق، هذا والأخبار التي تردنا من العراق مبللة بالدموع، والآهات، والدماء، إنها أخبار تتحدث عن آلاف القتلى والجرحى، وذلك في جو يشبه الحرب الأهلية بالكامل، من اصطدامات تقع كل يوم بين قوات الحكومة وبين الشعب الذي انتفض ونهض من بين الأنقاض والركام، والحديد والنار، والدمار، نهض ليقول كلمته، ويطالب بحريته..

أقول:

انتفض هذا الشعب من البصرة، ومن الفاو، ومن الجنوب، إلى



الفرات الأوسط حيث تحركت العشائر في جحافل من أجل الجهاد.. وكذلك في البلاد المقدسة: كربلاء.. والنجف والكاظمية، وحتى في سامراء.. وفي الشمال حيث قام الأكراد وسيطروا على أغلب الأراضي الشمالية... واليوم ما زالت الأخبار تتوارد ونحن نسمعها وفي العين دمة، وفي القلب حسرة، حيث جاءت الأنباء عن كربلاء المقدسة بأنها تدمر.. فقد كتبت مراسلة لصحيفة أمريكية كانت في كربلاء، وقد وصلت اليوم وهو اليوم الأول من الشهر الرابع من هذه السنة، وصلت إلى مسقط تتحدث عن كربلاء المدينة الجميلة بأنها تحولت إلى خرائب مرعبة، وقالت: إنها غادرت كربلاء أمس الأول وهو اليوم الذي أعلنت فيه المعارضة في جنوبي العراق أنها سيطرت على المدينة التي ظلت لعشرة أيام في أيدي المعارضين في بداية القتال ضد القوات العراقية، وقالت كيلى - وهو اسم هذه الصحفية المذكورة - قالت: (قد دمرت كربلاء تماماً، وبالكامل واحتلت القوات المسلحة العراقية التي تدعمها الدبابات مواقع في أنحاء المدينة، وأضافت تقول: وما شاهدته كان كابوساً.. لقد دمرت هذه المدينة الجميلة بالكامل)^(١).

كان هذا مجرد مثال ضربناه للشعب الذي يبتلى بحاكم ظالم مثل طاغية العراق الذي يضرب بهذه القوانين والمبادئ والأعراف الدولية، يضرب بها عرض الحائط، كيف يكون مصيره وقد بينا ذلك ببعض هذه الصور المأساة التي التقطناها من الإذاعات، ومن الصحافة التي

(١) جريدة سفير اللبنانية العدد ٥٨٥٠ السبت ٣٠ آذار عام ١٩٩١ الموافق ١٤ رمضان عام ١٤١١ هجرية.



تتابع أخبار الكارثة، وتغطي ما يجري في الداخل، داخل العراق، على الرغم من أن الذي يجري في الداخل شيء كبير، وعظيم ورهيب.

إذن: فليس في إمكان أحد أن يتكرر لهذه القوانين والمبادئ والحقوق التي تطالب بحقوق الناس وحررياتهم.
أقول:

ليس في إمكان أحد أن يرفضها بحجة أنها قديمة.

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه السنن والقوانين التي تجري في المجتمع.. وبين تلك السنن والقوانين التي تجري في الطبيعة، وفي الكون والسماء.

على أنه إذا حصل أي خلل في تطبيق هذه القوانين التشريعية في المجتمع، فإنه سيحصل تبعاً لذلك اهتزاز وخلل في سنن الكون يؤدي بدوره إلى أن يترك أثراً بالغاً في الحياة، وفي الناس، وهذا الأثر تارة يكون إيجابياً، وطوراً يكون سلبياً، تبعاً لنوع التأثير الذي يتركه التشريع..

وبالمثل: قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هذا القانون إذا لم يطبق تكون النتيجة هي اختلال موازين المجتمع، حيث يتسلط الظلمة وأعوان الظلمة على هذا الشغل الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول علي أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - : (لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيولّ عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم).



أجل.. إن كسر هذا القانون، يؤدي إلى شيئين:

أولاً: يسلط الأشرار والطفافة يحكمونكم بالحديد والنار.

وثانياً: يقطع الاتصال بينكم وبين رب العالمين، فتدعون فلا يستجاب لكم.

هذا قانون.. ونقرأ عن قانون آخر، يكشف لنا عن مدى الترابط بين الشريعة والطبيعة، والقانون يقول: إذا كثر الزنا كثر موت الفجأة، وارتفعت البركة من الأرض. أو قانون آخر مفاده: إذا ارتفع الحياء من النساء، ارتفعت البركة من الأرض.

كل ذلك يحدث، لأن الفسق يغمر الوعي، فيصبح الشعب فاقداً الوعي وهنا تسهل سيطرة الظلمة والمتسلطين على هذا الشعب.. وهذا هو ديدن اليهود في كل زمان ومكان حيث تراهم يسعون في نشر الفساد، والدمار والميوعة والانحلال الخلقي، كما تقرر ذلك في مبادئهم في بروتوكولات حكماء صهيون حيث يؤكدون على نشر الفحشاء، وإشاعة المنكر، وبث الفساد في كل طبقات الشعب، وذلك لكي يتحلل الشباب من أخلاقهم وتتغمس النساء في أحوال الجنس والمخدرات والأفلام الداعرة، وهنا تكون من السهولة بمكان سيطرة اليهود وأعداء الإسلام على الأمة الإسلامية.

يقول القرآن الكريم في وصف فرعون، وكيف أنه استخف قومه بهذا الأسلوب، يقول: ﴿وَنَادَىٰ فرعونُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) ﴿١﴾.

(١) الزخرف: ٥١ .

ثم يواصل فرعون كلامه عن موسى ويلقيه بازدراء واستخفاف، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣) ﴿^(١)﴾.

أي أنه لو كان موسى نبياً من الله لجاء معه بقوافل الملائكة... ولدخل علينا وفي يده أسورة الذهب، كما هو الحال لفرعون، هكذا كان فرعون يلقي أبناء الشعب بهذه اللغة الرخيصة وإنما استطاع أن يؤثر في نفوس الشعب، لأن الشعب كان فاسقاً، والفسق لا يملك الوعي، ولا الرشيد ولذلك نجد القرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٤) ﴿^(٢)﴾.

لأن الفسق يغمر الوعي، ويقتل الرشيد. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (٣).

* الكائنات تفرح للطاعة وتحزن للمعصية:

وفي قضية ارتباط الكون بالإنسان، يصور القرآن، صورة رائعة في قصة سليمان، وكيف سخر الله له كل شيء.
يقول: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ (٤).

(١) الزخرف: ٥٢ - ٥٣ .

(٢) الزخرف: ٥٤ .

(٣) البقرة: ١٠ .

(٤) النمل: ٢٠ .



ثم يتكلم مع الهدهد، ويسمع حديث النملة، ويقول: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾^(١).

لماذا منحه الله كل هذا العطاء؟ طبعاً ليكشف لنا عن هذا الارتباط الكبير في هذا الكون.

فيقول مثلاً: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^(٢).

إذن: فأنت تعيش وسط كون ساجد متعبد، وطبيعة ساجدة مصلية متعبدة لله سبحانه وتعالى.. كل شيء حولك.. يسبح الله ويقدسه.. فإذا صدرت المعصية من هذا الإنسان، ثارت هذه الكائنات كلها ضد المعصية، وثارَت الطبيعة بكل مخلوقاتِها ضد هذا الإنسان العاصي، وقد ورد أنه حتى الأرض تضج إلى ربها من هذا الإنسان الذي تحمله على ظهرها وهو يعصي الله.. ولولا رحمة الله بنا لنبذتنا الأرض من على ظهرها، في الهواء.. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(٣).

ولكن يأتي اليوم الموعد، وتأتي الساعة التي تصفى فيها الحسابات. فالأرض، والسماء والملائكة. وكل ما في هذا الكون يتألم ويظهر أسفه للإنسان العاصي، ورفضه للمعصية.. وقد مر علينا أن الهدهد وقف يتوجع من الألم الذي اعتراه من جراء رؤيته لبلقيس وقومها وهم يسجدون للشمس من دون الله، فوقف الهدهد على باب سليمان

(١) النمل: ١٦ .

(٢) النور: ٤١ .

(٣) فاطر: ٤٥ .



يتضور ألماً وحزناً وهو يقول: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١)... إلى آخر الآية.

إلى أن يقول: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

والخبء هو الرزق المخبوء تحت التراب، وفي العادة فإن الهدهد إنما يهتدي إلى هذا الطعام المخبوء تحت الأرض بمنقاره، ولذلك فقد اهتدى بفطرته على وجود الله من هذا الباب.

على أن الآيات كثيرة، والقرآن الكريم حافل بالآيات، والأدلة والشواهد على هذه الفكرة والحقيقة، وهي أن الكائنات تفرح للطاعة، وتحزن للمعصية.

* الإسلام دين الإنسانية:

والحسيلة التي نخرج بها من كل ما تقدم هي أن الإسلام دين الإنسانية، ودين المستقبل، وهو بعد ذلك الدين الأكثر تقدمية وانطلاقاً لأن مبادئه ومناهجه لا يعترىها القدم ولا يمكن أن تكون بالية أو عتيقة.. بل إنها صالحة لكل زمان ومكان.

وقد أعطى الله سبحانه ضمانات في القرآن كلها تؤكد حتمية انتصار الإسلام وأنه هو الدين الذي سيظهر على بقية الأديان كما

(١) النمل: ٢٤ .

(٢) النمل: ٢٥ .

وعد الله سبحانه عباده المؤمنين حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١).

إذن: فالله سبحانه وتعالى قد جعل في الإسلام عناصر التقدم، والظهور، وأهم عنصرين هما: الهدى والحق.. وإذا حلَّ الهدى والحق في شيء، فإنه لا محالة سينتصر على كل من يواجهه ويقابله. ولقد صدق الله وعده حينما قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢).

فالأرض في النهاية لابد أن تقع بأيدي الصالحين عاجلاً أم آجلاً.. هذا وإن العالم لينتظر بفارغ الصبر ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وجعلنا من أنصاره وأعوانه.. حيث سيملا الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً. وقد قال النبي ﷺ: (المهدي من ولد فاطمة).

* دروس وعبر من القرآن الكريم:

في قصة أصحاب الجنة يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ (٣).

(١) التوبة: ٣٣ .

(٢) الأنبياء: ١٠٥ .

(٣) القلم: ١٧ - ٢٠ .

في سورة القلم جاءت دروس، وعبر وأفكار قيمة ذات مغزى ومعنى وهذه كلها لا تخفى على الفطن اللبيب.. ويكفي لمن يريد أن يستقرىء ويستوضح الفكرة بعد الفكرة في هذه السورة، يكفي له أن يلقي نظرة واعية ومتألّمة على هذه السورة لتتكشف أمامه الحقائق التالية:

أولاً: إن هذه السورة بدأت بالقسم بأقدس شيء عرفه الإنسان وهو الكلمة.. وجاء القسم بالكتابة وأدواتها.. ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثم هذا القسم الرفيع المستوى، إنما جاء ليدفع تهمة الجنون عن النبي، وهي التهمة التي رماه بها المشركون والكفار.. لأن الذي يحمل الكلمة العليا إلى شعوب الأرض لا يمكن أن يكون مجنوناً، أوبه جنّة.. إن المجنون لا يميز بين الجيد والردىء.. ولا بين الضار والنافع، فكيف يأتي برسالة سماوية قائمة على جلب النفع ودفع الضرر، حتى تكون قاعدة من أهم قواعدها: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

وثانياً: إن هذه السورة أعطت أروع صفة للنبي وأطلقتها عليه وهي صفة الخلق العظيم أي الأخلاق العظيمة الطيبة.. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وعظيم ليس بموازين ومقاييس البشر وإنما هو عظيم بموازين الله رب العالمين الذي أرسله رحمة للعالمين.. فتارة أقيس أخلاق فلان بأخلاق إنسان مثله، كأن أقول إن فلان كريم، مثل حاتم الطائي، وهذا قياس وفقاً لموازين بشرية، ولكن طوراً أقيس أخلاق إنسان بموازين سماوية أي إنها أعظم وأكبر من أن يحيط بها علم البشر.. وهذا هو ما حصل بالضبط في تقييم السماء لأخلاق الرسول محمد ﷺ..



فحينما يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فإنه إنما يزنه بموازين ربانية لا تخضع لحساب البشر..

وإذا كانت أخلاقه بهذا المستوى من العظمة فكيف يمكن لأحد أن يرميه بالجنون؟ إنه لعجب عجاب..

وثالثاً - إن في السورة أنماطاً من الناس يجب على الواحد منا أن يكون حذراً منهم، أي أن يكون على حذر وهم كالتالي:

(أ) الحلاف المهين، وهو الذي يكون كثير الحلف بالباطل، ومهين أي ضعيف الرأي، حقير الإرادة، لا شخصية له.

(ب) هماز مشاء بنميم.. والهماز هو الذي يعيب الآخرين ويغتاب الناس أي عيِّاب للناس يكسر في أعراضهم ويذم ويقدح في حياتهم الشخصية.

ثم هو بعد ذلك مشاء بنميم أي يمشي في الناس بالنميمة، يمشي بين الناس بالوشاية والإفساد.

(ج) عتل.. والعتل يعني الجاف الغليظ.. إنه فظ غليظ القلب، سادر في الكفر لا يلوي على شيء.

(د) زنيم.. أي دعي لصيق وهو الوليد بن المغيرة. ثم يقول عنه: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

أي لأن له مالاً، فقد أبطره المال، وانبهر في البنين، فراح يفرق في حماة الكفر.

إذن: ففي هذه السورة يقول القرآن الكريم: إن هؤلاء الأفراد، لا

تمشي معهم.. بل كن على حذر من الانسياق وراءهم لأنهم بلاء.. ولأنهم يتركون بصمات نفوسهم القابعة في الخبائث، أو قل: يتركون ظلال نفوسهم الخبيثة على الصاحب، والصديق الذي يرافقهم.. إذن: فالحل والعلاج هو التقاطع والانفصال عنهم، اللهم إلا إذا كان الاتصال أو التواصل معهم يؤدي إلى هدايتهم فذاك حكم آخر، ولكل مقام مقال، ولكل حادث حديث، ولكن القضية هي أنهم طبع على قلوبهم فلم يصلح أي واحد منهم ولا يمكن أن يكون مؤمناً فلا علاج لهم إلا النار ولذلك فالحل الأمثل هو تركهم والابتعاد عنهم...

ثم تأتي هذه السورة فتقدم بين أيدينا تحذيراً من المال، ومن مغبة الانغماس في لذته وشهواته.

ويمكن لك أن تسأل: أليس الإسلام دين يحفظ كرامة الإنسان، ويصون وجهه، ثم يجعله ذا مال.. لأن الله يطلب من المؤمن أن يعطي الزكاة والزكاة لا يدفعها إلا صاحب المال. فكيف نوفق بين هذا وبين القول: بأن السورة هذه تحذرنا من مغبة الوقوع في حبائل المال؟..

صحيح أن الإسلام يحرص على تنظيم حياة الفرد مالياً، كما يحرص على أن يكون الناس أغنياء وذلك حين يشن حرباً شعواء ضد الفقر.. ويصل اهتمام الإسلام بنشر الغنى بين الناس ومحاربتة للفقر، يصل إلى درجة يجعل معها السعادة في الدنيا والآخرة قائمة على المال، فيقول: من لا معاش له لا معاد له. ويقول: عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه. ويقول: ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر. وفي كلام آخر يقول الإمام علي عليه السلام لولده: (يا بني استعذ بالله من الفقر فإنه سواد الوجه في الدارين).

ونقرأ في القرآن أن المال يشكل ركناً أساسياً في قيام الإنسان وقدرته على التحرك في الحياة، فيقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (١).

هذا كله صحيح.. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الإسلام يحذرنا من أن يدخل حب المال في قلوبنا لأنه إذا دخل المال القلب أسره وصيره عبداً مطيعاً له، فيكون الإنسان عبداً للدينار والدرهم، وليس عبداً لله.

ولكي تأتي الصورة أكثر وضوحاً أضرب لكم هذا المثال التالي:

المال للإنسان أشبه بالماء للسفينة.. فكما أن السفينة تستطيع أن تتطلق أكثر كلما كان الماء غزيراً وقوياً وكثيراً، كذلك الإنسان يستطيع أن ينطلق في الحياة أكثر حين يكون المال أكثر وأغزر وأعمق.. ولكن حذار أن يدخل الماء في قلب السفينة فإنه يغرقها ويدمرها.. إن السفينة تستطيع أن تتطلق أسرع، وأقوى حين تكون فوق الماء أما إذا تسرب الماء إلى الداخل فإنه سيقضي لا محالة على السفينة.. وكذلك ينطبق هذا المثال على الإنسان، فإن الواحد منا يستطيع أن ينطلق أسرع وأكثر إذا كان هو فوق المال، أما إذا دخل حب المال في قلب فإنه يغرق ويتحطم، كما تغرق السفينة وتتحطم إذا نفذ الماء إلى قلبها.

وهنا كن على حذر من أن ينفذ المال إلى قلبك.. فإنه يغريك، ويسرق منك إنسانيتك.. يسرق منك الإنسان الطيب الذي يعيش في الداخل.

احترم البيت الذي تسكنه، ولكن لا تجعله يدخل قلبك لأنك ستكون عبداً ذليلاً للبيت ولمن في البيت وهذا ضد كرامتك وضد إنسانيتك.

(١) النساء: ٥ .

احترم الأثاث المفروش في الدار ولكن لا تسمح له أن يدخل قلبك لأنه إذا دخل قلبك صار هو السيد المطاع.. بحيث إذا قام أحد أولادك بخرق السجادة فإنك ستضره وتعاقبه وتمزق مشاعره لماذا؟ لأن السجادة صارت هي الحاكمة في البيت، لا الحكومة.

السيارة التي تركبها.. احترمها لا مانع من احترامك لها.. ولكن لا تتركها تنفذ إلى قلبك، لأن ذلك يصير منك إنساناً صغيراً تهتم بالتوافه وتبيع دينك وضميرك من أجل السيارة، وهنا تصبح على استعداد لأن تسرق سيارة أخيك من أجل أن تحظى بها أنت لأن حب السيارة أعمى السارق وأصمه وجعله يسطو على أموال الآخرين فيسرقها، وهو بعد ذلك يكون على استعداد لأن يقتل ويدمر، وينهب من أجل إرضاء نزواته، وشهواته، وحبه للمال الذي اقتحم داخله، فأوقد نار الفتنة والشيطان في أعماقه.

ومن هنا فإن المؤمن لا يوجد في قلبه غير الله سبحانه.. أما الأشياء الأخرى من مال وبنين ونساء، وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة، وأنعام وحرث، فهذه كلها يعتبرها صغيرة لأنها متاع الحياة الدنيا.. أما أهم شيء في قلبه فهو الله، وحبه الله سبحانه وتعالى.

لذلك نجد الإمام علياً أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - نجده يصف هذا النمط من الناس فيقول: (عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم فهم والجنة كمن قد رآها. فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون).

وفي القرآن الكريم: آية نقرأها حيث تعدد هذه الأشياء التي تعتبر



من متاع الحياة فتجعلها في محلها المناسب دون أن تسمح لها بتجاوز الحدود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾.

ثم يضرب القرآن الكريم مثالا هنا في أهل الجنة، وهي البستان.. وهؤلاء فتية كان أبوهم رجلاً صالحاً، وكان فلاحاً ماهراً وله أرض كان يزرعها فتأتي بالعجب العجاب من الثمر والمحصول.

وكانت طريقته في الزراعة تعتمد على الأمور التالية:

أولاً - كان الأب فلاحاً ماهراً، ذكياً، وكان يتوخى الطرق النافعة التي تجلب الريح الكثير، وتعطي الثمر الكبير في الزراعة.

ثانياً - كان يجعل معه مجموعة من الأيدي العاملة القوية التي تساعد على الوصول إلى هدفه، وكان في غاية الإكرام لهؤلاء الذين يعملون معه.

ثالثاً - كان يجهد نفسه، ويتعب نفسه في حرث الأرض وسقيها، وإعطائها من الأسمدة والأشياء التي تقوي الأرض وتجعل محصولها يوم الحصاد وافراً.

رابعاً - كان إذا جاء الثمر الجيد، والحصيلة الكبيرة، يقوم بتوزيع الثمر يوم حصاده على الفقراء والمساكين، فكان الله يعطيه أكثر فأكثر، لأنه يعطي الفقراء والمساكين، ويأتي حق الزرع يوم الحصاد.. وحدث أن مات الرجل صاحب الزرع فورثه أبناؤه الثلاثة.. وهؤلاء كانوا على العكس تماماً من سيرة أبيهم، فقد كانوا بخلاء لا إيمان لهم بالآخرة، وحين جاء موعد الحصاد بيتوا في نفوسهم نية رديئة وهي أن يمنعوا الفقراء والمساكين الذين كانوا قد تعودوا على سيرة أبيهم.. لذلك



قررُوا أن يَمْنَعُوا كل فقير وكل مسكين من الاقتراب من البستان، ثم عزموا على احتكار هذا الثمر والمال والعطاء وحدهم فقط دون أن يسمحوا لأحد أن يأخذ منه شيئاً.

تصوروا أنه بمجرد هذه النية السيئة التي بيتوها ضد الفقراء، فإن النتيجة هي أن طاف طائف بالبستان ليلاً فاحترق الزرع وقضى على الثمر، وحين دخلوا البستان لم يعرفوا أبداً وإنما اعتقدوا أنهم ضلوا الطريق.. ولكن لما تبينوا أن البستان بستانهم، وأن الأرض أرضهم رجعوا إلى كلام أخيه الأوسط الذي كان ينصحهم بعدم السير وراء الشهوات وكان يأمرهم بإتباع سيرة أبيهم الطيب الذكر الصالح الأعمال، ولكنهم عاندوه ورفضوا فكانت النتيجة: أن احترقت جنينتهم وتحولت إلى رماد...

وهذه القصة من أعجب القصص في القرآن إذ إنها تبين مدى الأهمية الكبرى لنية المرء. فهؤلاء كانت نيتهم سيئة، فكان جزاء هذه النية العاطلة احتراق الثمر، وذهاب أتعاب العمر من بين أيديهم.. والآن تعالوا معي نقرأ القصة كما وردت في القرآن الكريم.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثُكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (١).

في اللغة - صرم يصرم صرامة. الرجل كان صارماً.. أي تجلد..

(١) القلم: ١٧ - ٢٤ .



ونقول: رجل صارم: أي ماض في كل أمر.. والعامّة تقول: حاكم صارم.. أي ليس عنده مسامحة في العقاب والتأديب.

ونقول في اللغة أيضاً: صَرَمَ يَصْرِمُ صَرماً وصُرمًا.. الحبل انقطع وأصرم النخل، حان له أن يصرم. أي يجنى ثمره.. والصريم: المقطوع. والأرض المحصود زرعها.. يقال لها: صريم أيضاً. إذن: فقوله: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي ليحصدوها ويقطفوها بالكامل عند طلوع الفجر.. وذلك قبل مجيء الفقراء، والمساكين الذين تعودوا أن يكونوا حاضرين في يوم الحصاد ليأخذوا حقهم من الثمر كأيام الرجل الصالح صاحب الجنة.

والمعروف هنا.. أن لديهم زرعاً حان حصاده، وكان أبوهم رجلاً صالحاً يعطي وقت الحصاد إلى الفقراء، والمساكين.. فعوّد الفقراء والمساكين على هذا العطاء، كما تقدم - ولكن أبناءه كانوا على العكس تماماً.. لذلك بيتوا قراراً في نفوسهم.. ثم لاحظوا النية وكيف أن لها تأثيراً بالغاً في سير الحياة، بحيث أن هؤلاء الأبناء ومجرد أن نوا نية في نفوسهم على هذا العمل، فقد أجابهم الله عزوجل بهذا الجواب.

وإذا كانت مجرد النية بعدم العطاء تؤدي إلى دمار الزرع وخراب الأرض، فما لالكم بمن يقدم عملياً على منع حقوق الآخرين وهضم أجورهم؟

أجل: هنا مجرد النية، لأنهم أضمرُوا سيئة ضد المساكين، والفقراء، لأنهم أرادوا إبعاد المحرومين والمساكين عنها.. فطاف عليها طائف وهم نائمون.



وإذا كانت مجرد النية الرديئة تفعل هذا الفعل، وتصنع مثل هذا الصنيع، وتترك خراباً، وبواراً وركاماً، فكيف بالعمل الرديء نفسه.. وكيف بالنية إذا صارت عملاً؟ إن انطلاقة الإنسان من الضمير.. وليس من غيره.. فالذي يغير ما بداخله نحو الأحسن يريح، ويظفر ويسعد.. بينما الذي يغير ما بداخله نحو الأسوأ فإنه - لا شك - سيهوي في مزالق الشر، ومهاوي الرذيلة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

ونرجع إلى اللغة، فنقول: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ..﴾.

المراد به البلاء والشر الذي حط على البستان فأحرقه ودمّره.. على أن تتكرر الطائف له دلالة كبرى في الأداء وفي الوصول إلى المطلوب، لأن تتكرر الشر يترك وقعاً في النفس كله خوف ورعب، واضطراب. ثم طاف عليها طائف.. وهم نائمون، ولكن الذي بيده الأمور، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

قال أوسطهم: ألم أقل لكم.. الخ.. وهذا يدل على أثر التربية.. فإن الأرض الطيبة إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.. وأعطت خيرها وثمارها، بخلاف الأرض الرديئة فإنها إذا نزل عليها الماء لا تعطي غير الأشواك والحنظل والطفيليات الضارة التي لا تخرج إلا نكداً.

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه.. والذي خبث لا يخرج إلا نكداً.. والمراد من هذا المثال هو أن تربية الرجل الصالح لأولاده تركت أثراً

(١) الرعد: ١١ .



طيباً في نفوسهم، على رغم الانحراف الذي أصابهم من جراء المحيط الفاسد الذي عاشوا فيه.. ولذلك تراهم يتراجعون أمام هجمة الحق عليهم.. ولذلك حين وجدوا الجنة محطمة، والبستان غائراً والزرع محروقاً.. فقالوا: إنا كنا ضالين بل نحن محرومون، ثم واصلوا في كلامهم يطلبون السماح والمغفرة من الله، ولم يصروا على عنادهم وحقدهم كما يفعل الظالمون في العادة هنا وفي مثل هذه المواقف.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المسألة، حين قال بالنسبة للظالم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ (١).

ولذلك تستمر السورة في نقل الصور المتلاحقة المتقابلة: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢﴾. ويقول القرآن: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ..

لماذا ترهقهم ذلة؟.. لأنهم اختاروا المعصية.. وانتخبوا طريق الشيطان، ورضوا بأن يكونوا مع الظلمة وأعوان الظلمة.. ودائماً المعصية تذلل الإنسان، والجزاء من نفس العمل.. ومن هنا نجد الشريف الرضي يجيب عن سؤال أبي العلاء المعري حين سأله هذا الأخير عن الحكمة في قطع يد السارق في ربع دينار وهي قيمتها ٥٠٠ دينار ذهباً، حيث قال:

يد بخمس مئتين عسجدٍ وديت ما بالها قُطعت في ربع دينار

(١) البقرة: ٢٠٦ .

(٢) القلم: ٣٦ .

فأجابه:

عزّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وذلك أن الإنسان الذي يعصي الله يكون في العادة - جاهلاً بقوانين الله وبالسنن التي تحكم هذا الكون، فهناك سنن وقوانين وأسرار تلف هذا العالم، ويجري الكون وفقاً لمقتضاها. ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾..

لأن هذا الأمر يحتاج إلى علم، وإلى فقه، ودراية.

وما أروع الإنسان المؤمن إذا كان فقيهاً.. وما أحسن الواحد منا حين يكون عالماً، وحين يكون مخلصاً لله سبحانه وتعالى. فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وإذا صوّر العلم، أظلم معه النهار وإذا صور الجهل.. أضاء معه الليل. أو: لو صوّر العلم لأظلمت معه الشمس، ولو صوّر الجهل لأضاء معه الليل.

(١) القلم: ٤٤ .



**القوانين الطبيعية
وخصوعها
للقوانين التشريعية**

القوانين الطبيعية

وخضوعها للقوانين التشريعية

هناك عنصر في الكون يقال له: عنصر تغليب القانون المعنوي على القانون المادي. ونحن في إمكاننا أن نكتشف هذا القانون، أو العنصر ثم نستفيد من وجوده في حل مشاكلنا العقائدية، بل في حل مشاكل كبيرة كانت ومازالت عالقة في أذهاننا.. واكتساباً للوقت ندخل في صلب الموضوع دون الحاجة إلى كتابة مدخل أو مقدمة، لأننا في الحقيقة نريد أن نصل إلى شاطئ المعرفة، وجادة الصواب، بأقرب طريق وبأسرع قارب ووسيلة. ونبدأ بالفكرة على النحو التالي:

أولاً- إن القوانين التي تدير الكون والحياة والإنسان، تنقسم إلى نوعين لا ثالث لهما: قسم يقال له: السنن المادية، وهي التي تنظم حركة الكواكب والنجوم، وكل شيء مادي حتى ذرات الوجود، وخلايا الحياة في بدن الإنسان، هذه كلها خاضعة لقوانين مادية لا تحيد عن الخط المرسوم لها مقدار شعرة واحدة. . . وحين نقول: هذه قوانين مادية، وسنن مادية فإنما نعني بها الأشياء الملموسة التي تخضع للحواس الخمس.

أما القسم الثاني من السنن، فهو قسم السنن المعنوية أو القوانين المعنوية، وهي تتمثل في قوانين الشرعية، وفي العبادات، وفي علاقة



الإنسان بالله سبحانه، وفي تلقي الإنسان من الله مناهج السماء عن طريق الأنبياء والرسل، وما شابه ذلك.

ويمكن أن تصور هذين الجانبين: المادي والمعنوي بالغذاء الذي يحتاجه الإنسان. فالإنسان لكي يعيش بصورة طيبة - فإنه لا بد له من توفر نوعين من الغذاء: غذاء لبدنه وغذاء لروحه.. غذاء البدن هو الطعام، وغذاء الروح هو العلم. لاحظوا الفرق بين الغذاءين: فالطعام الذي هو غذاء البدن هذا خاضع للسنن المادية والقوانين المادية التي تصنع الطعام وفقاً لمناهجها . . في حين أن غذاء الروح ليس مادياً، ولا يخضع للسنن المادية، وإنما هو يتألف من القوانين المعنوية أي التي لا سلطة للحواس عليها.

وبالمثل: فالبدن يحتاج إلى المسكن، والملبس، والمطعم، والمشرب والمنكح، والمركب، وهذه كلها حاجات ضرورية، وهي كلها مادية وليست معنوية كما هو واضح. في حين أن حاجات الروح كلها معنوية، فالروح تحتاج إلى العبادة، وتحتاج إلى العلم، وتحتاج إلى العاطفة، وتحتاج إلى العقل، وإلى العدل والحق والحرية والمساواة وتحتاج إلى الكرامة والعزة، والفضيلة، والأخلاق، والكلمة الطيبة . . وهذه كلها قضايا روحية أو روحانية لا علاقة لها بالقوانين المادية، وإنما هي خاضعة للقوانين والسنن المعنوية.

ولتوضيح الفكرة يمكن أن نقول: إن كل قوانين الطبيعة مادية، وكل قوانين الشريعة معنوية، فالفرق بين القوانين المادية والمعنوية، هو نفس الفرق بين الطبيعة والشريعة.



و حين نستجلي الحقائق أكثر نجد أن الطبيعة - على عظمتها
وضخامتها - خاضعة للشرعة، وأن القوانين التشريعية دائماً تحكم
على القوانين التكوينية وهي أقوى منها قطعاً.

غير أن الذي حدث هو أن الناس مالوا إلى القوانين المادية أكثر من
ميلهم إلى القوانين المعنوية، وذلك أن سنن الطبيعة ملموسة وليس في
مقدور أحد أن يخالفها، فليس في وسع أحد من الناس أن يتظاهر
ضد الجاذبية ويلقي بنفسه من قمة جبل وهو يتحدى قانون الجاذبية
دون أن يحطم القانون عظامه ولحمه وبدنه حين يلقي به في مكان
سحيق جثة هامة كأنها هشيم محتضر.. كما أنه لا يستطيع أحد من
الناس أن يخالف قانون الإحراق في النار، يمد يده في النار في تحدٍ
سافر دون أن تحترق يده ويتأثر لحم كفيه وزنديه. وهكذا قل: في
البواقي. ولذلك تجد الناس جميعاً يتفقون على هذه السنن، سنن
الطبيعة، وقوانينها على رغم اختلافهم في قوانين الشرعة، فمثلاً نجد
الاتحاد السوفييتي يطبق نفس قوانين الطبيعة في مجال الفيزياء
والكيمياء والهندسة والفضاء التي تطبق في الولايات المتحدة
الأمريكية، فليس في الغرب فيزياء تختلف عن فيزياء الشرق، وليس
في ألمانيا كيمياء تختلف عن كيمياء لندن وطوكيو وباريس، وبكين في
الصين، . . إنك تجد البشرية على رغم اختلاف مذاهبها وعقائدها،
فإنها متفقة على الجوانب المادية في الطبيعة وفي الحياة.

وبالمثل نجد الأنظمة الشيوعية تعتقد بالإلحاد مذهباً لها .. وأمريكا
تعتقد بالشرك مذهباً لها .. وكذلك في بقية أنحاء العالم نجد
اختلاف الناس في العقيدة، وفي السلوك، وفي العادات لأن هذه كلها



تابعة لسنن الشريعة أي للقوانين المعنوية، وليس للقوانين المادية، إذن: فالاختلاف ينشأ عند الناس في الجوانب المعنوية والتشريعية، أقول: رغم هذا الاختلاف الكبير في عالم الشريعة، إلا أننا نجد الناس كافة متفقين على قوانين الطبيعة لا خلاف بينهم أبداً. والسبب في ذلك يرجع إلى أن القوانين المادية تكون - في العادة - ملموسة. وخاضعة للحواس الخمس، في حين أن القوانين المعنوية مستورة وغير خاضعة لسلطة الحواس المادية في الإنسان.

ولكل نوع من هذه القوانين صفة خاصة به، فالصفة الملازمة لقوانين الطبيعة، والسنن المادية، هي صفة الصلابة والكثافة والغلظة، في حين أن صفة القوانين التشريعية هي الرقة واللطافة والرحمة .. ولكن مع ذلك كله ورغم صلابة القوانين المادية ونعومة القوانين المعنوية، فإننا نجد أن القوانين المعنوية هي الحاكمة على المادية، وهي التي تسيورها، وهي التي توجهها وبالتالي فالقوانين المعنوية أقوى وأعظم من القوانين المادية أو قل: إن الشريعة أقوى عوداً من الطبيعة .. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نجد فيضاً كبيراً من الآيات والروايات والأحاديث الواردة عن أهل البيت أفضل الصلاة وأزكى السلام، تؤكد هذا المعنى بشكل كبير.

وأيهما أقوى الجبل أم القرآن الكريم؟

الجبل في الظاهر أقوى. . ولكن حين نقرأ القرآن نجد أنه يقرر هذه الحقيقة ويكشف عن واقع أصيل ومفاده: أن القوانين التشريعية المعنوية التي جاء بها القرآن، هي من القوة والعظمة بحيث لو سلطت على الجبال لدكتها وأذابتها.



والآن اقرأوا معي هذه الآية التي تحفظونها إذا شئتم: وهي قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. (١)

وإذا كان حال الجبل الذي ينزل عليه القرآن هو التفتت والتصدع، فما بالكم بقلب رسول الله، كيف يكون حاله حين ينزل عليه القرآن؟ إن القرآن يملك من القوة الذاتية ما إذا وُجِّهت إلى الجبال صدعتها وفُتَّتَتْها.. وهذا يعني أن الطبيعة ليس في إمكانها أن تستقبل القرآن، أو قل: ليس في إمكانها احتمال القرآن، فلا السموات ولا الأرض، ولا الجبال قادرة على احتمال القرآن وحمل هذه الأمانة.. ولذلك رفضت هذه الكائنات حمل القرآن وحمله الإنسان، لأن له قلباً.. وسيأتي الكلام حوله.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. (٢)

على أن رفض السموات والأرض والجبال لحمل الأمانة، يؤكد هذه الفكرة وهي أن قوانين الطبيعة خاضعة لقوانين الشريعة، لأن الأمانة، مهما يكن في شأنها فإن القرآن الكريم، والكتب السماوية المنزلة من الله إلى الإنسان لهدايته، هذه تمثل الأمانة أروع تمثيل، بل هي أنصع صورة لأمانة الله التي عرفها على الطبيعة فرفضتها ولم تستطع حملها فحملها الإنسان ولكنه استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة وذلك

(١) الحشر: الآية ٢١ .

(٢) الأحزاب: الآية ٧٢ .

أنه كان ظلوما جهولا، فظلم نفسه عندما جهل قدر هذه الأمانة ولم يحفظ حرمتها، على أن لهذه الآية المباركة تفسيراً وتفصيلاً نبهته في مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وهنا لابد من ملاحظة أود أن أذكرها، حتى نستبقي خيط البحث بأيدينا. والملاحظة هي: أن قوانين الطبيعة مهما كانت صلبة، وقوية وكثيفة وقاسية، فإن الإنسان يستطيع أن يسيطر عليها ويوجهها حيث أراد بواسطة القوانين التشريعية التي تتطلق من قلب مليء بالإيمان.

إن القلب المليء بالإيمان، لهو أقوى من الجبال الراسيات، إنه يدك الصخور دكاً، ويقتلع الجبال من مكانها اقتلاعاً. ولذلك نجد القرآن الكريم، الذي إذا نزل على جبل يجعله متصدعاً منكسراً، نجد هذا القرآن الذي تعجز الجبال عن حمله، وعجزت السموات والأرض عن حمله أيضاً أقول: نجده ينزل على قلب الحبيب المصطفى بأمان وسلام. يقول الله عز وجل في آية كريمة يخاطب بها نبيه الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ﴾ (١).

ونزول القرآن على قلب النبي، لا يعني - بالضرورة - أن قلب النبي كان من الصلابة بحيث يكون أقوى من الجبال . . أبداً. إن قلب النبي كان رقيقاً إلى أبعد الحدود، فالقرآن ينفي عنه الغلظة، فيقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢).

انظروا إلى هذا التعبير العظيم، إن قلب النبي في قمة الرقة

(١) الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) آل عمران: ١٥٩ .



والرأفة والرحمة، وهذه الرقة هي التي تكسب القلب قوة أشد من قوة الجبال الرواسي، ولذلك جاء في الحديث ما معناه: إن المؤمن أقوى من الجبل، لأن الجبل يمكن أن يؤثر به المعول والفأس والحديد، وقلب المؤمن لا شيء يستطيع أن ينال منه.

إن الرحمة هي أقوى من كل شيء في الوجود، ولذلك كان الإسلام قوياً لأنه دين الرحمة، ودين الرأفة. ولنفس السبب كان رسول الله ﷺ قوياً تهز هيئته عروش الملوك وتسقط تيجانهم، لأنه أي الرسول - كان رقيقاً رحيماً ودوداً.

يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن القلب الرقيق - ولا يكون القلب رقيقاً إلا بالإيمان بالله سبحانه - أقول: نستطيع أن نؤكد أن القلب الرقيق هو وحده القلب القادر على حمل القرآن الكريم.

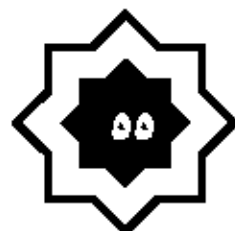
يقول القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢).

وهل هناك أرق من قلب النبي؟ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

(١) التوبة: ١٢٨ .

(٢) ق: ٣٧ .

(٣) التوبة: ١٢٨ .



ومن الآيات التي تؤكد قانون تغليب الشريعة على الطبيعة، الآية التالية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (١).

ومعنى ذلك أن القوانين التشريعية التي وردت في القرآن الكريم هي من القوة والقدرة بحيث تستطيع -لوطبقت بالكامل - أن تنقل الجبال من مكان إلى مكان، وتستطيع أن تقطع الأرض، تجعلها قارات سابحة في الفضاء كل قارة في ناحية وكأنها كواكب خمسة تحوم بجوار القمر، .. كما أن القدرة العلمية في القرآن تصل إلى درجة بحيث يستطيع الواحد منا أن يكلم الموتى، ومعنى يكلم الموتى أي يتحدث معهم ويسمع حديثهم بحيث يسألهم ويجيبونه، وهذا يكشف لنا عن رحلة العلم في القرآن وإلى أي مدى تصل هذه الرحلة في طريق تقدمها وازدهارها وانطلاقها في إضاءة الطريق أمام الأجيال .

وحتى نعرف كم هو قانون تغليب الشريعة على الطبيعة قوياً ومؤثراً، يكفي أن نقرأ الآيات الكريمة في القرآن، وهي تتحدث عن أن الكون كله مسخر في خدمة الإنسان. يقول القرآن: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (٢).

إلى آخر آيات التسخير التي وردت في القرآن.

وعلى ذكر الآية الكريمة التي تقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أقول: على ذكر هذه الآية، لمعت في

(١) الرعد: ٣١ .

(٢) إبراهيم: ٣٣ .



خاطري فكرة تربط الآية بالعترة الطاهرة، إذ إن العترة هي عدل القرآن كما جاء في ذلك حديث الثقلين الذي يؤكد أن القرآن وأهل البيت هما رافدان متعانقان لا يمكن فصلهما أبداً، فالقرآن بغير العترة لا يمكن أن نفهمه والعترة بغير القرآن لا يمكن أن نهتدي إليها، لأن القرآن وجهنا إلى العترة في كثير من آياته. ففي آية التطهير يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١).

وفي آية المودة يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٢).

وفي سورة الدهر.. وفي آيات كثيرة وسور عديدة نجد القرآن يوجهنا فيها نحو أهل البيت ويأمرنا بالرجوع إليهم كقوله مثلاً: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

إذن: فالقرآن والعترة نور واحد، وطريق واحد، وليس في مقدور أحد أن يفصل القرآن عن أهل البيت، وإلا تصير القضية أشبه بقضية الخوارج الذين كانوا يحفظون القرآن، وكان يقال لهم: أصحاب الجباه السود، من العبادة، ولكنهم ضلوا وأضلوا عندما اكتفوا بالقرآن دون العترة الطاهرة، وإذا بهم يحاربون العترة ويكفرون أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم ضد الإمام علي أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - معروفة ومدونة في التاريخ.

والآن أعود إلى كلمتي التي بدأت بها هذه الخاطرة أو الفكرة، وهي: ما دام القرآن ملازماً للعترة، وما دامت العترة ملازمة للقرآن، وما دام

(١) الأحزاب: ٣٣ .

(٢) الشورى: ٢٣ .

(٣) الأنبياء: ٧ .

القرآن وعترة النبي يشكلان الإسلام بكل أبعاده، وجوهه ونوره، فإن ذلك يعني أن ما يحمله القرآن الكريم من قوة، تحمله العترة الطاهرة أيضاً.

وحتى نعرف كم هو التقارب شديداً بين القرآن والعترة، بل لا أقول التقارب وإنما أقول: الانسجام والتوافق بين الكتاب والعترة، أقول: وحتى نعرف كم هو التوافق شديداً وعظيماً، ومتلاحماً بين الكتاب والعترة، يكفي أن نقرأ حديث المباهلة لنستجلي هذه الحقيقة التي جاءت على لسان رئيس الأساقفة، وهو رجل نصراني، الأسقف الكبير، وذلك حينما وقع بصر النصاري على النبي وهو يحمل على صدره ولده الحسين، ويقود بيده ولده الحسن، وخلفه ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء، وخلفها الإمام أمير المؤمنين - صلوات الله على رسول الله وعلى أهل بيته أصحاب الكساء - لما وقع بصر النصاري على هذه الوجوه المتدفقة بالنور، ارتعدت فرائصهم، وقال كبيرهم: يا معاشر النصاري إني لأرى وجوهاً لو أقسمت على الله أن يزيل هذا الجبل من مكانه لأزاله، فلا تباهلوهم فتهلكوا، ثم رفعوا أصواتهم وصاحوا بصوت واحد: يا أبا القاسم أقلنا أقالك الله، أي أننا انسحبنا ولا نريد أن نباهل .. وانتهت المواجهة بانتصار النبي وأهل بيته على النصاري، انتهت بانتصار الإسلام على أهل الكتاب، كل ذلك ببركات أهل البيت عليهم السلام والنبي حين يخرج معه علياً وفاطمة والحسن والحسين لمواجهة أعداء الإسلام، فإنه يريد أن يؤكد لنا جميعاً أن الإسلام لا يمكن أن ينتصر على أعدائه إلا بهؤلاء أهل بيتي وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين الذين أشار إليهم القرآن في آية المباهلة:



﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

وكان الحسن والحسين عليهما السلام يمثلان الأبناء، أبناء
الرسول.. وكانت الزهراء فاطمة - سلام الله عليها - تمثل النساء
لأنها سيدة نساء العالمين، ولذلك اكتفى الرسول بهذا دون أن يدعو
واحدة من نسائه أو واحدة من بنات شعبة الحمد، بل حتى عمته صفية
على جلال قدرها لم يدعها إلى المباهلة، وإنما اكتفى بفاطمة الزهراء
وحدها دون أن يدعو حتى بعض نسائه مثل أم سلمة، أو زينب بنت
جحش أو غيرها من النساء.

فأين مكان عائشة هنا؟ .. وأين مكان حفصة؟ ولماذا لم يخرج النبي
عائشة إلى المباهلة؟ إذا كانت عائشة هي منبع الإسلام، وصار الإسلام
يؤخذ منها دون غيرها فلماذا لم يخرجها معه إلى المباهلة؟ على أن
الكلام ليس عن عائشة وحدها بل وأيضا عن بقية نساء النبي.

إن الجواب واضح، وهو أوضح من الشمس في رابعة النهار، وطبعا
الجواب واضح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما الذين
في قلوبهم مرض فيطيب لهم أن يضلوا في متاهات الصحراء، وفي
ظلمات البر والبحر.

المهم .. أن النبي ﷺ لم يخرج معه سوى ابنته الصديقة فاطمة
الزهراء لأنها تمثل النساء بل هي سيدة نساء العالمين من الأولين

(١) آل عمران: ٦١ .



والآخرين.. وأخرج معه ولديه الحسن والحسين عليهما أفضل الصلاة والسلام، وهما يمثلان الأبناء دون غيرهما . . كما أخرج معه أخاه وحبيبه ووصيه ووزيره، وخليفته من بعده علياً أمير المؤمنين، إمام المتقين وقائد الغر المحجلين كاشف الكروب عن وجه أخيه رسول الله - صلى الله عليهما وعلى ذريتهما الطاهرة. لأنه - أي أمير المؤمنين - نفس النبي بنص هذه الآية التي تقول: «وأنفسنا» والإنسان لا يمكن أن يدعو نفسه، وإنما الدعوة توجه إلى طرف آخر، وهذا الطرف الآخر يمثل نفس النبي وهو الإمام علي أمير المؤمنين بطل الإسلام الخالد، وعملاق الإنسانية الذي ما رأت البشرية مثيلاً له بعد رسول الله أبداً.

على أن النتيجة التي تطلع بها من هذه القصة أو هذا الشاهد، هي كلمة الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو أقسمت على الله أن يزيل جبلاً عن مكانه لأزاله.

لاحظوا بدقة كيف أنه استشف نورهم وأدرك أن هذا النور أقوى من الجبال، بل لو سلط على الجبال لصدعها، لأنه نفس النور الموجود في القرآن الكريم أو قل: نفس القوة التي هي في القرآن، فهي نفسها موجودة عند أهل البيت، أي أن عندهم قوة القرآن برمتها، وإذا أضفنا إلى ذلك أنهم القرآن الناطق، وكتاب الله القرآن الصامت، فإن القوة تتضاعف في أشخاصهم الطيبة . . .

إذن: فإذا قرأت هذه الآية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أقول: فإذا قرأت هذه الآية، فتذكر حديث الأسقف، أسقف نجران وكلامه: «إني لأرى وجوهاً لو أقسمت على الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله».



على أنه ليس هناك ما يمنع المشرك أن يرى نور الحق والحقيقة، فنور أهل البيت يطل من وجوههم كما تطل الشمس من الأفق. والأدلة على ذلك كثيرة، وهي تشير إلى أن نور الإيمان، أو قوة الإسلام الموجودة في القرآن الكريم، وفي العترة الطاهرة، هذه القوة يمكن للإنسان أن يحسها إذا توجه نحوها. وبالمثل نجد الوليد وهو العدو اللدود للإسلام ونجده وصف القرآن بأن له حلاوة وأن عليه لطلاوة إلى آخر كلامه حيث سمع القرآن من رسول الله، فتأثر به وذهب يقول: إنه لسحر يؤثر.

وفي يوم عاشوراء، عندما كان الإمام الحسين ينزف فوق الرمال الملتهبة، أقبل إليه واحد من أعدائه ليجهز عليه، حيث انتدبوه لهذه المهمة ولكنه ما كاد بصره يقع على الحسين حتى نسي المهمة التي جاء من أجلها، وأدهشه جمال الحسين ونور وجهه. فرجع مأخوذاً بنور الحسين، وطلعت الزكية، وحينما سأله: أين رأس الحسين؟ أجاب: والله ما رأيت مكسوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه ولا أحسن وجهاً، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في القتل.

إذن فلا غرابة في أن يكتشف رئيس النصارى هذا النور في وجوه محمد وأهل بيته - صلوات الله عليهم أجمعين - وكل ذلك يشير إلى الحقيقة التي نحن في صددنا، وهي: أن القوانين التشريعية تحكم على القوانين التكوينية لأنها أقوى منها، ومن أجل ذلك صارت السموات والأرض خاضعة للشرعية، وقد جعلها الله مسخرة في خدمة الإنسان لأن الإنسان يستطيع أن يحمل قوانين الشريعة ويضيء وجوده بها وينورها.



لقد عرفنا أن القرآن إنما نزل على قلب النبي لأن قلبه رقيق، والرقعة أقوى من الجبال، بل إن القلب المنكسر يستطيع أن يهز عرش الرحمن: إني عند المنكسرة قلوبهم.. ولذلك نقرأ في الفكر الإسلامي أن الطلاق يهز العرش لماذا؟ لأن الطلاق يترك قلوباً منكسرة، وخصوصاً قلوب الأطفال الذي يصدّمهم الطلاق فتكسر قلوبهم الناعمة الرقيقة، وتصوروا هذا الانكسار الذي لا يكاد يبين، هذا الانكسار الذي يقع في قلب الطفل البريء أو قلب الزوج المعذب أو الزوجة المرأة المطلقة، أقول: هذا الانكسار يؤدي إلى اهتزاز عرش الرحمن، وكلمة الرحمن هنا لها معنى جميل وجليل، وهي تشير إلى وجود الرحمة التي بنيت عليها قواعد الأسرة بين الزوج والزوجة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (١).

وكأن الحديث حين يستخدم كلمة الرحمن هنا، يريد أن ينبه الرجل والمرأة إلى وجود الرحمة في العلاقة الزوجية، والرحمة تستلزم حل الخلافات بأسهل الطرق، ووضع علاج للمشاكل بأسلوب شيق وميسر. وعلى فكرة ذكر الطلاق، وأنه مكروه، ويسبب اهتزاز العرش، أقول: هذا إذا كان بالإمكان تلافي الأمور وعلاجها أما إذا تصدع بناء الأسرة، وتساقطت أعمدة البيت على رؤوس الأطفال من جراء حماقة الزوجة أو رعونة الزوج، واستحالة الحياة إلى جحيم، فإن الإسلام هنا يشجع على الطلاق ويجعله باباً من أبواب الفرج والرزق للزوجين وللأطفال معاً فيقول:

(١) الروم: ٢١ .



﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ . (١)

أي حين ينفصل الزوج عن المرأة التي حولت جو الأسرة إلى سجن لا يطاق، وجحيم لا يواجه، إن هذا الانفصال إنما هو سبب لغنى الرجل والمرأة، وهو طلاق مبارك وميمون، كما أن الزواج يكون ميموناً كذلك الطلاق .. إذ كيف يعيش الواحد مع امرأة حمقاء لا يستلطفها ولا يحس بوجودها؟ .. إن حياته تتحول إلى جحيم وعذاب، والله سبحانه ما خلق الإنسان ليعذبه أبداً، وإنما خلقه ليرحمه، والزواج رحمة وسكينة قائمة على الحب والمودة، فإذا انطفأت الرحمة، وماتت السكينة، وتساقطت أعمدة المودة، فإن الحياة هنا تصبح مستحيلة، وإن أفضل طريق وأقرب حل هو الطلاق .. وهنا يكون الطلاق هو الحل البديل .. وهو الحل الذي سارت مظاهرات في شوارع العالم الغربي الذي يحرم الطلاق، سارت مظاهرات تطالب الكنيسة بإقراره وإجرائه وإجازته.

وحتى لا يشط بنا القلم، نرجع إلى أصل الكلمة وأصل الفكرة، وهي أن القرآن الكريم إنما نزل على قلب رسول الله ﷺ لأن قلبه رقيق والرقعة أقوى من صخور الجبال. إن الجبال تنال منها المعاول والفؤوس ولكن قلب المؤمن لا تستطيع كل قوى العالم أن تغير منه شيئاً، والسبب واضح وهو أن المؤمن هو النور والإيمان نور، فقلبه مضعم بالنور، في حين أن العالم كله ظلام، والنور يؤثر في الظلام ولا يتأثر به، وقديماً قيل: إن ظلام العالم لا يستطيع أن يطفئ شمعة واحدة.

(١) النساء: ١٣٠ .



إذن: فالقوانين التشريعية، والمعنوية أقوى من القوانين المادية ونحن نعرف أن الروح في الإنسان أقوى من البدن فيه. وما قيمة بدن عضلاته مفتولة، ولكنه ينطوي على روح خائفة مهزومة؟ ما قيمة هذا البدن؟

قالوا: «الرجال مخابر وليس بمناظر».

وقال علي عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه» وإنما ذكرت هذه الكلمات لأبين أن الكلمة هي التي تكشف عن حقيقة الإنسان، وليس جسم الإنسان وبدنه، وهذا يعني أن المعاني تحكم على الألفاظ، والمعنى أقوى من المادة، لأن الكلمة مرتبطة بعالم المعاني في حين أن الجسم مرتبط بعالم المادة. ولذلك ذكرت هذا الشاهد لأوضح للقارئ حتى لا يتسرب إلى ذهنه شيء من عدم الارتياح لعدم فهمه للموضوع.

يقول القرآن الكريم بالنسبة للمنافقين الذين انصرفوا لتربية أجسامهم، بينما ظلت قلوبهم خاوية على عروشها من العمى...: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١).

إن أجسامهم تجتذب الأبصار، وتستقطب الوجوه، ولكن حقيقتهم تنفر الطباع البشرية، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً، وملئت منهم رعباً.

(١) المنافقون: ٤ .



* تأثير الشريعة في المجال التكويني:

نعم، إن في هذا الكون ارتباطاً وثيقاً بين الشريعة والطبيعة. ولكي تأتي الفكرة واضحة، أضرب لكم الأمثلة التالية:

إن بين البحر والقمر حبلاً ممدوداً من القوانين المادية يربط البحر الى القمر، كما أنه يشد القمر إلى أمواج البحر.. ومن هذه العلاقة الوطيدة بين القمر والبحر ينشأ المد والجزر، فما المد والجزر إلا تأثير القمر على البحر. ولولا هذا التأثير الذي يتركه القمر على البحر، لما كان هناك مد ولا جزر.

هذا مجرد مثال ، أريد أن أبين من خلاله بعض الارتباط في القوانين المادية حتى تبدو صورة ارتباط القوانين التكوينية والتشريعية واضحة.

والآن ننتقل من هذا المثال إلى مثال آخر يوضح لنا الموضوع بشكل أفضل.

والمثال هذه المرة هو المثال الذي يرينا كيف أن قلب الإنسان مرتبط بعرش الرحمن. وأرجو أن تتأملوا هذه الفكرة لأنها فكرة جديدة وعذراء.

إن عظمة العرش في حجمه واتساعه تفوق الوصف، ولكن يكفي أن نعرف أن كل ما في هذه السماء التي نراها في الليل من كواكب ونجوم إنما هي تشكل السماء الدنيا أي القريبة منا وهي سماء واحدة من بين سبع سموات.



يقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (١).

إذن: فكل الكواكب والنجوم التي نراها في العين المجردة إنما هي تشكل السماء الأولى، علماً أن أقرب نجمة لنا أي للنظام الشمسي تبعد عنا مسافة تقطعها طائرة نفاثة تسير بسرعة ضعفي الصوت وهي طائرة الكونكورد العملاقة تقطعها في عشرة ملايين من السنين دون توقف أبداً ...

وإذا عرفنا أن أقرب نجمة تحتاج الرحلة إليها، إلى عشرة ملايين سنة دون توقف في طائرة الكونكورد، أقول: إذا عرفنا ذلك أدركنا كم يكون الكون عظيماً وواسعاً.

ثم إن هذه النجوم التي تملأ الفضاء وتموج في الآفاق إنما هي في السماء الدنيا أي السماء الأولى، فما بالكم بالسماء الثانية؟ يقول حديث شريف عن عظمة السماء، أو السموات والأرض: إن السماء الأولى بالنسبة إلى السماء الثانية، كحلقة في فضاء أو في صحراء، والسماء الثانية نسبتها إلى السماء الثالثة كحلقة في صحراء، وكذلك يتصاعد الرقم حتى نصل إلى السماء السابعة يقول الحديث: إن السموات الست التي هي قبل السماء السابعة إذا جعلنا في السماء السابعة، فإن نسبتها كحلقة في صحراء. وإن السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن، بالنسبة للعرش كحلقة في فضاء ...

(١) الملك: ٥ .



والآن انظروا إلى عظمة العرش وإلى حجمه واتساعه الذي لا يحيط به إلا علم الله سبحانه وتعالى.

يقول أنشتين في النظرية النسبية: « إن الكون لا يمكن رصده، وليس في المستطاع معرفة حجمه، لأن النجوم في ازدياد، والكون في اتساع مدهش، إنه يسير بسرعة الضوء وأكبر وإن المسافات لتتسع بين المجرات الكونية بشكل يثير الدهشة في النفوس، ويبهر الأبواب والعقول ولا سبيل لنا إلى معرفة حجم الكون ».

هذا كان كلام أنشتين الذي لم يطلع على الإسلام، ولا قرأ القرآن، ولو أنه قرأ القرآن لعرف هذه الآية التي تتحدث عن هذا الاتساع الهائل الذي ذكره أنشتين.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (١).

على كل أرجع إلى أصل الكلمة وهي: أن عرش الرحمن بهذا الحجم وهذه العظمة . . ولكننا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ربط هذا العرش العظيم بقلب الإنسان الرقيق، ربطه ربطاً وثيقاً، وجعل رقة القلب تهز العرش، وإذا كانت رقة القلب تهز العرش فمعنى ذلك أنها أقوى من العرش.

يقول الحديث القدسي: إني عند المنكسرة قلوبهم.

ويقول: « إياكم ودمعة اليتيم فإنها تسري في الليل والناس نيام ». أي أنها تسري إلى العرش فتهزه. وكل هذا يدل على شيء واحد وهو: أن قوانين الشريعة أقوى من كل ما أوجد الله في هذا الكون. ولذلك

(١) الذاريات: ٤٧ .

نجد الإمام المعصوم هو بمثابة القلب لهذا الكون.. وأن الكون إنما هو قائم بالحجة، ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

وعلى فكرة الرحلة الفضائية إلى أقرب نجمة لنا، أنقل لكم هذا التقرير التالي الذي سمعته من راديو لندن في ١٩٨٢/١١/٢٥ . يقول التقرير: «إن أقرب نجمة لنا تقع في برج الجدي، تبعد عن المجموعة الشمسية مسافة تقطعها طائرة تسير بـ ١٢ ضعفاً من سرعة الكونكورد، تقطعها في ٢٥ ألف سنة و ٦٠٠ سنة، والطاقة التي تحتاجها هذه الرحلة تعادل كل الطاقة التي في الأرض بعشر مرات!!».

المهم أنني سمعت هذا التقرير من راديو لندن وأحببت أن أضيفه إلى التقرير العلمي السابق، وإن كان الفرق بين المسافتين كبيراً جداً، ولكن النتيجة التي يصل إليها هذان التقريران واحدة، وهي بعد المسافة واتساع الكون العريض أمام الإنسان.

وأعود الآن إلى موضوع: أن الأرض والسماوات وكل شيء في الكون إنما هو قائم بوجود المعصوم لأنه لولا وجود المعصوم لما خلق الله سبحانه هذا الكون، إن وجود المعصوم ينسجم مع المبدأ الأصل الذي وجد العالم من أجله وقام بوجوده. ولذلك نلاحظ أن الكون كله يشترك في صلاة واحدة وتسبيحة واحدة، فكل ما في السماوات والأرض يسبح الله ويقدسه. كل شيء في الوجود، باستثناء الإنسان الذي ظهر منه العاصي، والمطيع، وإلا ففي غير الإنسان ليس هناك من يعصي الله بمقدار شعرة واحدة. وحتى الشيطان الذي يعصي الله إنما هو من الجن والجن شأنهم شأن الإنس في أن لهم حرية اختيار وإرادة، ولذلك

استطاع إبليس أن يقول: لا للسجود، فاستحق العذاب والخلود في النار.

وخلاصة الحديث: أن الكون قائم وفق نظام دقيق، ولكن أنظمة الكون هذه كلها خاضعة لأنظمة التشريع أي أن الشريعة تؤثر تأثيراً كبيراً في المجال التكويني، ومن هنا نستطيع أن ندرك قيمة وجود المعصوم أو الحجة في الأرض، لأن الحجة يمثل النظام التشريعي، والشريعة حاکمة على الطبيعة فمعنى ذلك أن الإمام الحجة أقوى من الكون كله وما فيه من كائنات، ولذلك أعطاه الله قدرة يتصرف بها في الكون.. وسيأتي تفصيل ذلك خلال الصفحات التالية.

إن في القرآن الكريم آيات كثيرة تنبها إلى هذا الارتباط الوثيق الحاصل بين التشريع والتكوين.. فمثلاً نقرأ في القرآن الآيات التالية في سورة الرحمن:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ (١).

وفي السورة نجد أن الله سبحانه قد ذكر صنفين من الميزان: ميزان السماء وميزان الأرض. ميزان السماء يمثل ميزان الطبيعة أي الميزان الذي قامت عليه سنن الكون، وقوانين الطبيعة، وميزان الأرض يمثل ميزان الشريعة أي الميزان الذي يجب أن تقوم عليه حياة الإنسان وفقاً

(١) الرحمن: ١-٩ .



لقوانين التشريع وسنن القرآن ومناهج السماء.. ثم ربط ميزان السماء بميزان الأرض، وجعل الخلل الذي يصيب ميزان الأرض يؤثر تأثيراً بالغاً في ميزان السماء، وليس معنى التأثير هنا أن يتحطم ميزان السماء إذا تحطم ميزان الأرض، وإن كان يقع مثل هذا أحياناً، وسنعرف ذلك خلال بحثنا في وجود المعصوم، وبقاء الحجة في الأرض.

أقول: نجد أن الله سبحانه قد ربط بين الاثنين: بين ميزان السماء وميزان الأرض، وجعل كل هزة تصيب ميزان الأرض، تؤثر بدورها في ميزان السماء فينتقم من الذين أصابوا ميزان الأرض بسوء. فتأملوا هذه الفكرة جيداً، أرجوكم أن لا تتعجلوا النتائج وإنما امشوا معي في ظلال هذه الفكرة بهدوء حتى نصل إلى النتيجة التي تنتظر على الشاطئ وتحت الخمائل والأشجار.

والآن اقرأوا معي الآيات مرة ثانية إذا شئتم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ فحين قال الحق سبحانه: «والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ...» نجد أن القرآن قد ربط على الفور بين الميزان الذي قامت عليه السماء وبين الميزان الذي ينبغي أن تقوم عليه الحياة. فقال: «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ».



ويأتي القرآن الكريم في سورة أخرى يحدثنا عن الذين أساءوا استخدام الميزان وتلاعبوا فيه في الحياة، كيف كانت عاقبتهم.

إن خسران الموازين والمكاييل جريمة كبيرة وذنب قاتل يؤدي ارتكابه إلى نزول نوع خاص من العذاب. أجل .. إن الذنوب لها جزاء من جنسها .. فلكل ذنب عقاب يناسبه، وجزاء يوافقه، فقسم من الذنوب تؤدي إلى تغيير النعم، وقسم من الذنوب ينزل البلاء، وذنب آخر يقطع الرجاء، وبعض الذنوب تهتك العصم أي أن عصمة الإنسان تسقط ويصبح مهتوك العصمة والحجاب .. وبعض الذنوب تدل الأعداء أي تجعل للأعداء دولة وتجعل لإسرائيل دولة وصولاً، وجولة، وهذه كلها مذكورة في فكر أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وقد ورد في دعاء الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه كميل بن زياد فسمي بدعاء كميل وهو دعاء عظيم المعاني جليل القدر بل إنه جامعة إسلامية كبرى، احتشد فيها نور العلم، والوعي والرشد. أقول: نجد الإمام علياً أمير المؤمنين يعلمنا كيف نتجنب الذنوب التي تغير حياتنا من النعيم إلى الجحيم، ومن السعادة إلى الشقاوة، ومن الرخاء إلى ضنك العيش فيقول:

« .. يا نور يا قدوس، يا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته، وكل خطيئة أخطأتها... ».

ومن هذه الكلمات الذهبية التي وردت في الدعاء، ندرك أن لكل



ذنب نوعا خاصا من الجزاء والعقاب. وبالمثل، فإن توفية المكاييل والموازين تحفظ الناس من البخس أي أنها لا تبخسهم حقهم بل تبقي عليهم النعمة التي هم ينعمون فيها، بخلاف خسران الموازين والمكاييل فإنه يؤدي إلى تمزيق المجتمع، وتميره وبالتالي يستلزم نزول عذاب اسمه: عذاب يوم الظلة.. أو عذاب الظلة. وهذا النوع من العذاب هو الذي أخذ قوم شعيب أصحاب الأيكة، وعصف بهم فتركهم كأنهم أعجاز نخل خاوية، ليس لهم من باقية.

على أن القرآن الكريم يبين لنا ذلك ويظهره في جلاء حيث يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. (١)

أقول: على أن القرآن الكريم ، يبين لنا ذلك ويظهره في قصة قوم خانوا الميزان، فأوجب ذلك لنزول العذاب عليهم، ونزول العذاب مرتبط بميزان السماء، إذن: فإن ميزان الأرض يؤثر تأثيراً سلبياً أو إيجابياً على ميزان السماء، لأن ميزان الأرض يعني ميزان التشريع، في حين أن ميزان السماء معناه ميزان التكوين أي السنن الكونية القائمة وفق ميزان ثابت ودقيق.

والآن اقرأوا معي هذه اللوحة الرائعة إذا شئتم حيث يتحدث القرآن الكريم عن شعب من البشر كانوا قد أساءوا استخدام الميزان، وخانوا المكاييل وبخسوا الناس أشياءهم فاستحقوا العذاب فنزل عليهم ودمرهم تدميراً. يقول القرآن في ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ والأيكة تعني الشجر الملتف الكثيف الغني بالفواكه والأوراق،

(١) الشعراء: ١٨٩ .

وهي غوطة يسكنها قوم على مقربة من مدين ومدين هذه هي القرية التي كان يقطنها نبي الله شعيب عليه السلام وهو الذي بعثه الله إلى هؤلاء القوم لأنهم كانوا يخونون المكيال والميزان.

يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).

إذن فخسران المكايل والموازين يؤدي إلى نزول عذاب يشبه لونه لون هذا الذنب، وهو عذاب يوم الظلة.. ومن هنا ندرك كم هو المنهج الإسلامي عظيم وعظيم حين يستعرض أمامنا ألوان الذنوب ويحذرنا من ارتكابها، ثم يحذرنا من العقاب الذي أصاب الأمم الخالية، والناس الذين سبقونا بسبب اقترافهم هذه الجريمة، جريمة خسران الميزان.. فحين يربط الحق بين الميزان التكويني، والميزان التشريعي، فإنه يريد أن يلفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة، وهي أن قوانين التشريع، وإن بدت أنها مستورة وتعمل في الخفاء - إلا أنها ليست كما نتصورها، أبداً

(١) الشعراء: ١٧٦-١٩٠ .

وإنما هي أكثر ظهوراً ولمعاناً من قوانين الطبيعة و تأثيرها - أي سنن الشريعة - لأسرع من السنن الكونية، وإنها تترك أثرها في الناس إن زيناً وإن شيناً.

حسناً كان ذلك التأثير أو سيئاً. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الكون كله يتحرك في وحدة منسجمة ليس فيها عوج أو ميل. ولذلك نجد الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - قد استعرضت نظرية الإسلام في الموازين والمكاييل، وتركت بصماتها على المجتمع وأعطتها نوراً وحرارة، فقالت في معرض كلامها، وهي تتحدث عن فلسفة الأحكام الشرعية، -أي أنها كانت تتحدث عن الميزان الشرعي للأحكام الشرعية في الإسلام، حيث ذكرت الواجبات والمحرمات - فقالت:

«وجعل الله سبحانه - توفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس».

والموازين جمع ميزان، والبخس: أي النقص ..

إن الذي يبخس الناس أشياءهم، ويخونهم في أموالهم، يخونهم في أعراضهم، ونواميسهم، وفي دمائهم أيضاً.. فقد وضع الإسلام منهجاً قائماً على ميزان الحق، وأمر الناس أن يحترموا ويحفظوا حرمة.. لأن التفريط بهذا الحق هو تفريط بحق ميزان السماء. فكما أن الحياة قائمة على ميزان الحق، كذلك السماء قائمة على الميزان ذاته، وضرب ميزان الأرض هو ضرب لميزان السماء أيضاً.

إن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً الاستغلال بكل ألوانه، ويشن حرباً شعواء لا هوادة فيها ضد المستغلين، ويعتبر المستغلين من المحاربين لله



والرسول وللإنسانية أي ضد تيار الإيمان والحق. ومن هنا نجد الإسلام يركز على محاربة الجشع والحرص، والطمع، لأن هذه الصفات لا تنبت إلا في القلوب التي تقبع في الظلام.. وذلك أنها صفات شتى يجمعها سوء الظن بالله، على حد تعبير الإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام -.

أجل.. إن الإسلام يحارب الغبن، ويحارب البخس، إنه لا يريد إلا العدل والحق، إن العدالة الاجتماعية هي هاجس الإسلام الذي يسعى لتحقيقه بين الناس لينعم الشعب بالخير، والرفاه والحرية والمساواة.. في حين أن الاستغلال والغبن والبخس، هذه كلها ما هي إلا أمراض اجتماعية من أخطر الأمراض على المجتمع.. إنها أخطر من كل ألوان الأمراض الفتاكة لأن الأمراض الفتاكة تقتل الإنسان كجسد، بينما هذه الأمراض تقتل إنسانية الإنسان، تقتل الإنسان كروح وعقل، ووجدان. إنها تسحق الضمير والوجدان بسنابكها وأخفافها.

إن الإسلام يريد للناس أن يعيشوا في مساواة وحرية وتكافؤ. . إنه يوفر لهم تكافؤ الفرص.. وذلك فهو - أي الإسلام - يريد من الأفراد والجماعات أن يكونوا صفاء واحداً بوجه الظلم والاستغلال والبغن والبخس.. استغلال الإنسان لأخيه الإنسان هو من أبشع ألوان الاستغلال، واليوم سقطت شعوب بكاملها في أودية الاستغلال وظلامه وجشعه.. إن الإسلام يريد منا أن نقف صفاء واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً في وجه الاستغلال، والغبن، ولا يتحقق ذلك إلا حين يعيش الناس في شعور واحد، واحساس واحد، يعيشون متضامنين، متكاتفين، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة -

يشعر الواحد منهم بجوع الآخر وحاجته .. وهذا الذي أثاره الإسلام في القلوب، فقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام قال له:

«بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما أنك لا تحب أن تظلم...».

أجل .. إن إيفاء المكايل، وتوفية الموازين إنما يقوم بهذا الدور الفعال، أي أنه يحفظ المجتمع من التصدع والتمزق والضياع، بالإضافة إلى أن هذا البحث له علاقة كبيرة في بحوث الاقتصاد الإسلامي، ومناهج السياسة في الإسلام، وكيف استطاع الإسلام أن يدير البلاد، ويرتب أمر معاش العباد ضمن نظام اقتصادي رائع لم يشهد له الإنسان مثيلاً في تاريخ الدنيا الطويل.

إن توفية المكايل والموازين لتحقيق هذه الغاية التي يسعى الإسلام إلى إيجادها، وتحقيقها، وهي غاية: المجتمع المتكافئ بالفرص، الفارق بالسلام والحرية، المجتمع الذي يظله الحق، وترفرف فوق رأسه العدالة الاجتماعية بأجنحتها الخضراء الزاهية.

وعلى فكرة الاستغلال، نجد الإسلام لا يسمح لأحد أن يسطو على جهود أحد، بل يسد النوافذ أمام المستغلين وأصحاب الجشع والطمع. وبالتالي فهو - أي الإسلام - لا يفسح مجالاً لأحد أن يبخس الناس أشياءهم، أو يغبنهم أو يغمط حقوقهم .. وإنما هو يعطي لكل فرد حقه، ويحترم وجوده، ويحفظ كرامته، ويجعله يعيش عزيزاً في حرية وإباء.

وهذا هو التاريخ ينقل لنا صورة للإمام علي أمير المؤمنين، وهو يمشي في الأسواق وينادي: «أوفوا المكايل والموازين ولا تبخسوا الناس أشياءهم».

إذن: فتوفية المكايل والموازين إنما هي تغيير للبخس -كما قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- وحتى نتحاشى الوقوع في هذا الفخ، وهو استجلاب العذاب بفعل هذا الذنب الكبير الذي نمارسه في المجتمع ونتعاطاه في العلانية.

وقد رأينا كيف أن الله سبحانه انتقم من قوم شعيب وهم أصحاب الأيكة وذلك بسبب تعاطيهم هذا النوع من الذنوب. والقصة موجودة في القرآن الكريم في ثلاث سور. . ففي سورة الأعراف جاءت قصة شعيب وأهل مدين، وكيف أن الله غضب عليهم لأنهم بخسوا الناس حقهم وطفوا في الميزان. والله يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾. (١)

وهم قد طفوا في الميزان، واخسروا فيه.

وكذلك جاءت القصة مرة ثانية ولكن بأسلوب يختلف عن الأسلوب الأول لأن القصص تتكرر في القرآن وإذا تكررت فإنما هي تعرض جانباً جديداً في الموضوع لم تكن القصة قد تناولته في طرحها الماضي، وإنما دائماً التكرار يعطي ألواناً جديدة من القصة، فحتى قصة موسى التي تكررت ١١٢ مرة في القرآن وهي القصة التي ضربت

(١) الرحمن: ٧ و ٨ و ٩ .



الرقم القياسي حيث وصل رقم تعدادها إلى مائة واثنتي عشرة مرة، أقول: حتى هذه القصة فإنها - في الحقيقة - ما تكررت، ولكنها أعطت كل جوانب قصة موسى وبني إسرائيل ففي كل مرة تأتي قصة موسى، تعرض شيئاً جديداً وجانباً جديداً وعطاء جديداً من الأمر والواقع. وهذه ملاحظة قد تغيب عن أذهان الكثير منا، فيتصور البعض منا أن القصة تتكرر في القرآن، ولا جديد فيها. أبدأ.. إن القرآن الكريم ليس فيه حتى ولا حرف واحد مكرر.. إن العلماء أثبتوا أن كل كلمات القرآن التي تبدو مكررة أمامنا، إنما هي تشير إلى قضايا مختلفة وجوانب مختلفة ليس فيها تكرار لا من قريب ولا من بعيد.. بل حتى في سورة الرحمن حين نقرأ السورة نجد أن قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قد تكررت، أقول: حتى هذه الآية لم تتكرر - وإن بدت لنا أنها مكررة - وذلك أن لكل مرة تأتي فيها هذه الآية، أعني آية ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنما نقصد فكرة معينة تناسب الآية التي قبلها، وعندما نقرأ السورة بشيء من التدبر والتأمل، فإننا نجد أن كل آية تسبق قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنما تشير إلى حقيقة جديدة. إذن: فكل آية ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تختلف عن الآية التي سبقتها، لأن كل واحدة تريد أن تؤكد المعنى الذي سبقها والمعاني المختلفة وليست واحدة.

على كل، أرجع إلى أصل الموضوع فأقول: إن قصة أصحاب الأيكة الذين مارسوا هذا النوع من الذنب، قد جاءت قصتهم في ثلاث سور في القرآن الكريم. في سورة الأعراف، وفي سورة هود، ثم في سورة الشعراء، وهي الآيات التي تقدمت في هذا الكتاب حيث أصابهم عذاب

يوم الظلة، وأنهى حياتهم. وعذاب يوم الظلة: سحابة أظلتهم في أعقاب حر شديد أصابهم سبعة أيام، فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم.

وهنا أود أن أتساءل: أليست هذه السحابة التي أظلتهم خاضعة لنظام الميزان السماوي الذي ذكره الحق سبحانه بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾؟

أليس كذلك؟

وإذا كان الجواب إيجابياً تماماً، فإن تلاعبهم بميزان الحياة هو الذي أدى إلى إنزال عذاب يوم الظلة عليهم... إذ أنهم خالفوا الحق، فآله سبحانه قد بين لهم القضية في وضوح وحذرهم من مغبة السقوط في قاع الشيطان وأحضان الجريمة، ونبههم أن الميزان الذي تديرون به حياتكم، إنما هو مربوط ومشدود بميزان السماء الذي يحفظ السنن المادية في الكون والفضاء والطبيعة.. ولكن حذار من مخالفة هذا الميزان، فلا تطفوا فيه فيحل عليكم غضب الله. ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾.

وحتى نعرف كم هي القوانين التشريعية مؤثرة وحاكمة على القوانين التكوينية.. ولكي نعرف كم هو العمل الصالح قوي ومؤثر حتى على أستار وأركان العرش، يكفي أن نقرأ هذا الحديث الذي ينقله العلامة المجلسي في البحار. تعالوا نقرأ بدقة وامعان حتى نستوعب الفكرة التي يعطينا إياها هذا الحديث الرائع الذي يستحق أن نسجله بماء الذهب فوق أستار القلوب. يقول الحديث:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما خلق العرش خلق له ثلثمائة وستين ألف ركن . . وخلق عند كل ركن ثلثمائة ألف وستين ألف ملك، لو أذن الله تعالى لأصغرهم فالتقم السماوات السبع والأرضين السبع، ما كان ذلك بين لهواته إلا كالرملة في المفازة الفضفاضة، فقال لهم الله: يا عبادي احتملوا عرشي هذا، فتعاطوه فلم يطيقوا حمله، ولا تحريكه. فخلق الله عزوجل مع كل واحد منهم واحداً فلم يقدرُوا أن يززعزعه، فخلق الله مع كل واحد منهم عشرة فلم يقدرُوا أن يحركوه، فقال الله عزوجل لجميعهم: خلّوه عليّ أمسكه بقدرتي فخلّوه، فأمسك الله عزوجل بقدرته. ثم قال لثمانية منهم: احملوه أنتم، فقالوا: يا ربنا لم نطقه نحن وهذا الخلق الكثير، والجم الغفير، فكيف نطيعه الآن دونهم؟ فقال الله عزوجل: لأنّي أنا الله المقرب للبعيد والمذل للعبيد (أو للعتيد أي الصعب القوي) والمخفف للشديد والمسهل للعسير، أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، أعلمكم كلمات تقولونها يخف بها عليكم.

قالوا: وما هي يا ربنا؟

قال: تقولون: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله الطيبين».

فقالوها فحملوه - أي فحملوا العرش - وخف على كواهلهم كشعرة نابتة على كاهل رجل جلدٍ قوي.

فقال الله عزوجل لسائر تلك الأملاك: خلّوا على هؤلاء الثمانية عرشي ليحملوه وطوفوا أنتم حوله، وسبحوني ومجدوني وقدسوني، فإنّي أنا الله القادر على ما رأيتم، وعلى كل شيء قدير.



فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ما أعجب أمر هؤلاء الملائكة حملة العرش في كثرتهم وقوتهم وعظم خلقهم؟!

فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء مع قوتهم لا يطيقون حمل صحائف يكتب فيها حسنات رجل من أمتي.

قالوا: ومن هو يا رسول الله لنحبه ونعظمه ونتقرب إلى الله بموالاته؟

قال: ذلك الرجل رجل كان قاعداً مع أصحاب له، فمر به رجل من أهل بيتي مغطى الرأس لم يعرفه، فلما جاوزه، التفت خلفه فعرفه، فوثب إليه قائماً حافياً حاسراً، وأخذ بيده فقبلها، وقبل رأسه وصدره وما بين عينيه وقال: بأبي أنت وأمي يا شقيق رسول الله، لحمك لحمه، ودمك دمه، وعملك عمله وحلمك من حلمه وعقلك من عقله، أسأل الله أن يسعدني بمحبتكم أهل البيت، فأوجب الله له بهذا الفعل وهذا القول من الثواب ما لو كتب تفصيله في صحائف لم يطق حملها جميع هؤلاء الملائكة الطائفين بالعرش والأماك الحاملين له.

فقال أصحابه لما رجع إليهم: أنت في جلالتك وموضعك من الإسلام ومحلّك عند رسول الله ﷺ تفعل بهذا ما ترى؟ فقال لهم: يا أيها الجاهلون وهل يثاب في الإسلام إلا بحب محمد وحب هذا؟ فأوجب الله له بهذا القول بمثل ما كان أوجبه له بذلك الفعل والقول أيضاً.

فقال رسول الله ﷺ: ولقد صدق في مقالته، لأن رجلاً لو عمّره الله عزوجل مثل عمر الدنيا مائة ألف مرة، ورزقه مثل أموالها مائة ألف مرة، فأنفق أمواله كلها في سبيل الله وأفنى عمره في صيام نهاره



وقيام ليله، لا يفطر شيئاً منه ولا يسأم ثم لقي الله تعالى، منطوياً على بغض محمد أو بغض ذلك الرجل الذي قام إليه هذا الرجل مكرماً، إلا أكبه الله على منخريه في نار جهنم، ولرد الله عز وجل أعماله عليه وأحبطها.

قال: فقالوا: ومن هذان الرجلان يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ: أما الفاعل ما فعل فذلك المقبل المغطى رأسه فهو هذا، فبادروا إليه ينظرون. فإذا هو سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري.. وأما المقول له هذا القول، فهذا الآخر المقبل المغطى رأسه فنظروا فإذا هو علي بن أبي طالب -عليه أزكى الصلاة وأزكى السلام-. «وهذه إشارة إلى مكانة علي، ومنزلة من يحب علياً وهم شيعة، ولم لا؟ ألم يقل له النبي: يا عي هم أنت وشيعتك الخ؟»

ثم قال: ما أكثر من يسعد بحب هذين، وما أكثر من يشقى ممن ينتحل حب أحدهما وبغض الآخر، إنهما جميعاً يكونان خصماً له، ومن كان لهما خصماً كان محمد له خصماً، ومن كان محمد له خصماً وفلج عليه، أوجب عليه عذابه .

«وهنا إشارة في الحديث إلى علي وشيعته، فهو ومن أحبه في الجنة، والذي يحقد على واحد من شيعة علي يتبرأ منه علي يوم القيامة إلى آخر الحديث فإن فيه ذوقاً وفكراً عميقاً على القارئ الفطن أن يلتفت إليه، لأن وجود سعد بن معاذ في الرواية يدل على أن شيعة علي هم معه في الفردوس الأعلى وهم لا ينفصلون عنه في المحبة، فالذي يريد رضا علي، لا بد له أن يحب أحباب علي وشيعته».



ثم قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله إنما يعرف الفضل لأهل الفضل، أهل الفضل، ثم قال رسول الله ﷺ لسعد: أبشر فإن الله يختم لك بالشهادة ويهلك بك أمة من الكفرة ويهز عرش الرحمن لموتك، ويدخل بشفاعتك الجنة مثل عدد شعور الحيوانات كلها، قال: فذلك قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ (١).

تفرشونها لنامكم ومقيلكم، والسماء بناءً سقفاً محفوظاً أن تقع على الأرض بقدرته يجري فيها شمسها وقمرها، وكواكبها مسخرة لمنافع عباد الله وإمائه.

ثم قال رسول الله ﷺ: لا تعجبوا لحفظه السماء أن تقع على الأرض، فإن الله عزوجل يحفظ ما هو أعظم من ذلك.
قالوا: وما هو أعظم من ذلك؟

قال: ثواب طاعات المحبين لمحمد وآله.

ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ينزل مع كل قطرة ملك يضعها في موضعها الذي يأمره به ربه عز وجل، فعجبوا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: أو تستكثرون عدد هؤلاء؟ إن عدد الملائكة المستغفرين لمحبي علي بن أبي طالب عليه السلام أكثر من عدد هؤلاء، وإن عدد الملائكة اللاعنين لمبغضيه أكثر من عدد هؤلاء.

ثم قال الله عزوجل: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (٢).

(١) البقرة: ٢٢ .

(٢) البقرة: ٢٢ .

ألا ترون كثرة عدد هذه الأوراق، والحبوب والحشائش؟

قالوا: بلى يا رسول الله ما أكثر عددها!..

قال رسول الله ﷺ: «أكثر منها عدداً ملائكة يبتذلون لآل محمد في خدمتهم، أتدرون فيما يبتذلون لهم؟.. يبتذلون في حمل أطباق النور عليها التحف من عند ربهم فوقها مناديل النور ويخدمونهم في حمل ما يحمل آل محمد منها إلى شيعتهم ومحبيهم، وأن طبقاً من ذلك الأطباق يشتمل من الخيرات على ما لا يفي بأقل جزء منه جميع أموال الدنيا»^(١).

وأحب هنا أن أشير إلى ملاحظة وهي أنه في الخبر الماضي نجد أن الملائكة حملوا العرش، ولكنهم عجزوا عن حمل صحيفة واحدة من العمل الصالح لإنسان مؤمن واحد.. ولذلك قال لهم الله عز وجل: أنا الذي أتولى حملة بنفسي. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في آيتين، ففي الأولى يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾^(٢). وفي الثانية يقول: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣).

أي أن الله هو الذي يرفع العمل الصالح لأن الملائكة تعجز عن حملة وذلك لثقله وعظمته.

وروي في حديث لرسول الله ﷺ يقول فيه: لو أن السموات والأرض وضعت في كفة، ووضع إيمان علي عليه السلام في كفة، لرجح إيمان علي عليه السلام.

(١) الخبر نقلناه من كتاب البحار ٩٧/٢٧ .

(٢) الحاقة: ١٧ .

(٣) فاطر: ١٠ .



وهذا الحديث يكشف لنا عن حقيقة هي: أن الإيمان أثقل وأقوى من السموات والأرض، وهذا يعني أن القوانين التشريعية أعظم وأكبر من القوانين التكوينية. ولذلك نقرأ حديثاً آخر يقول: رأيت إبلاً ليلة أسري بي إلى السماء، رأيت إبلاً تحمل فضائل علي بن أبي طالب، لا يعرف أولها ولا آخرها إلا الله.^(١)

(١) بحار الأنوار ٢٣٦/٤٠ .

الإنسان معجزة الكائنات !

يتساءل البعض مراراً وتكراراً: لماذا هبطنا إلي هذه الدرجة من الانحطاط ليس في جانب واحد من الحياة، ولكن أيضاً في جوانب الحياة كافة؟

أعتقد أنه سؤال وجيه، ولو طرحنا هذا السؤال على علماء الغرب والشرق، لتلقينا منهم أجوبة متنوعة ومختلفة ولكنها في النهاية تلتقي في نقطة واحدة، وهي عدم المعرفة التامة بحقيقة الإسلام، والحياة. وأجوبتهم ستكون بعيدة عن الواقع، وليس لها علاقة بما يدور في محور الإنسان في هذا العالم. ولماذا؟ .. لسبب واحد، وهو أنهم يرون هذا الهبوط شيئاً مألوفاً وطبيعياً، طبعاً في الجوانب النفسية وليس في الجانب المادي، لأن الجانب المادي سببه واضح ولا يحتاج إلى جواب منهم أو من غيرهم.. إنهم يدورون في جوابهم في مجرى الإنسان المتعثر في الحياة فيرونه هبوطاً مألوفاً في حياة الشعوب. بل إنه حق مقدس من حقوق الإنسان أن يهبط أخلاقياً إلى مستوى الأنعام والبهائم .. فالحياة عندهم عبث في عبث وفوضى داخل فوضى والإنسان يسير في الحياة، وليس له قيمة معنوية على الإطلاق.

إن الطبيعة قذفته في رحم الحياة، والطبيعة تجود عليه بالماء والطعام والهواء، والطبيعة تلحس بدنه لتحنو عليه حنو الشاة حين تلحس وليدها - الصغير الذي نزل من بطنها للتو - تلحس بدنه بلسانها، تجفف عنه السوائل العالقة في شعره الناعم الجذاب. ثم بعد

ذلك ينصرف الإنسان في حياته إلى أن يهجم عليه الموت فيذهب إلى التراب حيث تجول عليه ديدان الثرى والنتيجة أنه لا إيمان بالله ولا باليوم الآخر.. يأتي الإنسان إلى الطبيعة ثم يموت في بطن الطبيعة.. هذه هي عقيدتهم .. وهذا مبلغهم من العلم، وما عشت أراك الدهر عجباً.

ولكن هل ينطلي هذا القول على أحد؟ كلا وألف كلا.

إن الكون بريء من الفوضى، والعبثية، إذ ليس هناك حتى ولا ذرة واحدة قائمة على الفوضى والعبث.. إن كل شيء في هذا الكون يسبح الله ويقدسه ويمجده.. ابتداءً من الذرة، وانتهاءً بأكبر سديم ومجرة في الفضاء.. ابتداءً من العشب الذي ينجم من تحت التراب، وانتهاءً بأكبر دوحة في الأرض.. ابتداءً من الأميبيا الكائن الحي ذي الخلية الواحدة، وانتهاءً بالإنسان الذي هو معجزة الكائنات في هذا العالم.. أقول: كل شيء في الكون يدل على الحكمة والدقة والتناسق والانضباط .

والإنسان هذا الكائن الناطق لم تقذفه الطبيعة في الحياة بلا رعاية ولا عناية كما يحلو لشاعر أن يصوره حين قال:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرتُ قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبى
كيف جئت؟ كيف أبصرتُ طريقي؟ -لست أدري



وقد رد عليه العلماء والمفكرون وحملة الأقلام، وأرباب العقيدة رداً عميقاً وثرياً ومفحماً، أذكر من بينهم سماحة العلامة الكبير المجاهد الشيخ عبد الحميد السماوي رحمة الله عليه - بقوله:

جئت لا أعلم إلا أنني جئت لأعلم
فتخطيت بكوني ساحة الكون المطلسم
فإذا لي ألف لحن وإذا لي ألف فم
وإذا بي في خليط - ليس يدري



على أن هذا المعنى الدقيق العميق الذي أدخله العلامة السماوي في رده هذا إنما هو مستقى من الفكر الحضاري في القرآن الكريم.. وبالذات من قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (١).

أي أن الله سبحانه، قد أخرجنا من بطون أمهاتنا إلى الحياة ونحن لا نعلم شيئاً، كالأطفال البريئة التي تكون كصفحة بيضاء وكأرض خصبة لكن ليس فيها زرع ولا حرث، وإنما على الوالدين والمربين أن يقوموا بالواجب التربوي تجاهها.

إذاً: فالإنسان جاء إلى الحياة بلا علم، ولكنه جاء مزوداً بأدوات ووسائل للعلم، أي الوسائل والأدوات التي يستطيع بواسطتها أن يفهم

(١) النحل: ٧٨ .



ويعلم ويستوعب ما يدور حوله في الحياة، فقد زوده الخالق سبحانه وتعالى بالفؤاد، والسمع والبصر.. ونحن نعرف أن السمع والبصر يشكلان طريق الغذاء الروحي والعقلي، والفطري والنفسي للإنسان.. كما أن الفم والأنف يشكلان طريق الغذاء البدني.. حيث يدخل من خلالهما الماء والهواء والطعام.. وكما أن الغذاء الجسدي يدخل من طريقين هما الفم والأنف.. كذلك الغذاء الروحي التربوي فإنه يدخل من طريقين أيضاً هما: الأذن، والعين.. أي السمع والبصر.. وتماماً كما أن الغذاء البدني الذي يدخل عبر الأنف والفم يتجمع في المعدة لتقوم بهضمه ثم بتوزيعه على مراكز البدن.. كذلك الغذاء الروحي الذي يدخل عبر السمع والبصر، يتجمع في الفؤاد حيث يقوم بهضمه واستيعابه ثم بتوزيعه على مراكز العقل والفكر في الإنسان.

أجل.. ليس صحيحاً أن الإنسان جاء إلى الدنيا في عبثية وفوضى وإنه لا عناية تسنده ولا رعاية تعضده. أبداً.. بل العكس هو الصحيح.. إن العناية الإلهية قد سلّحت الإنسان وهو قابع في بطن أمه بكل ما يحتاج إليه من وسائل وأدوات وآلات ليستطيع حماية نفسه بها في الحياة، من أجل الدفاع، والبقاء والاستمرارية، والمسير والانطلاق إلى هدف مقدس وغاية مشرفة.. فأعطته العناية الإلهية العقل، والفكر والنور والبصيرة، والسمع والبصر. ومنحته كل شيء، وسخرت له البحر والشمس والقمر وكل الطيبات. وأنتم «إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» لأن هذه العناية زودته بكل ما يحتاج إليه جسده.. وروحه.

فمثلاً في المخ وحده، عشرة آلاف مليون خط عصبي.. منتشرة في كل أجزاء الجسم.. لنقل الإشارات، والإرادة بأسرع من لمح البصر.



وفي الكليتين، والرئتين والكبد، زيادة في النسيج العامل بمقدار سبعة أضعاف ما يحتاجه الإنسان، وهذه الزيادة هي الاحتياطي للحالات الطارئة عند الإنسان.

ويموت في الجسم، في الساعة الواحدة، ستون مليون خلية، ثم تتجدد الخلايا، وتحل محلها خلايا جديدة، في عفوية وتلقائية، ولكنها ليست عبثاً ولا فوضى، وإنما هي تجري في دقة ونظام بديعين.

على أن هذه الخلية هي من أعجب ما خلق الله سبحانه وتعالى في جسم الإنسان، وحجمها واحد من الألف من المليمتر وفي داخل هذه الخلية الصغيرة الدقيقة نرى بالمجهر الالكتروني، مصانع ومخازن، وجهازاً لتوليد الطاقة، ومخاً آلياً لتنظيم النشاطات التي تجري داخل الخلية، فهل ترى في هذا النظام الكوني من فطور؟ وهل يدل هذا إلا على الحكمة والصواب، والنظام ؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

إن في هذا النظام الذي يلف الكون كله، لأعظم دليل على أن الحق سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً ولا خلق السموات والأرض للعب، وإنما خلقنا للجد والعطاء ولهدف أسمى وغاية مقدسة.. ولابد لنا من الانتقال من هذا العالم إلى عالم الآخرة الذي نفترق فيه إما إلى جنة وإما إلى نار. ونعوذ بالله من النار، ومن غضب الجبار.

(١) المؤمنون: ١١٥ .



الزهراء عليها السلام تقول:
الجار ثم الحار

الزهاء تقول: الجار ثم الدار

كانت فاطمة الزهاء - سلام الله عليها - تدعو لجيرانها في صلاتها، وتذكرهم واحداً، واحداً.. وكانت توزع الطعام عليهم حتى يشبعوا، وخصوصاً البيوتات الضعيفة، فقد كانت الزهاء عليها السلام تتفقدهم وتزورهم، وتضع الحلول لمشاكلهم وتزيح عنهم همومهم وأتاعبهم.. وربما استقت بالقرية لجيرانها الضعفاء، وكانت تقول: الجار ثم الدار^(١).

وجاء في سيرة الزهاء أنها كانت تطعم الطعام، حتى يبدو أثر الجوع في وجهها. (كانت فاطمة الزهاء - سلام الله عليها - تطعم الطعام للفقراء والمساكين، وجيرانها الضعفاء، وكانت ترعى النساء والأطفال لا سيما اليتامى منهم، حتى يبدو أثر الجوع على وجهها الكريم المبارك)^(٢).

(١) اقرأ فاطمة ص ١٣٠ والكشاف للزمخشري.

(٢) جلاء العيون ١ / ١٣٥ .



- الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - ص ٦٦٧: علي بن إبراهيم، عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن إسحاق بن عبدالعزيز، عن زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاءت فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله ﷺ بعض أمرها فأعطاه رسول الله ﷺ كريسة^(١) وقال: تعلمي ما فيها، فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت.

- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٧ - ص ١١٢ - ١١٣ (٨٨٨٤) وفي العلل: عن علي بن محمد بن الحسن القزويني، عن محمد بن عبدالله الحضرمي، عن جندل بن والقي، عن محمد بن عمر المازني، عن عبادة الكليبي، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، عن فاطمة الصغرى، عن الحسين بن علي، عن أخيه الحسن قال: رأيت أُمِّي فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راکعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعون لنفسك كما تدعون لغريك؟ فقالت يا بني، الجار ثم الدار.

(١) الكريسة: مصغر الكراسة وهي الجزء من الصحيفة، وفي بعض النسخ (كرية) أي لوحاً.



أفكار
من وحي خطاب
الزُهراء العليها السلام

في طريق الحق والحقيقة

في طريق الحق والحقيقة عبارة عن باقة فوّاحة بالعطر والشذا من الأفكار المختلفة والمتنوعة، جاءت في القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والهدى والضلال، وحول الأثر الذي تتركه الذنوب على قلب الإنسان كتبتها بهذا الشكل والترتيب لتكون أقرب إلى الأذهان، وأوقع في التأثير والبرهان، فقد جرت العادة أن تكتب هذه البحوث بشكل أكاديمي أحياناً يصعب على الإنسان استيعابها وخصوصاً بالنسبة للشباب، ولذلك آثرت طريقة خاصة اعتبرتها جديدة في طرح مثل هذه الأفكار التي اعتاد الناس أن يأخذوها جاهزة معلبة في قوالب جامدة لا تترك أثراً، ولا تدفع خطراً.

والآن تعالوا معي أيها الأحبة لنمضي وقتاً طيباً وسريعاً مع هذه الأفكار المقتبسة من أحاديث الصديقة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، وهي كالتالي:

تقول الزهراء عليها السلام:

«معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتهم من أعمالكم».

ولتوضيح ذلك نذكر الأفكار التالية:



الفكرة الأولى:

القلب الأعمى والقلب البصير

القلب قلبان: قلب أعمى، وقلب بصير.. والإنسان لا يمكن أن يجمع قلبين في جوفه، فهو إما أن يمشي مكباً على وجهه لأن في جوفه قلباً أعمى.. وإما أن يمشي سوياً على صراط مستقيم بفضل قلبه البصير السليم.. وفي القرآن آيتان بهذا الخصوص. واحدة تنفي أن يكون للمرء قلبان في جوفه، وهذه الآية تقول:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾. (١)

وآية ثانية تؤكد أن صاحب القلب الأعمى سيحشر يوم القيامة أعمى وهذه الآية تقول:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾. (٢)

والبصر دائماً معلق بالقلب، والعَمى الحقيقي هو عَمى القلوب لا عَمى الأبصار: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (٣)

على أن هذا العَمى هو من أخطر الأنواع لأن الذي يفقد بصره يمكن

(١) الأحزاب: ٤ .

(٢) الإسراء: ٧٢ .

(٣) الحج: ٤٦ .



أن يستعين بعقله وسمعه وبقية جوارحه.. ولكن الذي يفقد قلبه، فإنه يفقد كل طاقاته وجوارحه لأن القلب هو مركز القيادة الرئيسي في الإنسان.

يقول الرسول الأعظم ﷺ «شر العمى عمى القلب»^(١). وانفتاح القلب على الحقيقة يمثل الحياة بعينها.. الحياة التي أرشدنا الله إليها، وهدانا إلى الانتفاع بها وذلك بفضل سيرة الحبيب المصطفى محمد ﷺ.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢).

وهذه دعوة صريحة من المصطفى لإحياء القلوب، والذي يزيغ عن هذا المسار فإنه يعطل قلبه عن أشرف وأقدس وظيفة له في هذا الكون وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر، والتي اعتاد القلب عليها، فمن دونها لا يمكن أن يهدأ القلب ولا أن يطمئن: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

إذن: فإن الانصراف عن هذه الدعوة.. والزهد بها لا يؤديان إلا إلى مزيد من الخسارة والضياع، وذلك بفعل الزيغ الذي يصيب القلوب

(١) ميزان الحكمة: ص ٢٣٤ .

(٢) الأنفال: ٢٤ .

(٣) الرعد: ٢٨ .



كنتيجة طبيعية لهذا العزوف. ونقرأ هذه الفكرة الحضارية في آية من القرآن الكريم يقول الحق فيها: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. (١)

وإذا زاغ القلب فإنه يترك صاحبه جذعاً يابساً، أو خشبة مهملة لا حياة فيها ولا حركة. والقرآن يصف هذا النوع من البشر فيقول: ﴿كَانَهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. (٢)

في المقابل نجد أن المؤمنين يقفون كالجبال الراسيات، حيث يصفهم القرآن الكريم فيقول: ﴿كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾. (٣)

على أن الآية المباركة التي تقدمت والتي تقول: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» إنما تشير إلى حقيقة علمية دقيقة وهي أن القلب يعتبر منطقة حرة في الإنسان ترفض التعامل مع القوة والعنف إنها منطقة حرة معزولة عن السلاح ليس في مقدور أحد أن يرفع فيها سلاحاً أو يطلق فيه ناراً، يصفها الإمام علي عليه السلام بأجمل وصف وأروع تصوير حيث يقول: « لا تكرهوا قلوبهم على العباداة، فإن القلب إذا أكره على شيء عمي ».

ولا شك أن هذا الحديث يطرح الفكرة هذه طرحاً حضارياً لأنه يوافق نهج القرآن بل هو والقرآن يصدران من نور واحد، وهذه هي

(١) الصف: ٥ .

(٢) المنافقون: ٤ .

(٣) الصف: ٤ .



الميزة التي ينفرد بها أهل البيت - عليهم السلام - دون غيرهم وهي أن كلامهم يخرج من أفواههم وكأنه نور اقتطع واقتبس من القرآن الكريم.. فالإمام علي عليه السلام يقول: «إن القلب إذا أكره على شيء عمي». والقرآن يقول:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. (١)

ويقول في آية ثانية: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. (٢)

فهناك ارتباط وثيق ودقيق بين قول الإمام علي عليه السلام وقول القرآن لأن تركيبة الإنسان قائمة على الحرية وعدم الإكراه؛ وهكذا جاءت فطرته، والإسلام كما نعلم هو دين الفطرة. وما دام الإسلام دين الفطرة والخالق واحد وهو الذي خلق الإنسان وأنزل إليه القرآن ليصلحه فإن ذلك يعني انعدام الضد والتناقض بين الفكر الحضاري في القرآن وبين تركيبة الإنسان وهذا هو المنهج الحضاري الذي يصنع إنساناً حضارياً يحمل رسالة الحق، ويؤدي الأمانة في الأرض.

عمى القلب إذاً هو العمى عن الحقائق والقلب، كما يفهم من القرآن الكريم، ليس تلك الآلة التي توزع الدم في البدن، وإنما يقصد بالقلب وجوداً أكبر من النفس والعقل، والغرائز والشهوات.. وبكلمة أكثر دقة: إن القرآن الكريم حين يذكر القلب فإنه لا يقصد به المعنى البايولوجي في البدن، وإنما يقصد به المعنى السايكولوجي في الروح.. فالقلب له أهمية كبيرة في جسم الإنسان لأنه يدير الأمور في بناء هذا الإنسان الروحاني العقلي.

(١) البقرة: ٢٥٦ .

(٢) يونس: ٩٩ .



يقول الإمام محمد بن علي الباقر - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - : «إنما الأعمى عمى القلب، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (١).

ويقول الإمام الرضا عليه السلام «يعني أعمى عن الحقائق الموجودة» ولذلك يقول: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو الشاهد». لأن الملاك على سلامة القلب والقدرة على الإنتفاع به في الدنيا والآخرة. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٢)﴾.

وعندما يصفو القلب من الذنوب والمعاصي فإنه يخشع لذكر الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٣).

وهنا يبدأ التفاعل مع الحق، ويأخذ الحب مع الحبيب مجراه الاعتيادي. فيصير حب الله فوق كل شيء، ثم يبدأ هذا الحب بالتفاعل كما قلنا فيتحول إلى عمل وسلوك وأخلاق.. وهذا ما نلمسه في الحبيب المصطفى.

يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٤). والإتباع لا يكون إلا في صفاء القلوب وسلامتها.. لأن الدين مكانه في القلب ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يذكر ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فيقول:

(١) ميزان الحكمة ٨ / ٢٣٤ .

(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩ .

(٣) الحديد: ١٦ .

(٤) آل عمران: ٣١ .



﴿فَجَعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ . (١)

وكلما ازداد إيمان المرء ازداد خشوعه لله.. وهذا هو الفلاح الذي يُرادُّ له أن يظهر في المعاملات وفي العبادات وفي السلوك.

يقول القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ . (٢)

ويصل الخشوع هذا بالإنسان المؤمن إلى درجة أن يغمى عليه من البكاء والدموع والخشوع لأن الخشوع تصحبه الدمعة والدمعة علامة رقة القلب، القلب الرقيق يدل على كبر النفس وعظمة الإنسان، ولذلك كان البكاء صفة ملازمة للعظماء من الأنبياء والأولياء، كما جاء في وصف نبي الله يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (٣)

وجاء في صفة علي عليه السلام أنه كان غزير الدمعة طويل الفكرة، حتى كان يغمى عليه من الخشوع، ومن خشية الله، وهو القائل: آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنت محصيا وأنا ناسيها، فتقول: خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ثم يبكي حتى يقع على الأرض من شدة البكاء!.

وهو الذي وصفه ضرار بقوله: «ولقد رأيته في أحد مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يتململ تملل السليم ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غري غيري».

إذن: فالصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام إنما أرادت بقولها:

(١) إبراهيم: ٣٧ .

(٢) المؤمنون: ٢ .

(٣) يوسف: ٨٤ .



«معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أمَّ على قلوب أقفالها، كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتهم من أعمالكم...»، إنما أرادت أن تكشف عن حقيقة عمى القلوب التي تعرف الحق ثم تغضي عن نصرته، فتكون عاقبتهم أن تعمى القلوب التي في الصدور لأنهم بسكوتهم عن نصرة الحق وخذلانهم أهل البيت احلوا اللعنة عليهم والعذاب إلى الأبد.

ولتوضيح هذه الفكرة تعالوا نقرأ الحديث التالي الذي تؤكد فيه الزهراء أن للقلب رؤية هي غير رؤية العين، لأن المؤمن ينظر بنور الله وهذا يعني أنه ينظر بقلبه قبل بصره فاقروا الحديث إذا شئتم على أن في الحديث الآخر يفتح أفق جديد أمام الإنسان العارف وهو أن المؤمن ليس فقط ينظر بنور الله وإنما هو نشأ من نور الله عز وجل ولذلك فهو يتقلب في طبقات النور ومعارج السعادة الأبدية:

١- بحار الأنوار: روي عن حارثة بن قدامة قال: حدثني سلمان قال: حدثني عمار، وقال: أخبرك عجباً؟ قلت: حدثني يا عمار قال: نعم شهدت علي بن أبي طالب عليه السلام وقد ولج على فاطمة عليها السلام فلما أبصرت به نادى ادن لأحدثك بما كان وبما هو كائن وبما لم يكن إلى يوم القيامة حين تقوم الساعة قال عمار: فرأيت أمير المؤمنين عليه السلام يرجع القهقري فرجعت برجوعه إذ دخل على النبي صلى الله عليه وآله فقال له: ادن يا أبا الحسن فدنا فلما اطمأن به المجلس قال له: تحدثني أم أحدثك؟ قال: الحديث منك أحسن يا رسول الله، فقال: كأني بك وقد دخلت على فاطمة وقالت لك كيت وكيت فرجعت، فقال علي عليه السلام: نور فاطمة من نورنا؟ فقال عليه السلام: أولا تعلم؟ فسجد علي شكراً لله تعالى. قال



عمار: فخرج أمير المؤمنين عليه السلام وخرجت بخروجه فولج علي فاطمة عليها السلام وولجت معه فقالت: كأنك رجعت إلى أبي عليه السلام فأخبرته بما قلته لك؟ قال: كان كذلك يا فاطمة، فقالت: اعلم يا أبا الحسن أن الله تعالى خلق نوري وكان يسبح الله جل جلاله ثم أودعه شجرة من شجر الجنة فأضاءت فلما دخل أبي الجنة أوحى الله تعالى إليه إلهاما أن اقتطف الثمرة من تلك الشجرة وأدرها في لهواتك ففعل فأودعني الله سبحانه صلب أبي عليه السلام ثم أودعني خديجة بنت خويلد فوضعتني وأنا من ذلك النور أعلم ما كان وما يكون وما لم يكن يا أبا الحسن المؤمن ينظر بنور الله تعالى. ^(١)

٢- بحار الأنوار: عن الحسن بن معاوية، عن محمد بن سليمان، عن أبيه عن عيسى بن أسلم، عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال: وما هو؟ قلت: "إن المؤمن ينظر بنور الله" قال: يا معاوية، إن الله خلق المؤمن من نوره، وصبغهم في رحمته، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية على معرفته، يوم عرفه نفسه، فالمؤمن أخ المؤمن لأبيه وأمه، أبوه النور وأمه الرحمة، فإنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه. ^(٢)

(١) بحار الأنوار: ج ٤٣ / ٨ ح ١١ .

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٤ / ٧٤ ح ٢ .



قالت الزهراء عليها السلام :

« وليبئس ما تأولتم.. » موجهة خطابها إلى المنافقين الذين لا إيمان لهم ولا وجدان فكانت هذه الفكرة الثانية:

الجرأة في الموقف

انعكاس للنفس المؤمنة

وابدأها بهذه القصة القصيرة:

ذات يوم مر الإسكندر ذو القرنين على رجل يصلي فلم يعبأ به ولم يلتفت إليه، فوقف مأخوذاً بالدهشة يتساءل في نفسه: كيف يمكن لرجل عابدٍ مثل هذا أن يتجاهلني ولا يعيرني انتباهاً؟!، فظل واقفاً متحيراً حتى إذا فرغ الرجل العابد من صلاته، سأله الإسكندر عن تغافله وتجاهله عنه قائلاً له:

- أوما راعتك كثرة جنودي؟

قال العابد: كلا.

- ولماذا وكيف؟

- لأنني كنت أناجي من هو أكثر منك جنوداً وأقرب إليّ منك.

فبكى ذو القرنين بكاءً حاراً، واخضلت لحيته بدموع عينيه وقال له: صدقت أيها العابد إن الذي تعبد به هو أولى بذلك مني.



هكذا تصنع العبادة - إذا كانت صافية في إخلاص - تصنع أبطالاً لا يهابون أحداً ولا يخافون سوى الله عز وجل، وما أحوجنا في هذا العصر إلى مثل هؤلاء الذين عَظُم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم.

تغيّرت نظرة الإسكندر إلى هذا العابد الجليل، وسأله بأدب واحترام: لِمَ لا تصحبنا؟

قال: أصحبك بشروط ثلاثة: أولها أن تضمن لي حياة لا موت فيها وثانيها أن تضمن لي صحة لا مرض معها، وثالثها أن تضمن لي نعيماً لا بؤس فيه أبداً.

فقال الإسكندر: أنا لا أقوى على ذلك ولا على واحدٍ منها.

فقال العابد: وأنا مع من يقوى على ذلك ويقدر.. فتركه وانصرف.

إنه الجمال المقرون بالإيمان، أو قلّ الجمال الذي يغذيه الإيمان فكم كان جميلاً هذا العابد بعبادته عندما وضع نفسه في موضع العزة والكرامة والاعتصام بحبل الله سبحانه وتعالى.. إنه الجمال الحقيقي الواقعي، لأن الجمال ليس جمال البدن، وما قيمة جمال البدن إذا كانت الروح مثقلةً بالمعاصي متّصفةً بالجبن والخوف من الناس؟

يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «حسن الصورة جمال ظاهر.. وحسن العقل جمال باطن».

نصل إلى الاستنتاج التالي، وهو أن التصرف الذي رأيناه في العابد، إنما هو انعكاس صادق لشكل الصورة الداخلية في الإنسان المؤمن.



وبخلاف ذلك نجد المنافقين الذين يحملون في داخلهم أبشع الصور لأنهم قوم لا يفقهون، وقد أخذ الله بسمعهم وأبصارهم فأعماهم وأصمهم، قالت الزهراء في هذا: «كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتهم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم ولبئس ما تأولتم...»، على أن هؤلاء هم الذين كانوا يتركون رسول الله ﷺ قائماً في صلاته ويذهبون وراء اللهو.

على أننا نستطيع أن نلمس هذا اللون من الجرأة في إبداء الحق وازظهار العدل، وتبليغ رسالات الله في كل الأحوال، أقول: نستطيع أن نلمس هذا في خطاب السيدة العقيلة زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين علي - عليهما السلام - يوم دخلت على يزيد في مجلسه فجردته من كل ألقابه وراحت تدك الجبال والعروش بخطابها العظيم الذي تحدث فيه عن القيود والاعلال التي حطمتها، وأعلنت مبادئ التوحيد، وقيم الحق والعدل ومشروع أهل البيت في إقامة دولة الحق في العالم كله، وذلك يوم انطلقت في خطابها من سورة الروم ومن الآية العاشرة بالذات، وهي في بلاد الروم لتؤكد أن بني أمية ليسوا من العرب ولا من المسلمين، بل هم الشجرة الملعونة في القرآن، علماً بأن اختيارها لسورة الروم تأكيد على إيمانها بالنصر والفلاح والظفر، وأن أخاها الإمام الحسين عليه السلام هو المظلوم المنتصر، يدل على ذلك حديثها مع الإمام زين العابدين عليه السلام يوم الحادي عشر من المحرم عندما مروا بهم على الأجساد الطاهرة ورأت الحوراء ابن أخيها الإمام السجاد عليه السلام يجود بنفسه، فهمزت ناقثها واقتربت منه، لتعلن أمامه إلى العالم كله، أن صاحب كربلاء وصاحب الطف، هو المنتصر في العاجل والآجل،



ويكفي دليلاً على ذلك أن العالم اليوم ينتظر ظهور ولده الإمام المهدي الحجة بن الحسن بقية الله في الأرض صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أيضاً وردت فيه الإشارة من سورة الروم التي جعلتها السيدة زينب منطلقاً لحديثها، واقرؤا معي الحديث التالي لترسيخ هذا المعنى وتوضيح هذه الفكرة:

الخطبة التي خطبتها السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام في مجلس يزيد:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١) أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعظم خطرِكَ عنده؟ فشتمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢) أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد،

(١) الروم: ١٠ .

(٢) آل عمران: ١٧٨ .



والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي؟ وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكيا، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يستبطئ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان؟ ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

وأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منتحياً على ثايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة، تتكتها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وآله ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تتاديهم فلتردن وشيكا موردهم، ولتودن أنك شلت وبكمت، ولم يكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت، اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، وأحل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا، فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا جززت إلا لحملك، ولتردن على رسول الله بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)، حسبك بالله حاكما، وبمحمد خصيما وبجبرئيل ظهيرا، وسيعلم من سوى لك وممكنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلا، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا ولئن جرت على علي الدواهي مخاطبتك إني لاستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرى، ألا فالعجب كل

(١) آل عمران: ١٦٩ .



العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي
تتطف من دمائنا والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر
الزواكي تتتابها العواسل وتعفوها أمهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنما
لتجدنا وشيكا مغرما، حين لا تجد إلا ما قدمت وما ربك بظلام
للعبيد، فإلى الله المشتكى، وعليه المعول، فكد كيدك واسع سعيك،
وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحيانا، ولا تدرك
أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد،
وجمعك إلا بدد، يوم يناد المناد ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله
الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن
يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم
ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



الفكرة الثالثة:

في بيت فاطمة غذاء الروح

يقول القرآن الكريم: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾. (١)

فكما أن الغذاء الجيد يتحول إلى طاقة في البدن، كذلك الكلمة الطيبة تتحول إلى غذاء وطاقة جيدة للنفس.

فالعقل يتغذى بالعلم، والنفس تتغذى بالتقوى، والفطرة تتغذى بالإيمان والعمل الصالح.. والقلوب غذاؤها ذكر الله عز وجل، فلو فتشت العالم كله بغية الحصول على طعام للقلب لما وجدت لذلك سبيلاً، إلا في العودة إلى الله سبحانه. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢). ولذلك تجد القلوب اليوم في ظل حضارة المادة شتى فارغة ليس فيها إلا الخواء والخراب.. قلوب ينهشها القلق ويقتلها اليأس، وتعشش فيها أمراض العصر. وحين يحصل المرء على طعام كامل لنفسه وبدنه وعقله وقلبه، وروحه وفطرته فإن نفسه تكون في أرقى مراتب السعادة، وترجع يوم القيامة إلى ربها راضية مرضية، فيأتيها النداء من قبل الحق:

(١) عبس: ٢٤ .

(٢) الرعد: ٢٨ .



﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾. (١)

على أن حديث الغذاء يفتح أمامنا آفاقاً من المعرفة بعظمة تسبيح فاطمة وأن التسبيح هو الغذاء المفضل لدى فاطمة عليها السلام، اعني غذاء الروح والعقل والقلب، فقد دلت الروايات والأحاديث الواردة في هذا الخصوص أن فاطمة عليها السلام كانت تحيط بنورها بعرش الله عز وجل وكان غذائها التسبيح والتهليل والتحميد.

ومن هنا جاءت الأحاديث التالية لتؤكد هذه الفكرة:

١- تفسير نور الثقلين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في كتاب معاني الأخبار وقد روى في خبر عن الصادق عليه السلام أنه يقول قول الله عز وجل: (وذكروا الله كثيراً) ما هذا الذكر الكثير؟ قال: من سبح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فقد ذكر الله الذكر الكثير. (٢)

٢- تفسير نور الثقلين: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من بات على تسبيح فاطمة كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات. (٣)

(١) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٢) نور الثقلين: ج ٤/ ٧٣ ح ١١٧.

- التفسير الصافي: ج ٤/ ٥٧.

(٣) نور الثقلين: ج ٤/ ٢٧٩ ح ١٢١.

٣- تفسير نور الثقلين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾
محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن
سيف بن عميرة عن بكر بن أبي بكر عن زرارة بن أعين عن أبي عبد
الله عليه السلام قال: تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام من الذكر
الكثير الذي قال الله عز وجل: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾. (١)

(١) نور الثقلين: ج ٤ / ٢٨٦ ح ١٥٠ .



لا سلامة للقلوب إلا بحب فاطمة ومن هنا جاءت الفكرة الرابعة
هذه..

القلب العامر بالإيمان

القلب العامر بالإيمان يعد جهاز إرسال قوياً إلى أبعد الحدود، في
الدعاء والصلاة، والعمل الصالح.. هذا إذا كان سليماً فإن أمواجه تبلغ
الآفاق في الدعاء، وتنزل إلى أعماق النفوس؛ ولهذا يقال: «إن القلب
إلى القلب يهدي» ويقول القرآن الكريم:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فاعطني قلباً سليماً أعطك إجابة لدعائك الذي دعوت به. وهذا
يعني أن الإنسان الذي يتمتع بقلب صاف غذاؤه الإيمان والفضائل،
والذي يحوي بين ضلوعه نفساً تعيش على الطهر والتقوى، والذي يملك
عقلاً لا يعرف غير مناجاة الله سبحانه وتعالى والذي اتخذ طريقاً
مستقيماً وجهته الحق والعدل والإنصاف، والذي يحمل لساناً دافئاً
يعشق أن ينادي: الله أكبر.. الذي جُبِلَ على مثل هذه الفضائل هو
الإنسان الأريحي الذي يستجيب الله سبحانه لدعاء قلبه العامر
بالإيمان. وكلنا نعرف أن الإيمان لا يتحقق إلا بالولاية لأهل البيت
عليهم السلام وقمة الولاء حينما يكون متصلاً بفاطمة وأبيها وبعلمها
وبنيها روعي فداء لتراب أقدامها.

على أن القلب السليم إنما هو ثمرة من ثمار التشيع، ولذلك يقول:



وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم، فريط سلامة القلب، بالتشيع، على أن التفسير يقول أنه من شيعة نوح، في حين أن التأويل وهو اظهر باطن الآية وعمقها يشير إلى أن إبراهيم كان من شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

١- بحار الأنوار: من خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره، وطاعة هاد أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة، وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق وهدى نهج السبيل». (١)

٢- الكافي: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمد، عن المنقري، عن سفيان ابن عيينة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: «إلا من أتى الله بقلب سليم» قال: القلب السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه، قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة. (٢)

(١) بحار الأنوار: ج ٦٦ / ٣١١ ح ٣٢ .

(٢) الكافي: ج ٢ / ١٦ ح ٥ .

- وسائل الشيعة: ج ١ / ٦٠ ح (١٢٧) ٥ .



فاطمة هي الصراط المستقيم لأن الصراط هو الإمام علي عليه السلام
وهي كفؤ لعلي عليه السلام:

الفكرة الخامسة:

فاطمة هي الصراط المستقيم

الإرادة هي الروح الحضارية في الإنسان، وبغيرها لا يمكن للإنسان أن يفرض وجوده ونفسه. فالأدمية لا تبدأ إلا من اللحظة التي يضبط فيها الإنسان رغبته، ويكبح جماح شهوته، ويتصرف بمقتضى أهداف إنسانية رفيعة المستوى.

أما إذا انحصرت الحياة في الأكل والشرب والمضاجعة فإنها تصبح حياة بهائم لا حياة إنسان يعد نفسه إعداداً حضارياً لنيل شهادة خلافة الله في الأرض. ومن هنا جاءت شعائر الإسلام لتؤدي دوراً حضارياً في تربية هذا الإنسان وإعداده إعداداً ربانياً يستطيع من خلاله أن يصل إلى غايته ويحقق أهدافه وفق مبادئ السماء، وأشواق الوحي. فالصوم مثلاً جاء ليعمق الإرادة في النفس لأن ثمرة الصوم التقوى، والتقوى لا تتم من دون الإرادة، فالإرادة هي التقوى، أو قل: إن التقوى تعني الإرادة مضافاً إليها الإيمان. إن الشعوب المؤمنة التي تستمد طاقتها من السماء يمكنها أن تعيش حرّة كريمة ولا يمكن أن تستسلم لوساوس الشياطين لأن سلاحها الإيمان، وقديماً قيل:



إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد ليلاً أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

فطوبى لمن فتح عينيه وأدرك موقعه ومكانه في الخليّة البشرية
المتجهة نحو الصراط المستقيم الذي يتمثل في بيت علي وفاطمة
- عليهما السلام -، وللمزيد من المعلومات سلط الأضواء على سورة
الفاتحة التي هي أم الكتاب تجد أمامك آفاقاً من المعرفة والعلم
والوعي.



كانت فاطمة الزهراء عليها السلام شبيهة بأبيها رسول الله ﷺ حتى في مشيتها وطريقتها في الكلام.. وكانت تجسيدا حيا لأخلاق رسول الله ﷺ ومن هنا جاءت الفكرة السادسة هذه..

دور الأخلاق الفاضلة

الإنسان إنما تتحقق إنسانيته بمقدار قدرته على التغيير والتأثير. إن هنالك علوماً لا تتمكن من تغيير النفس وهي العلوم الطبيعية.. في حين أن العلوم التي تترك أثراً تربوياً في الإنسان وتستطيع أن تغير مسار حياته هي العلوم الأخلاقية ومن هنا كانت الأخلاق قد حظيت بمنزلة عظيمة في الفكر الإسلامي حتى قال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وبالفعل فقد تممها بشكل رائع حتى شهد الله له بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وإنما صار على خلق عظيم لأن رسالته عظيمة ومهمته عظيمة، والرسالة العظيمة تحتاج إلى خلق عظيم لأن الخلق ليس الابتسامة والبشر في الوجه وإنما الأخلاق هي أن تعرف كيف تعيش في الحياة.. كيف تعاشر الناس.. كيف تنتفع من طاقاتك، وتتفاعل مع كل شيء يجري من بين يديك ومن خلفك.

تلكم هي الأخلاق التي مدح الله رسوله بها ووصفه بأنه كان على خلق عظيم.

إن الأخلاق الفاضلة هذه المرتكزة على الإيمان بالله تلعب دوراً مهماً



في حفظ كيان الأمم والجماعات، والأمة التي تتحلل من التمسك بالخلق القويم، تضيع مكانتها وتتدثر هيبتها وتغدو لقمة سائغة في أفواه الظالمين.

قال الشاعر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
وقال غيره:

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقال غيره:

قد ولجنا الحياة من كل باب فوجدنا الأخلاق باب النجاة
ومن هنا كانت أخلاق النبي ظاهرة في أهل بيته وخصوصاً في ابنته الشهيدة المظلومة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت أسوة وقدوة ومثلاً أعلى في الأخلاق كأبيها رسول الله ﷺ.

وهذه الزهراء عليها السلام ترينا كيف كانت تتعامل مع الناس في تعليمهم وتثقيفهم وتوجيههم إلى معالم الحق والدين والحرية بأسلوب تربوي فعال ومؤثر يدل على ذلك ذكر القصة التالية:

بحار الأنوار: قال أبو محمد العسكري عليه السلام: حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: إن لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شئ، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، فثنت فأجابت ثم ثلثت إلى أن عشت فأجابت ثم خجلت من الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت

فاطمة: هاتي وسلي عما بدا لك، أرأيت من اكترى يوما يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار يثقل عليه ؟ فقالت: لا . فقالت: اكترت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى أن لا يثقل على، سمعت أبي ﷺ يقول - : إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة من نور ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد ﷺ، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم حتى أن فيهم يعني في الأيتام لمن يخلع عليه مائة ألف خلة وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثم إن الله تعالى يقول: أعيدها على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تنموا لهم خلعتهم، وتضعفوها لهم فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم، ويضاعف لهم، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم. وقالت فاطمة عليها السلام: يا أمة الله إن سلكة من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة وما فضل فإنه مشوب بالتنغيص والكدر. (١)

(١) بحار الأنوار: ج ٢ / ٣ ح ٣ .



الفكرة السابعة:

العقل مفتاح حرية المرء

العقل يعني المقياس لاختيار البديلات، وبكلمة أخرى: الإنسان يملك العقل فهو- إذن - يملك أن يقول: لا.. وأن يقول نعم. إنه يستطيع أن يصنع هذا الشيء، ويستطيع أن يرفضه.. يتمكن أن يفعل وأن لا يفعل، وليس هناك شيء يستطيع أن يسلب منه هذه الحرية إلا إذا أجاد بها هو وقدمها للآخرين، وإلا فالإنسان كائن حرّ مستقل بذاته يتمتع بإرادة أقوى من الجبال بحيث لا يستطيع أي مخلوق في الأرض أن يسحق هذه الإرادة إلا إذا رضي هو - أي الإنسان - بعملية السحق هذه - فقد رأينا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه في طريق الحق والعدل والحرية، ولم يخضع أو ينسحق تحت يد أحدٍ قط.. ومنهم من ينتظر بهذه الحرية أن يقوم بأكبر عمل بطولي من أجل الله ومن أجل الحق والحرية.

على أننا حين نراجع حياة هؤلاء العظماء فإننا نجد الواحد منهم يخوض غمار الوغى ولا يتهيب شيئاً أبداً، ويصرّح في أقواله، وأراجيزه: آليت لا أقتل إلا حراً. كما كان يفعل مسلم بن عقيل ابن عم الحسين - عليهما السلام - في جموع أهل الكوفة الذين خانوه، ومن الماء حرموه، وإلى الجلال السفاك أسلموه.. كان يقول: آليت ألا أقتل

إلا حراً وإن رأيت الموت شيئاً نكراً. كل هذا يدل على عقل الإنسان وأن العقل يشكل منطقة الحرية في المرء وإنه يعطيه القدرة أن يرفض وأن يذعن.. أن يقبل وأن يقول: لا ...

إذن: فمنطقة العقل هي التي يكون فيها الإنسان مخيراً وحرراً يتمتع بقدرة الحرية، وطاقة الاختيار. والمتتبع لمسيرة العقل في الفكر الإسلامي الحضاري يجد أن العقل يشكل واحدة من وظائف القلب.. يقول القرآن الكريم في هذا المضممار: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾. (١)

وهنا نجد العقل أدى وظيفة من وظائف القلب.. فكما أن العين للبصر، والأذن للسمع كذلك القلب لإثارة العقول وتحريكها.. ونجد هذا المعنى في آيات كثيرة تتحدث عن هذا الموضوع كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾. (٢)

وقبلها يقول: لهم قلوب لا يفقهون بها أي لا يعقلون بها وهكذا في الباقي. فالقلب إذن هو المنطقة الحرة المحرمة التي ترفض سلطة الآخرين، وترفض أن يتدخل فيها أحد من العالمين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم بعملهم هذا يزرعون فسائل المودة في القلوب.. أما في ما عدا ذلك فإن القلب يغلق بابه بوجه كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.. ومن هذا المنطلق فإننا نؤكد أن مسألة القلب هذه تدل على حرية الإنسان، بل هي أكبر دليل وأعظم برهان على

(١) الحج: ٤٦ .

(٢) الأعراف: ١٧٩ .



حرية الإنسان واختياره.. وذلك إن جميع القوى في العالم - لو اجتمعت - فإنها لا تنال من قلبك بمقدار ذرة واحدة شرط أن يكون هذا القلب عامراً بالإيمان. فكما أن وظيفة الأذن السمع.. ووظيفة العين النظر، كذلك تكون وظيفة القلب التعقل والتفكر والتدبر.. وهذه صفة الإنسان المؤمن الذي يريح الجولة في رحاب الحق والعدل والحرية.. والذي يعبد الله على أساس التأمل والتفكر والتعقل، كما ورد في الحديث «إن تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة» وطبعاً المراد بالعبادة - هنا - العبادة المندوبة المستحبة وليس العبادة الواجبة لأن العبادة الواجبة لا يعادلها شيء في هذا الكون على الإطلاق.. وإنما ذكرت هذه الملاحظة خشية أن يقع بعض القراء في الوهم فيقول أحدهم: إذن: فلا داعي للصلاة ولا للصيام ولا للحج.. وإنما أجلس أنا ساعة واحدة أفكر فيها وهذه تسدُّ عبادة سبعين سنة، ثم كم يعمر الإنسان؟ إنه لا يعمر إلا في هذا المقدار من العمر.. إذن - والكلام ما زال لهذا القارئ الذي توهم أن التفكير يغني عن العبادة شيئاً - يقول: إذن: فلا داعي هناك للصلاة وإنما اكتفي بكل شهر أجلس ساعة للتفكر وهذه الساعة تسد كل أيام العمر فما بالك إذا كررتها في الشهر مرة.

المهم، أن القارئ الفطن لا تخفى عليه هذه الحقائق وهي أن مليون سنة من التأمل والتفكر لا تعادل عند الله ركعتين لصلاة الصبح الواجبة.. ولك أنت أن تفكر بعظمة العطاء الرياني لهذا الإنسان الذي يعبد الله عز وجل، ولذلك كان العطاء على قدر المعطي، ومن هنا أخره إلى يوم القيامة وإلى الآخرة لأن الدنيا لا تسع عطاء الرب الرحيم



للإنسان المؤمن المطيع.. أقول: ذكرت هذه الملاحظة لأُدلل على شيء واحد وهو: إذا كان تفكير ساعةٍ خيرٌ من عبادة سبعين سنة، وكان هذا العطاء لا يسدّ الفرض الواجب فما بالكم بعطاء رب العالمين للإنسان مقابل عبادته الواجبة؟ إنه عطاء لا يعرف مداه إلا الله والراسخون في العلم.

أعود إلى أصل الفكرة حتى تترسخ أكثر في الذهن وتؤثر في النفس، فأقول: إن منطقة العقل هي التي يكون فيها الإنسان مخيراً ولديه القدرة على أن يعمل أو لا يعمل، ولذلك جعل الله عز وجل العقل مقياس التكليف، فالذي لا يملك العقل، يسقط التكليف عنه كالمجنون مثلاً، والطفل الذي لم يبلغ الحلم.. وكالسفيه الذي لا يعرف تصرف الأمور، ويدرك ريب الدهور.. وهؤلاء جميعاً لا تجري عليهم الأحكام الإسلامية.

ويبقى العقل معطلاً حتى يأذن الله له بالعمل، وعمل العقل هو الإيمان بالله أي أنه لا يبدأ عمله بالشكل الصحيح حتى يضيئه نور الإيمان والحق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

وفي نظرة واعية وقراءة دقيقة لهذه الآية تتكشف أمامنا حقيقة وهي: أن الأذن المذكور في الآية إنما هو العقل. وهذا من أروع التفسير الحضاري لهذه الآية على ما اعتقد، وذلك أن الآية لم تقل: ما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ثم ينتهي الكلام وإنما واصلت حديثها

(١) يونس: ١٠٠ .

فقالت: ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» إذن: فإذا الله هو العقل، وهذا معناه أن الله خلق النفس البشرية وجعل إذن الإيمان معها، أو قل: أعطاه مفتاح الإيمان وجعله في يد النفس. فقال: «يجعل الرجس على الذين لا يعقلون» بمعنى أنك إذا أردت أن تؤمن فما عليك إلا أن تحرك عقلك وتثير تفكيرك بما أودع الله من آيات وكائنات، وعلامات في هذا الكون وكلها تدل على أن الخالق واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

كل ذلك بفضل العقل، ولذلك جاء تفسير العقل في الحضارة الإسلامية أنه: «ما عبد به الرحمن» وعبد به الرحمن تشير إلى الإيمان والتقوى في القلوب. واقرأ معي الآيات التالية إذا شئت:

١- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. (١)

٢- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (٢)

على أن آخر الآية يدل على حرية الإنسان لأنها . أي الآية . قالت: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ومادام الإنسان مسؤولاً عن العمل الذي يعمل فإنه يتمتع بحرية واختيار ولولا ذلك لما كان هناك موجب لسؤاله.

(١) يونس: ٩٩ .

(٢) النحل: ٩٣ .

٣- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (١)

٤- ونقرأ الآية التي قبلها فنجدها تؤكد هذا الجانب بقولها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ..﴾ (٢).

وذلك لأنهم عطلوا وظائفهم، وسدوا الطرق في وجوه الحياة.

على أننا حين نقرأ الحديث الأول في الكافي والذي يقول فيه الحق سبحانه مخاطباً العقل: «ولا أكملتك إلا فيمن أحب»، يتضح لنا أن حب فاطمة إنما هو لإكمال العقول إذ لا يبلغ العقل درجة الكمال بغير حب فاطمة وأبيها وبعلمها وبنيتها، ومن هنا كانت مودتهم فريضة واجبة على كل الأحرار في العالم وكانت طاعتها مفروضة على كل الخلق كما سيأتي ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

١- الكافي: أخبرنا أبو جعفر محمد بن يعقوب قال: حدثني عدة من أصحابنا منهم محمد بن يحيى العطار، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما خلق الله العقل استتطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهي وإياك أعاقب، وإياك أثيب. (٣)

(١) يونس: ١٠٠ .

(٢) الأعراف: ١٧٩ .

(٣) الكافي: ج ١ / ١٠ ح ١ .

٢- بحار الأنوار: روي أن النبي ﷺ قيل له: ما العقل؟ قال: العمل بطاعة الله، وإن العمال بطاعة الله هم العقلاء. (١)

٣- الكافي: في حديث الإمام موسى بن جعفر - عليهما السلام - لهشام بن الحكم: يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة. (٢)

أقول: وطاعة فاطمة تتكامل فيها العقول بخلاف معصيتها التي تجعل العقول خاوية على عروشها من العمى.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (٣)

على أن هذه الآية تقدم قاعدة عامة في الفقه واللغة والتفسير والآداب وكل أبواب وآفاق المعرفة، تدل على أن الإيمان بولاية أهل البيت شرط أساسي في سلامة عمل الجوارح والحواس، إذ أنه بغير الولاية وغير الإيمان بآيات الله لا يمكن للجوارح والحواس ولا حتى الطاقات أن تتطلق في البناء والفهم والمعرفة، وإنما تظل هذه الحواس معطلة بدليل قوله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وأكبر آيات الله هم

(١) بحار الأنوار: ج ١ / ١٣١ ح ٢٠ .

(٢) الكافي: ج ١ / ١٦ .

(٣) الأحقاف: ٢٦ .

فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها، ومن هنا فإن عدم الولاية لفاطمة يمنع الإستفادة من كل طاقات الوجود، ففاطمة هي الأفق المبين المتصل بعرش الله لمن يريد أن يتقدم في حياته.

٣- بحار الأنوار: الحسين بن محمد عن المعلى عن الوشاء عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾، قال: يعني فاطمة عليها السلام. (١)

(١) بحار الأنوار: ج ٢٤ / ٣٣١ ح ٥٥ .

العقل يرينا الطريق ولكنه لا يدفعنا إلى المضي في هذا الإتجاه أو ذاك، وإنما هو الإيمان والمودة يدفعان المرء لمواصلة السير الحثيث إلى الهدف والغاية.

الفكرة الثامنة:

دور العقل والإرادة في أفعال الإنسان

سؤال: إذا كان الله خلق أفعالنا، فلماذا يحاسبنا؟ لماذا الحساب إذا؟
الحساب لا يكون على أساس الفعل وإنما على توجيه الفعل، فالطاقة من الله، ولكن توجيه هذه الطاقة إنما يتم بإرادتك أنت.. صحيح أن طاقة الجنس من الله وكل الطاقات إنما هي من الله عز وجل، ولكن الصحيح إن الله لم يأمرك باستخدام هذه القدرة في البطش وضرب الآخرين، ولا أمرك باستخدام الفريزة في الزنا والفحشاء.. وإنما أمرنا الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.. ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغى.

أجل.. إن الله أمرنا بكل ما هو طيب وشريف ونهانا عن كل شيء خبيث ومنحط.. ولكنه ترك المبادرة في يدك أنت. فتوجيه الطاقة، وصرف القدرة والفعل، هو الذي سيكون محل الحساب، والثواب والعقاب.



ومن هنا ندرك أن الحساب إنما يتعلق بمدى قدرة وفعالية العقل لدى الإنسان، فإذا كان العقل ضعيفاً أو متخلفاً؛ فإن الحساب يتغير ويتبدّل ولعله ينتفي بالكامل، تبعاً لحالة العقل ووضعه في الإنسان.. وإذا كان الأمر كذلك، فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال لأن القضية واضحة والمسألة محلولة بشكل صريح وواضح لا غبار عليه ولا ضباب. إن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب المجنون، أو المصاب بمرض عقلي كما يحاسب مسؤولاً ظالماً يحلّل لنفسه ولغيره ما شاء من المحرمات التي نهانا الله عنها ويرتكبها بملء إرادته وحرّيته.

إن الخير موجود في الحياة، والشر أيضاً موجود والله سبحانه خلق الإنسان وميّزه عن غيره من الكائنات بأن جعل فيه العقل وأعطاه القدرة على التمييز بين الخير والشر، وعلى هذا فهو يستطيع إذا أراد أن يجعل حياته قائمة على عمل الخير وسلوك الطريق التي يرضى عنها الله والتي توصله إلى الفضائل، ويستطيع إذا أراد أن يكون شريراً. إن إرادة الإنسان تلعب دوراً حاسماً في حياته وتوجيه سلوكه.

هذه الفكرة تبين لنا أن الذين تقاعسوا عن نصره الزهراء وخذلوها بحجة أن الله لو أرادنا ناصرين لدفعنا إلى ساحات المواجهة، أقول: إن هؤلاء كانوا خاسرين وقد ردت عليهم الزهراء في خطابها ودفعت مزاعمهم ودعاواهم الباطلة، فيكفي إلقاء نظرة على كلامها للكشف عن هذه الحقيقة.

على أن هناك شرطاً أساسياً في المعرفة، وهو التقوى، لأن التقوى هي المنظار الذي ترى النفس من خلاله حقائق الأشياء، فلإنسان رؤيتان واحدة بالعين - كما مر علينا - وأخرى بالقلب، وكما أن العين لا

ترى الأشياء إلا بنور الشمس، كذلك القلب لا يرى الحقائق إلا بنور التقوى، ومن هنا قدمت الزهراء عليها السلام هذه المقدمة كشرط أساسي في بناء المعرفة، فقالت: «واتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء..» ثم قالت: «أيها الناس اعلموا أني فاطمة»، لأن العلم بلا تقوى لا يضمن ولا يغني من جوع أبداً ومثله في ذلك مثل علم الشيطان الذي صار لعنة تلاحقه أينما حل ونزل، ومن هنا كانت الصديقة الكبرى فاطمة عليها السلام توضح للناس معالم الطريق وتبين لهم أنهم بغير تقوى لا يستطيعون معرفة فاطمة عليها السلام وهذا ما أردت الإشارة إليه هنا في هذه العجالة.

١- بحار الأنوار: «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعة، وحرمة الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء.

ثم قالت: أيها الناس! اعلّموا أني فاطمة وأبي محمد عليهما السلام، أقول
عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً..». (١)

٢- الكافي: سهل بن زياد، عن داوود بن مهران، عن علي بن
إسماعيل الميثمي، عن رجل، عن جويرية بن مسهر قال: اشتدّت خلف
أمير المؤمنين - عليه السلام - فقال لي: يا جويرية إنه لم يهلك هؤلاء
الحمقى إلا بخفق النعال خلفهم ما جاء بك قلت: جئت أسألك عن
ثلاث: عن الشرف وعن المروءة وعن العقل، قال: أما الشرف فمن
شرفه السلطان شرف وأما المروءة فأصلاح المعيشة وأما العقل فمن
اتقى الله عقل. (٢)

(١) بحار الأنوار: ج ٢٩ / ٢٢٣ .

(٢) الكافي: ج ٨ / ٢٤١ ح ٣٣١ .

الفكرة التاسعة:

مفهوم القضاء والقدر في الإسلام

سؤال: هل هناك تناقض بين القدر وحرية الإنسان؟ بمعنى أن القدر يسلب من الإنسان قدرته على الحرية فيغدو عاجزاً عن التحرك كأنه مسلوب الإرادة لا يقوى على شيء أم ماذا؟

الجواب مختصر ومفيد ويلخص التعبير كله وهو: أن القدر يثبت حرية الإنسان ولا يعطلها، وذلك أن الله عز وجل قدر له أن يكون حراً: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. (١)

وبالفعل فقد شاء الله سبحانه لك أنت أن تفعل حسب ما تريد.. أن تكون ذا إرادة وإرادة وحرية.. على أن إرادة الله هذه، إنما هي عطية ومنحة من الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يعرف قدرها فلا يذلها ولا يرهقها طلباً. فإله سبحانه يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. (٢)

ويقول أيضاً: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. (٣)

وهذا هو المعنى الدقيق للقضاء والقدر، حيث جاء القضاء في التشريع، والقدر في مجال التكوين.. وهذا الذي قد رأيناه في قصة انتقال الإمام علي عليه السلام من الجدار المائل إلى الجدار السوي يعطينا

(١) التكوين: ٢٩ .

(٢) الإنسان: ٣٠ .

(٣) الكهف: ٢٩ .

دليلاً على ذلك. وهذا يعني أن الله قضى ألا يجلس الإمام تحت جدار مائل يريد أن ينقضه لأن الجلوس تحته القاء بالنفس إلى التهلكة، والله لا يريد لعباده التهلكة.. فإله سبحانه يقضي وينبه: احترس من الجلوس تحت الجدار المائل المهتز، فأقوم وانتقل إلى الجدار السوي.. وهذا يعني أنني خرجت من دائرة القضاء إلى دائرة القدر، لأن القضاء جاء في التشريع، والقدر جاء في التكوين. (١)

يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. (٢)

والقضاء هنا بمعنى الحكم أي أنه حكم، وهذا في التشريع وليس في التكوين، لأننا تكوينياً نجد كثيراً من الناس يكفرون بالله ويعقون آباءهم وأمهاتهم.. وما دام في قدرة الإنسان أن يخالف هذا القضاء فإنه قضاء في التشريع وليس في التكوين.

ويأتي القضاء بمعنى الأخبار أو الخبر ونقل الأخبار. يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. (٣)

فالآية هنا تعطي معنى الخبر.. ثم يأتي القضاء بمعنى الخلق. يقول القرآن: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. (٤) أي خلقهن.

(١) يمكن قراءة البحار ٣/٣ - ١٠ للمزيد من المعرفة في هذا المجال.

(٢) الإسراء: ٢٣ .

(٣) الإسراء: ٤ .

(٤) فصلت: ١٢ .

بينما يقول في القدر: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾. (١)

أي خلق. ويقول: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٢) أي أنه أخبر عنها وبيّن نفسييتها ولون عقيدتها.

ولتوضيح فكرة القضاء والقدر في التشريع والتكوين أضرب لكم المثال التالي: ينزل الطفل من بطن أمه مزوداً بأجهزة وأدوات، والآن زوده الله بها للوصول إلى أشياء معينة، وهذه كلها نطلق عليها وسائل تكوينية.. مثل قدرة الإنسان على أخذ العلم ونقله إلى الآخرين، ومثل قدرته على النطق.. وقدرته على المشي، وتعلم الصناعات وغيرها، وهذه كلها تعتبر وسائل تكوينية وليست تشريعية، أي أنه بهذه الوسائل يستطيع أن يتكامل إذا استخدمها استخداماً طيباً، في حين أنه إذا أهملها فإنها سوف تتعطل عن العمل ولا تفي بالغرض والهدف.

إذن: فالوسائل التكوينية هذه تعتبر قدراً، أو من القدر لأنها في دائرة التكوين ودائرة التكوين خاصة بمجال القدر.. في حين أن تحريك هذه الوسائل واستخدام هذه الأدوات إنما هو قدرة خاضعة للقضاء فإذا شاء الإنسان حركها وإذا شاء أمسك عنها، أي أنك عندما تحرك أي عضو فيك.. إنما تحركه بقضاء الله عز وجل. وهذا هو الفارق الحضاري الذي يفصل بين مفهوم القضاء ومفهوم القدر في الإسلام.

وهذه أحاديث جاءت في توضيح فكرة القضاء والقدر أحببت أن أسكبها هنا في هذا المجال على أن لنا عودة - بإذن الله تعالى - في طرح موضوع القضاء والقدر في مكانه المناسب من هذا الكتاب:

(١) فصلت: ١٠ .

(٢) النمل: ٥٧ .



١- بحار الأنوار عن تفسير علي بن إبراهيم: أبي، عن النوفلي، عن السكوني، عن جعفر، عن أبيه صلوات الله عليهما قال: قال رسول الله ﷺ: سبق العلم وجف القلم ومضى القضاء وتم القدر بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل، وبالسعادة من الله لمن آمن واتقى، وبالشقاء لمن كذب وكفر، وبالولاية من الله للمؤمنين، وبالبراءة منه للمشركين. ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول: يا بن آدم بمشييتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبقوتي وعصمتي وعافيتي أدت إلي فرائضي، وأنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بذنبك مني، الخير مني إليك بما أوليتك به، والشر مني إليك بما جنيت جزاءاً، وبكثير من تسلطي لك انطويت عن طاعتي، وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي، فلي الحمد والحجة عليك بالبيان، ولي السبيل عليك بالعصيان، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان، لم أدع تحذيرك بي، ولم آخذك عند عزتك، وهو قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرٍهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ لم أكلفك فوق طاقتك، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت بها على نفسك، ورضيت لنفسي منك ما رضيت به لنفسك مني. (١)

٢- بحار الأنوار: روي أنه سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن القضاء والقدر، فقال: لا تقولوا: وكلهم الله إلى أنفسهم فتوهنوه، ولا تقولوا:

(١) بحار الأنوار: ج ٥ / ٩٣ ح ١٣.

جبرهم على المعاصي فتظلموه، ولكن قولوا: الخير بتوفيق الله، والشر
بخذلان الله، وكل سابق في علم الله. (١)

٣- بحار الأنوار: وروي أن الرجل قال: فما القضاء والقدر الذي
ذكرته يا أمير المؤمنين؟ قال: الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية،
والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية، والمعونة على القربة إليه،
والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب كل ذلك
قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا، أما غير ذلك فلا تظنه فإن
الظن له محبط للأعمال، فقال الرجل: فرجت عني يا أمير المؤمنين
فرج الله عنك. (٢)

(١) بحار الأنوار: ج ٥ / ٩٥ ح ١٦ .

(٢) بحار الأنوار: ج ٥ / ٩٦ ح ٢٠ .

الفكرة العاشرة:

البصر والقلب ورؤية الأشياء والحق

لكي ترى الأشياء أمامك واضحة، لا بد من توفر شروط ثمانية:

أولاً - أن تكون العين سالمة، لأن سلامة العين شرط أساسي في صحة الرؤية أو قل: في إمكان الرؤية.

ثانياً - المقابلة أو في مستواها وحكمها، مثل المرآة، والماء أي أن هناك شيئاً يعكس الصورة فتراه العين. ونعني بالمقابلة - هنا - أن تكون الصورة أو الأشياء قبالة العين وليس وراءها أو بعيداً عنها.

ثالثاً - عدم القرب المفرط، أي ألا تكون الأشياء قريبة بشكل مفرط من العين مثل أن أضع شيئاً على عيني فإنني عندئذٍ لا أتمكن من الرؤية بشكل صحيح.

رابعاً - عدم البعد المفرط أيضاً، ومعناه ألا تكون الأشياء بعيدة بحيث لا يستطيع الواحد من تشخيصها ومعرفتها لأن للرؤية في العين مدى محدداً، وقدرة معينة، وإذا وجدت عين مثل زرقاء اليمامة التي يضرب بها المثل فإنها هي الأخرى لا تستطيع أن تشخص الأشياء وتحددها من مسافات بعيدة، وإنما عن بعد قريب يمكن للعين أن تحدد الشيء الذي هو أمامها.

خامساً - عدم الحجاب أو الحاجز الذي يفصل بين الشيء والبصر،



فأنت لا تستطيع أن ترى الأشياء التي هي تحت أطباق الثرى أو خلف جدران المنزل، لأن كل هذه الأشياء إنما هي حواجز تمنع من الرؤية منعاً باتاً.

سادساً - عدم الشفافية، وتعني الأشياء الشفافة الرقيقة التي لا ترى بالعين المجردة فإنه من المستحيل على النظر أن يشخصها أو يحددها، وهي مثل الهواء، والالكترونات في الذرة، وأجسام أخرى كثيرة تطوف حولنا في الهواء ونحن لا ندركها ولا نحس بها ولا نشعر بوجودها لأننا لا نراها بالعين المجردة، كما قال القرآن الكريم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ (٣٩)﴾. (١)

فالأشياء التي نبصرها تكون - في العادة - في متناول دائرة العين.. في حين أن الأشياء التي لا نبصرها هي التي شفت ورقت حتى لم يعد في إمكان البصر رؤيتها ولا تحديدها.

سابعاً - تعمد الرائي للرؤية.. وهذا يعني أنك عندما تريد أن ترى فإنك ترى.. أما إذا كنت لا ترغب في الرؤية فإن شروطها لا تتم وبالتالي لا تحصل. ولتوضيح هذا الشرط، فإن الإرادة لها دور كبير في تكوين عملية الرؤية، ولولا الإرادة لما تحققت الرؤية بحال من الأحوال، فعينا الإنسان قد تكونان مغمضتين لسبب ما أو قد يكون هذا الإنسان مشغولاً بشيء آخر فلا ينتبه إلى هذا المنظر أو الشيء الموجود أمامه وهكذا.

ثامناً - وجود النور، ففي الظلام تكون العين سالمة ويكون الهواء

(١) الحاقة: ٣٨-٣٩ .

موجوداً، ومع ذلك فالإنسان لا يرى شيئاً. على أن الهواء الذي جاء ذكره هنا يعتبره العلماء شرطاً مهماً في تكوين الرؤية، وعلى هذا الأساس فإن الهواء يكون من ضمن الشروط المذكورة فتكون الشروط تسعة بدل الثمانية.

وإذا كانت الرؤية المادية في العين تقتضي هذه الشروط المتقدمة، فما بالكم برؤية الحق في عين البصيرة، هلا تحتاج إلى شروط أم لا؟ إن البصيرة إذا عميت أضرت بصاحبها وأودت به في الهاوية. وكما أن رؤية الأشياء تقتضي سلامة العين، كذلك رؤية الحقائق تقتضي سلامة القلب.. لأن القلب الأعمى لا يمكن أن يبصر حقيقة ولا يستوعب عدلاً، وكيف يبصر وهو يعيش في ظلمات الشيطان، ونحن عرفنا من لحظات أن وجود النور يعد شرطاً أساسياً في تحقق الرؤية، والشئ نفسه في مجال القلب. فكما أن سلامة العين شرط أساسي في رؤية الأشياء، كذلك سلامة القلب شرط أساسي في رؤية الحقائق. يقول القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾. (١)

وجاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «القلب السليم الذي يلقي ربه، وليس فيه أحد سواه، وكل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط». (٢)

(١) الشعراء: ٨٨ - ٨٩ .

(٢) ميزان الحكمة: ٨ / ٢٢١ .

والقرآن الكريم يركز على هذا فيقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. (١)

ويقول: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (٢)

ويقول: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (٣)

كان هذا في جانب سلامة القلب كشرط أساسي في رؤية الحق، أما في وجود النور في القلب، فنقول: إنه كما أن وجود النور شرط أساسي في رؤية العين للأشياء المادية، كذلك وجود النور في القلب يعتبر شرطاً أساسياً في رؤية القلب للأشياء الروحانية والمعنوية، وللحقائق.

على أن الإيمان وحده هو الذي يشعل القلوب بالنور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾. (٤)

وهذا النور هو الذي يجعل الإنسان مؤمناً ناجحاً في حياته معتزاً بكرامته رافعاً رأسه مفتخراً بسلوكه مميزاً بين الناس يشار إليه بالأصابع. ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾. (٥)

ولمن يريد أن يلتمس هذا النور عليه أن يتوجه إلى بيت فاطمة

(١) الرعد: ٢٨ .

(٢) الشعراء: ٨٩ .

(٣) الصافات: ٨٤ .

(٤) النور: ٤٠ .

(٥) الأنعام: ١٢٢ .

الزهراء عليها السلام لأن النور هنالك تجده كما دلت على ذلك سورة النور في آية النور في المشكاة التي هي فاطمة والمصباح الأول الحسن والمصباح الثاني الحسين عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام ولا نور لمن لا يدق باب فاطمة عليها السلام.

على أن في آية النور أنواراً تضيء لنا الطريق الواضح إلى بيت فاطمة عليها السلام، ذلكم البيت الذي أذن الله له أن يرفع ويذكر فيه اسمه وهو البيت الذي اطعم المسكين واليتيم والأسير في كيفية خاصة، وأسلوب عظيم سجلته السماء بماء الكوثر فوق جباه الحور.

١- الكافي: علي بن محمد ومحمد بن الحسن، عن سهل بن زياد، عن محمد بن الحسن بن شمون، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن عبد الله بن القاسم، عن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة» فاطمة عليها السلام «فيها مصباح» الحسن «المصباح في زجاجة» الحسين «الزجاجة كأنها كوكب دري» فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا «يوقد من شجرة مباركة» إبراهيم عليه السلام «زيتونة لا شرقية ولا غربية» لا يهودية ولا نصرانية «يكاد زيتها يضيئ» يكاد العلم ينفجر بها «ولو لم تمسسه نار نور على نور» إمام منها بعد إمام «يهدي الله لنوره من يشاء» يهدي الله للأئمة من يشاء «ويضرب الله الأمثال للناس»، قلت: «أو كظلمات» قال: الأول وصاحبه «يفشاه موج» الثالث «من فوقه موج» ظلمات الثاني «بعضها فوق بعض» معاوية لعنه الله وفتن بني أمية «إذا أخرج يده» المؤمن في ظلمة فتنتهم «لم يكديراها ومن لم يجعل الله له نورا» إماما من ولد فاطمة عليها السلام «فما له من نور»

إمام يوم القيامة. وقال في قوله: «يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم»: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة. (١)

٢- الكافي: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن منصور بن يونس، عن بريد قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» فقال: «ميت» لا يعرف شيئاً و «نوراً يمشي به في الناس»: إماما يؤتم به «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» قال: الذي لا يعرف الإمام. (٢)

(١) الكافي: ج ١ / ١٩٥ ح ٥٠ .

(٢) الكافي: ج ١ / ١٨٥ ح ١٣ .

الفكرة الحادية عشرة:

فضيلتا ابن آدم الحضاريتان

البشر صنفان: حضاري، واستبدادي والإنسان بطبيعته يولد ولادة حضارية، بمعنى أنه يأتي مزوداً بوسائل وأدوات حضارية تساعد على أن يبني نفسه بناءً حضارياً ويصنع من نفسه مخلوقاً ريانياً لا يهن ولا ينكل ولا يضعف، فإذا برزت نقاط الضعف في شخصيته، سيطر عليها أسباب القوة في إيمانه بالله.. ودائماً الحسنات أقوى من السيئات، وكيد الشيطان ضعيف، هذا بالإضافة إلى أن الله لم يجعل للشيطان على العباد سلطاناً، ولا سبيلاً: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١).

وهذا استثناء يؤكد القاعدة.. فالقاعدة تقضي بعدم سيطرة الشيطان على الإنسان إلا إذا سمح الإنسان ذاته بأن يكون ألوبة بيد الشيطان، أما إذا كان مؤمناً ذا إرادة قوية فإن الشيطان لا طريق له عليه ولا على الناس أبداً.

المهم أن ندرك أن الإنسان يجيء إلى الدنيا مزوداً بوسائل وأدوات الحضارة، فهو يملك عقلاً ومنطقاً، وقدرة على الوعي والرشد.. و طاقة على استيعاب الأمور، وهذه خاصية انفرد بها ابن آدم دون سائر الكائنات.

(١) الحجر: ٤٢ .

يقول الإمام علي عليه السلام: «لابن آدم فضيلتان: عقل ومنطق، فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد». عقل لأخذ العلم.. ومنطق لنقل العلم إلى الآخرين.. ومن هنا نجد فطرة الإنسان قائمة على هذا الترتيب فهو يتمتع بعينين ولسان وشفقتين.. العينان للقراءة، واللسان والشفقتان للنطق.. ولأن القراءة تعني غذاء العقل، فإنها تعتبر من أبرز أدوات الحضارة، بل القراءة والكتابة، والقلم، والبيان والخطابة هذه كلها تشكل أبرز وأقدر أدوات وأسباب نشأة الحضارة الإنسانية، وتكوين الإنسان الحضاري الذي يستطيع حمل الأمانة بصدق وإخلاص دون كذب ولا خيانة.

ولأن الدين دين الفطرة، والإنسان مولود على الفطرة، والفطرة هي الحضارة، فإنه لا بد من الموافقة بين مناهج الدين وتركيبه الإنسان. وهنا نجد الإسلام يبدأ بأهم ركيزة حضارية في الإنسان وهي القراءة إنه لا يبدأ من الصلاة، ولا من العبادة ولا من أي شعيرة أخرى وإنما يبدأ من القراءة التي تشكل أساس البناء الحضاري في النفس، وفي المجتمع.

يقول القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾. (١)

(١) العلق: ١-٥ .

ثم يلفت القرآن أنظارنا إلى هذه الأدوات الحضارية في الإنسان فيقول: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾. (١)

وإذا كان غذاء البدن من مصادر لا خطأ فيها وهي النبات والشجر، فإن الروح والعقل أعظم من البدن، فيجب أن يكون الغذاء من مصدر معصوم ليس فيه خطأ ولا غلطاً وهذا الذي نسمعه من فاطمة الزهراء عليها السلام وهي تقول: « أيها الناس اعلموا أنني فاطمة وأبي محمد أقول حقاً عوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً.. ».

بحار الأنوار: الطالقاني، عن الجلودي، عن عبد الله بن محمد، عن العباسي، عن محمد ابن هلال، عن نائل بن نجيج، عن عمرو بن شمر، عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ (٢) قال أما الشجرة فرسول الله ﷺ، وفرعها علي عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وثمرها أولادها عليهم السلام، وورقها شيعتنا، ثم قال عليه السلام: إن المؤمن من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة، وإن المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشجرة ورقة. (٣)

(١) البلد: ٨-٩ .

(٢) إبراهيم: ٢٤ - ٢٥ .

(٣) بحار الأنوار: ج ١٦ / ٣٦٣ ح ٦٥ .

أحاديث شريفة في ذكر الله سبحانه

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١).

النبي ﷺ: «ليس عمل أحب إلى الله ولا أنجى لعبده من كل سيئة في الدنيا والآخرة، من ذكر الله». قيل: ولا القتال في سبيل الله؟ قال: «لو لا ذكر الله لم يؤمر بالقتال».

- «إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً، وصحتي فكراً، ونظري عبدة».

علي عليه السلام: «ذكر الله جلاء الصدور، وطمأنينة القلوب».

- الذكر لذة المحبين.
- الذكر مجالسة المحبوب.
- طوبى لمن صمت إلا بذكر الله.
- ذكر الله شيمة المتقين.
- ذكر الله سجية كل مؤمن.
- من وصايا أولاده الحسن عند مماته قوله: وكن لله ذاكراً على كل حال.

(١) الرعد: ٢٨.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. (١)

- من اشتغل بذكر الله، طيب الله ذكره.

- الذكر ذكران: ذكر عند المصيبة، حسن جميل، وأفضل من ذلك
عندما حرم الله فيكون ذلك حاجزاً...».

علي عليه السلام: من عمر قلبه بدوام الذكر، حسنت أفعاله في السر
والجهر.

- حلاوة الذكر قوة الأرواح، ومفتاح الصلاح.

- ذكر الله قوت النفوس، ومجالسة المحبوب.

- الذكر حياة القلوب.

النبي صلى الله عليه وآله: «بذكر الله تحيى القلوب، وينسيانه موتها...».

علي عليه السلام: من ذكر الله سبحانه أحيا قلبه ونور عقله.

- عليك بذكر الله فإنه نور القلوب.

- الذكر نور ورشد، والنسيان ظلمة وفقد.

- عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

- ذكر الله دواء إعلاء النفوس.

- ذكر الله ينير البصائر ويؤنس الضمائر.

- الذكر مفتاح الأنس.

(١) آل عمران: ١٩١.

- ذكر الله مؤانسة..

- ذكر الله مطردة الشيطان.

- الذكر أمان من النفاق.

- من أكثر ذكر الله فقد برأ من النفاق.

النبي ﷺ: « من أكثر ذكر الله أحبه ».

- ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا خسر عليها يوم القيامة.

- عليكم بتلاوة القرآن، وذكر الله كثيراً فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض.

علي عليه السلام: «المؤمن دائم الذكر كثير الفكر».

الصادق عليه السلام: ما من شيء إلا وله حدّ ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه، فرض الله عزّ وجلّ الفرائض فمن أدّهن فهو حدّهن... إلا الذكر فإن الله عزّ وجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

وهذه الخصال والصفات كلها قد جمعت في الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء . سلام الله عليها .، ولهذا كانت إذا جنّ عليها الليل دلفت إلى محرابها متهجدة في دعاء وصلاة تضرع إلى الله عزّ وجلّ وكانت تدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تذكر نفسها بالدعاء وحين تسأل عن ذلك تقول: « الجار ثم الدار ». فيا لها من عظمة ما أعظمها وأرفع قدرها صلوات الله عليها عدد ما أحاط به علم الله.



النظرية الاجتماعية في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. (١)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾. (٢)

* النظرية الاجتماعية في الإسلام:

بادئ ذي بدء، لابد أن نستشف روح الإسلام ونستوعب مفاهيمه التي جعلنا نحيا سعداء وأحراراً. فالإنسان الذي فقد الحرية والسعادة يعيش في ذل وهوان وحرمان، وهذا ما يرفضه الإسلام.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يعيش سعيداً حراً، لا سلطة عليه ولا سيطرة إلا لله سبحانه وتعالى. فما هي حدود هذه الحرية، وما هو لونها وطعمها؟ هذا ما يتوضح لنا من بحث هذه الآية المباركة واستجلاء الفكرة التي تطرحها علينا.

ولتوضيح هذه الفكرة، لابد لنا من مقدمة تتناول النظرية الاجتماعية في الإسلام.

إن علم الاجتماع في الإسلام، يقوم على نظرية لابد لكل مسلم من

(١) الحجرات: ١٠ .

(٢) النساء: ٥٨ .

معرفتها، لأنه يعيش في مجتمعات متنوعة، تتباعد في أمور وتتقارب في أخرى، بالإضافة إلى مجتمعه الإسلامي. فما هي نظرة الإسلام إلى المجتمع؟

إن الإسلام ينظر إلى المجتمع كجسم واحد وليس كأفراد.

ولهذا الجسم روح واحدة وقلب واحد. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «المؤمنون في توادهم وتراحمهم، مثلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي هذا الحديث الشريف تأكيد على وحدة الجسم الاجتماعي وتناغم وانسجام أعضائه بالتواد والتراحم.

وهكذا عندما تصفع إنساناً على خده مثلاً، لا يقال أنك اعتديت على خده، بل يقال أنك اعتديت على شخصه ككل. لأن الجزء الذي وقع عليه العدوان يمثل الكيان كاملاً.

فالعدوان الذي يقع على الفرد هو عدوان على المجتمع بأسره. والخير الذي يصيب الفرد هو خير للمجتمع كله. ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١).

فمن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل جميع الناس، ومن ظلم فرداً فكأنما ظلم المجتمع بأسره. والعكس صحيح.

(١) المائدة: ٣٢ .

* قيمة النظرية بتطبيقها:

إن قيمة النظرية أية نظرية، إنما هي بتطبيقها. وما قيمة نظرية لا يمكن تطبيقها؟ إنها مجرد بناء نظري لا قيمة عملية له. وما هو أمرٌ وأدهى، هو فشل النظرية لدى تطبيقها وما يخلفه ذلك الفشل من خيبة مريرة وإحباط فظيع. وهذا يصدق على النظريات الماركسية والوجودية والإلحادية عموماً. لماذا فشلت هذه النظريات؟

لقد فشلت هذه النظريات لأنها منافية للفطرة الإنسانية. إن النظرية الوجودية، وفيلسوفها الفرنسي جان پول سارتر، لم تعرف التطبيق على صعيد اجتماعي لاستحالة ذلك. لأن تطبيقها يعني تحويل المجتمع إلى مجموعة من البهائم والأمراض والعقد النفسية. أما النظرية الماركسية وفيلسوفها اليهودي الألماني كارل ماركس، فكلنا نعرف الفشل الذريع الذي آلت إليه. فبين عشية وضحاها انفرط عقد النظام الشيوعي وتفرق أصحابه أيدي سبا، يقتل بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض.

أما الإسلام، وبالرغم من ابتلائه في فترات من تاريخه، بحكام ليسوا من الإسلام في شيء، وبالرغم من مؤامرات اليهود ودسائسهم وتسلبهم أحياناً إلى صفوفه، فقد ظل حياً مشرقاً في النفوس المؤمنة تطبق نظرياته وتعيشها بالممارسة اليومية منذ ما يزيد على خمسة عشر قرناً. وما ذلك إلا لأن الإسلام قائم على الحق والعدل والعلم. فهو دين الفطرة الإنسانية، وكل ما فيه متناغم ومنسجم معها. وهو يتوجه إلى العقل والقلب معاً. لذلك فإن المجتمعات التي طبقت الإسلام عاشت سعيدة فائزة بالدنيا والآخرة. أما المجتمعات التي

انحرفت عنه أو ازورت، فقد عاشت في أمراض جسدية ونفسية لها بداية وليس لها نهاية. وكلنا نعرف معاناة الغرب من تلك الأمراض التي تفتك به فتكاً ذريعاً.

والتاريخ يشهد على أن الأمة الإسلامية، كانت سيدة العالم، ومنبع العلم والنور يوم التزمت بالإسلام. أما عندما تخلت كجماعة عن الإسلام، أو انحرفت عنه، فإنها انحدرت إلى حضيض الذل والتمزق والجهل. وهي لن تعود إلى سابق وحدتها وعزتها وإشعاعها الحضاري؛ إلا بالعودة إلى الالتزام بالإسلام نظريةً وتطبيقاً. فقيمة النظرية بتطبيقها.

* الإسلام يؤاخي بين المسلمين:

ليست وحدة المجتمع كلمة تقال، ولا شعارات تكتب وتقرأ، وإنما هي ممارسة تتطلق من القلب.

إن الرسول الأكرم، عندما دخل المدينة، وجد أهلها من الأوس والخزرج متنافرين متناحرين، يتريصون شراً بعضهم لبعض، وقل ذلك بالنسبة لسائر الجزيرة العربية، حيث التغاзи والسلب والنهب والقتل والثأر، وما يخلفه كل ذلك من أحقاد وإحن. تقوم الحروب بين القبائل وتستمر لعشرات السنين، تسيل فيها الدماء أنهاراً، وتنتهك الأعراض وتتهب الأرزاق بذرائع لا يقبلها عاقل.

فحرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان وقد دامت ما يزيد على أربعين سنة، سببها الخلاف على نتائج السباق بين فرسين هما داحس

والغبراء. وحرب البسوس بين تغلب وبكر سببها نحر ناقة البسوس.
وقد دامت هذه الحرب ما يزيد على خمسين سنة.

جاء الإسلام وجزيرة العرب على تلك الحال من الفوضى والتقاتل
والتنافر. فكان من أبرز أوجه عظمته واعجازه، أنه وحد القبائل
والعشائر والناس جميعاً وأخى بينهم.
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. (١)

وأحل النظام محل الفوضى والتراحم والتواد محل التقاتل والتناحر
والإيثار محل الأنانية. فصار الواحد، وهو يعاني من سكرات الموت وقد
جف حلقه، يؤتى إليه بالماء، فيؤثر به أخاه الجريح الذي يصرخ قائلاً:
« اسقوني.. اسقوني، إنني أموت عطشاً ». حتى إذا جاؤوه بالماء أثر به
أخاً ثالثاً يشكو من العطش . حتى إذا جاؤوا بالماء للثالث رفض أن
يشربه لأنه يؤثر على نفسه أخويه الآخرين. فماتوا جميعاً عطشانين.
علماً بأن شعارهم قبل الإسلام كان: « إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر ».

فالمسلم الحق لا ينفك يفكر بالفقراء والمساكين وسائر المحتاجين.
يطرق أبوابهم ويحمل إليهم ما تيسر من غذاء وكساء ودواء ومال. يفعل
ذلك دون أن تدري يسراه ما فعلت يمينه.

المسلم الحق لا ينفك يفكر بذوي رحمه وجيرانه، فيتفقدتهم ويصلهم
برفده إن كانوا بحاجة إليه، وبحبه وتواده وهو ما لا يستغني عنه
إنسان.

(١) الحجرات: ١٠ .

* الإسلام ييسر الزواج:

إن الجاهلية قبل الإسلام، لا تختلف في موضوع الزواج عن الجاهلية في القرن العشرين، وربما في القرن الواحد والعشرين. فالجاهلي، وبغض النظر عن القرن الذي يعيش فيه، يرفض أن يزوج ابنته لمن يراه دونه اجتماعياً وعائلياً. ومن المؤسف حقاً أن التفكير العشائري الجاهلي لا يزال حياً في بعض النفوس التي أسلمت ولما يدخل الإيمان إليها. يأتي الخاطب، فلا يسأله الأب عن خلقه وتقواه، وإنما يسأل عن ماركة سيارته، وعما إذا كان يسكن دارة (فيلا) أو شقة. وما هو مقدار رصيده في البنك؟ وهكذا قد تبقى البنت في بيت أبيها وتصبح عانساً، لأن أباهما رفض أن يزوجها إلا بمقاييس لا تمت إلى الدين بصلة.

إن الإسلام يرفض الاعتبار الجاهلية في الزواج. والمقياس الوحيد الذي يقره الإسلام هو مقياس الخلق والدين. وعندما أراد الرسول ﷺ أن ينسف المفاهيم الجاهلية في الزواج، أمر أن تزوج الزلفاء وهي أجمل فتاة في المدينة من أفقر شاب فيها. وقد اعتبر أبو الزلفاء أمر الرسول ﷺ بتزويج ابنته من ذلك الشاب شرفاً وبركة.

كما أن الرسول الأعظم قرر أن يبطل المغالاة في المهور، فزوج ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الإمام علي عليه السلام بمهر لا يزيد على خمسمائة درهم. فهلا يتعظ أولئك الآباء الذين يغالون في مهور بناتهم حتى التعجيز؟!

إن الإسلام ليس نظريات تنظر ولا كلمات تقال، وإنما هو ممارسة وتطبيق. فما أن نزلت آية الحجاب، وتلاها الرسول ﷺ على مسامع

المؤمنين، حتى التزمت نساء المسلمين بالحجاب لأن الله أمر به،
والرسول بلغ الأمر.

هكذا تحول العرب من شعوب وقبائل بدوية في معظمها همها القتل
والسبي والسلب والنهب، والصراع على الماء والكلاً، إلى أمة تبتدع
الحضارة وتعلمها، إلى أمة موحدة تحمل الإسلام والقرآن ونورهما إلى
أرجاء الدنيا. وإذا بالشعوب تتهل من حضارة الإسلام وقيمه، وتستتير
بنوره وحكمته.

املاً الأرض يا محمد نورا واغمر الناس حكمة والدهورا
ويكون المسلمون بذلك كله خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. (١)

* الإسلام يربط بين القلوب بالمحبة:

لقد ربط الإسلام القلوب وشدها بعضها إلى بعض بالتواد والتراحم
والمحبة. فالمال لا يربط بين القلوب، فإذا ما رأيت إنساناً يحترمك
ويركض وراءك طمعاً في مالك، فما أن يزول مالك حتى يتلاشى
احترامه لك وتودده إليك. فالاحترام القائم على المال يرتبط به وجوداً
وعدماً. قال أبو فراس الحمداني:

(١) آل عمران: ١١٠ .

ومن ذا الذي يبقى على العهد؟ إنهم وإن كثرت دعواهم لقليل
أقلب طرفي لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء حيث تميل
فالمال الذي يجمع القلوب بوجوده، يفرقها بزواله.

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ
بَيْنَهُمْ﴾ (١).

بماذا ألف بينهم؟ لقد ألف بينهم بالإيمان. والإيمان يقوم على
المحبة. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ حَبِّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٢).

لاحظ الروعة والدقة في التعبير القرآني، فالله تعالى يحب الإيمان
إلى المؤمنين ويزينه في قلوبهم.

وقل ذلك بالنسبة للذي يحترمك لأنك من أصحاب الكراسي
والمناصب. فما أن تنزل عن الكرسي وينزع المنصب منك حتى يقلب لك
ظهر المجن. فالكرسي الذي يضمن استمرارية الاحترام والود لك، هو
الكرسي الذي تقيمه لك في قلوب الناس وليس على رقابهم.

فالحجاج بن يوسف حكم العراق عشرين سنة، ولأنه أقام كرسيه
بالظلم والطغيان، فإنه ملعون ما ذكر. وقل ذلك بالنسبة ليزيد بن
معاوية، ولهارون الرشيد الذي لم يكن برشيد. لقد اتسع ملك الرشيد،

(١) الأنفال: ٦٣ .

(٢) الحجرات: ٧ .

والملك لله، حتى خاطب السحابة قائلاً: «أمطري حيث شئت فخراجك عائد إلي». لكن الدنيا غرته فأخذته العزة بالإثم فنكل بالصالحين والمؤمنين حيثما وجدوا. وأبرز شاهد على ذلك سجنه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عشرين سنة! فأين الحجاج ويزيد بن معاوية والرشيد وسائر الطغاة؟ لقد عفى عليهم الزمن وطوتهم مجاهل التاريخ. وصح فيهم قول الشاعر:

عليهم لعنة التاريخ ما بقيت رجل لطاغية في الأرض تنتقل

أما كرسي الإمام الحسين عليه السلام وما تعنيه من تقديس ومحبة وبركة، فإنها خالدة على مر العصور، بالرغم من الأعاصير والأضاليل. إنها خالدة لأنها قائمة في قلوب الجماهير في كل زمان ومكان. في الحر وفي القر، في البوادي وفي الحواضر، من بوادي العرب إلى مجاهل أفريقيا. ومن بطاح مكة إلى أقاصي آسيا وأوروبا وأميركا. لماذا؟ لأن الإمام الحسين عليه السلام صوت الحرية والعدالة والكرامة. فحيثما ذهبت تسمع صرخة «يا حسين» على شفة كل مظلوم ومحروم ومضطهد ومستضعف. وقضية الإمام الحسين عليه السلام، لم تعد قضية الإسلام الكبرى فحسب، بل أصبحت قضية الشعوب كل الشعوب، وعلى مر الأجيال.

* ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾:

والاعتصام بحبل الله إنما يكون بالقلوب. ولا سبيل إلى الوحدة إلا بهذا الاعتصام. وحبل الله يتمثل بالقرآن وبالرسول وبالسنة، وكل ذلك

يتكثف ويتركز في الإمام المعصوم. وقد جاءت كلمة (حبل) لأن الإنسان يستطيع أن يرفع نفسه به.

إذن، الاعتصام بحبل الله وحدة ورفعة، وإفلاته فرقة وضعة. والفرقة تؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الدمار والهلاك. ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. (١)

فشرط منعة المسلمين وعزتهم: الوحدة. وشرط الوحدة: الاعتصام بحبل الله. فالمسلمون إخوة في الإسلام. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. (٢)

يحكمهم في ذلك قلب مؤمن وعقل مستتير. والأخوة بين المؤمنين لا تقوم وتستمر إلا بالتواد والتراحم والعدل. إن على صعيد الأسرة، وهي الخلية الأساس في المجتمع الإسلامي. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. (٣)

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾. (٤)

فالتواد والتراحم والعدالة أساس العائلة الإسلامية.

وإن على صعيد الجماعة، قال الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا»

(١) الأنفال: ٤٦ .

(٢) الحجرات: ١٠ .

(٣) الروم: ٢١ .

(٤) النساء: ٣ .



ضارياً تفتتم عقولهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق».

إن الله تبارك وتعالى حريص على وحدة المؤمنين وتربط قلوبهم لإحلال الأخوة محل العداوة. وبينما تؤدي الأخوة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فإن التنازع والعداوة يؤديان إلى الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

* تأدية الأمانات أمر من الله:

فلا بد من رد الأمانة إلى صاحبها، حتى ولو كان كافراً.

يوم فتح الرسول ﷺ مكة، كان مفتاح الكعبة مع عثمان بن عبد الدار فلما طلب المسلمون المفتاح من عثمان، رفض أن يسلمهم إياه وصعد إلى سطح الكعبة واعتصم به قائلاً: «لا أسمح لكم بدخول الكعبة لأن فيها آلهتنا» قال له الإمام علي عليه السلام: «ناولني المفتاح يا عثمان لنفتح الكعبة للرسول». وكان عثمان كغيره، يعرف بأس الإمام علي عليه السلام فأعطاه المفتاح. فدخل الرسول ﷺ إلى الكعبة وأخذ يحطم أصنامها مردداً قوله جل القائل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٢).

(١) آل عمران: ١٠٣ .

(٢) الإسراء: ٨١ .



فلما وصل إلى هُبل لم يستطع الوصول إلى رأسه لأنه كان أعلى الأصنام. والإمام علي عليه السلام على قوته الخارقة لا يستطيع أن يحمل النبي لأن فيه ثقل النبوة. ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (١).

فحمل الرسول ﷺ الإمام علياً عليه السلام ورفعاه فحطم رأس هبل بفأس كان بيده، ثم دفعه فهوى إلى الأرض. بعد أن تم تحطيم الأصنام قال الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أصحابها». فأخذ الإمام علي عليه السلام المفتاح وردّه إلى عثمان بن عبد الدار قائلاً: «إن الله تعالى أمرنا أن نرد مفاتيحك لك». فدهش عثمان كيف علمت السماء بالحدث وكيف نزل قوله تعالى فيه تشريعاً بالنسبة لكل الأمانات، علماً بأن المسلمين كانوا قادرين على الاحتفاظ بالمفتاح. فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

*** أهل البيت الصراط المستقيم إلى الله:**

ولم يحكم الناس بالعدل كما حكمهم أهل البيت - عليهم السلام - ، والتاريخ شاهد على ذلك.

إننا عندما نذكر أهل البيت - عليهم السلام - نجد أن القرآن والأدلة العقلية والنقلية والعلمية والمنطقية، كلها تأخذ بأعناقنا إلى آل محمد - عليهم السلام - . فهم الطريق الصحيح والصراط المستقيم إلى الله تعالى. فالإنسانية لم تعرف في تاريخها الطويل حاكماً طبق العدالة

(١) المزمّل: ٥ .



مئة بالمئة كالإمام علي عليه السلام. فعل ذلك على الرغم من الفتن التي واجهها والحروب التي خاضها ضد الناكثين والمتمردين والمنحرفين. وطالما ردد الذين تولوا الخلافة قبله: «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن». فقد كان عنده عليه السلام لكل مسألة جواب ولكل قضية حل. وقد قال عمر بن الخطاب قوله الذي ذهب مثلاً: «لولا علي لهلك عمر». ولا غرو في ذلك، أليس الإمام علي عليه السلام باب مدينة علم الرسول ﷺ الذي قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وقال الإمام علي عليه السلام: «لقد علمني الرسول ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف ألف باب».

* «علي أقضاكم بعدي»:

بهذا القول خاطب الرسول ﷺ أصحابه. والرسول لا ينطق عن الهوى. وقد أكدت القضايا والدعاوى التي نظر فيها الإمام علي، كما أكدت الأحكام التي أصدرها قول الرسول ﷺ: «علي أقضاكم بعدي». وسنكتفي ببعض الأمثلة عليها.

كان لرجل جارية يتيمة جميلة. فخافت زوجة الرجل أن يتزوج من الجارية، لذلك أخذت تتربص الفرص لتوقع بالجارية. وحدث أن سافر الزوج لبعض أموره. فانتهزت الزوجة الفرصة وأشاعت أن الجارية انحرفت وزنت. وعبأت جاراتها ضد الجارية فصدقنها. ولما عاد زوجها من السفر بادرت الزوجة بالقول: «إن اليتيمة التي أضعنا عمرنا ومالنا في تربيتها قد جلبت لنا العار والشنار بانتقالها من حضن رجل إلى حضن آخر. وأنا لا أستطيع أن أعيش مع بغي». واستشهدت بجاراتها



اللواتي أكدن للزوج صحة ما تقوله زوجته. فرفع الرجل قضية الجارية إلى عمر بن الخطاب. وجيء بالمسكينة وهي تبكي وتتأكد براءتها. وكان الإمام علي حاضراً، فالتفت إليه الخليفة عمر بن الخطاب وقال: «يا علي، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «علي أقضاكم بعدي»، فانظر في هذه القضية يا أبا الحسن وأصدر حكماً». قام الإمام علي ﷺ فاستدعى النسوة اللواتي شهدن بصحة زعم الزوجة وكنَّ عشرين. ووزعهن في أماكن مختلفة، بحيث لا يسمعن ما يدور بينه وبين من يستطلقها منهن. استدعى امرأة منهن وطرح عليها عدة أسئلة فأجابت عنها، فكبر الإمام علي ﷺ وصرف المرأة إلى مكانها. ثم استدعى الثانية، وبعد أن استطلقها كبر قائلاً للمرأة الماثلة أمامه: «أرأيت؟ الله أكبر، إن الحق واضح لا ريب فيه». فقالت المرأة: «يا أبا الحسن، الله أكبر، إن هذه الفتاة اليتيمة بريئة، ولكن جارتنا خافت أن يتزوج زوجها من هذه الفتاة، فألقت عليها هذه التهمة وعبأتنا ضدها» فصادقت بقية الجارات على قولها وحكم الإمام علي ﷺ ببراءة المتهممة. فتعجب الخليفة عمر من أسلوب الإمام علي ﷺ في الاستطاق والمحاكمة. فقال له الإمام علي ﷺ: يا عمر أنا أول من فرق بين الشهود في الإسلام. وما سبقني إلى ذلك إلا النبي دانيال. قال عمر: «وما خبر النبي دانيال بهذا الخصوص؟» قال الإمام علي ﷺ: اعلم أن دانيال النبي كان يتيماً وقد ربه امرأة من بني إسرائيل. وكان في زمن دانيال ملك وكان للملك صديق حميم له زوجة مؤمنة عابدة جميلة. أراد الملك رجلاً يبعثه في مهمة، فأشار عليه القضاة أن يبعث صديقه الحميم زوج تلك المرأة. وأكدوا له أن لا أحد يستطيع القيام بهذه المهمة كما يقوم بها ذلك الصديق. فاستدعى الملك صديقه وكلفه بالمهمة.



قبل أن يسافر الرجل في المهمة ذهب إلى قاضيين كبيرين من قضاة المملكة وقال لهما: «إن زوجتي أمانة في عنقيكما ريثما أعود من مهمتي». ثم سافر بعد أن وعده القاضيان بالسهر على شؤون زوجته في غيابه. كانت الزوجة الجميلة العابدة تستقبلهما مطمئنة إليهما. إلا أن الشيطان طغاهما فراوداهما عن نفسها. فأبت وامتنعت، فهدداها بأن يشهدا عليها بالزنا وعقوبته الرجم حتى الموت. فقالت لهما: «إنني أفوض أمري إلى الله. ولن أتخلى عن عفتي وشرفي، فافعلا ما طاب لكما». فذهب القاضيان للملك وقالاه: «إن زوجة صديقك قد بغت وزنت، فانظر ما أنت صانع في أمرها». تأثر الملك كثيراً لأنه كان يحترم زوجة صديقه ولا يريد أن تسوء سمعتها وهي المعروفة بعفافها وتقواها. فقال للقاضيين: «سأصدر حكمي في شأنها بعد ثلاثة أيام». بعد ذلك استدعى وزيره فأخبره بالأمر وطلب أن يجد له مخرجاً عادلاً. قال له الوزير: «ليس عندي مخرج يا مولاي، ولكنني سأحاول أن أجد للأمر مخرجاً». ثم مضى إلى ظاهر المدينة فرأى صبية يلعبون معهم دانيال النبي الذي كان ما يزال صبيّاً.

فوقف يتأملهم، وإذا بدانيال يقول لأترابه: تعالوا نشكل محكمة نحاكم امرأة متهمة بالزنا من قبل قاضيين. وأنا القاضي الذي ينظر في الدعوى. ثم اختار صبيين من رفاقه ليلعبا دور القاضيين اللذين اتهما المرأة بالزنا. واختار صبيّاً ليلعب دور المرأة المتهمّة. وكلف بقية الصبيان بأن يلعبوا دور الشرطة القضائية وقال لهم: استدعوا المرأة لتمثل أمامي، وخذوا القاضيين اللذين يتهمانها فاعصبا عيونهما وضعوهما في مكان لا يسمعان فيها كلامي. ففعلوا ما طلبه إليهم.

فاستدعى القاضي الأول وسأله متى رأى المرأة تزني وأين ومع من. وبعد أن استمع إليه أمر بإعادته إلى مكانه واستدعى القاضي الثاني وسأله كما سأل القاضي الأول فجاءت أقواله مختلفة عن أقوال القاضي الأول. فقال للصبيان إن القاضيين يكذبان. ولذلك فإنني أحكم ببراءة المتهم وإعدام القاضيين.

لما رأى الوزير وسمع كل ذلك عاد فوراً إلى الملك وأخبره بما رأى وسمع. فاستدعى الملك القاضيين اللذين اتهما زوجة صديقه وحاكما كما حاكم دانيال النبي الصبيين اللذين مثلا دور القاضيين، فوصل إلى نفس النتيجة التي توصل إليها دانيال النبي فحكم بإعدام القاضيين المفتريين وببراءة المرأة العفيفة الشريفة. وأعدم القاضيان أمام الجماهير ليكونا عبرة لمن يعتبر.

و ذات يوم وعندما دخل الإمام علي عليه السلام مسجد الكوفة، رأى شاباً يبكي. فقال له: «ما خطبك يا بني؟» قال الشاب: «لقد ظلمني شريح القاضي». قال الإمام عليه السلام: «وكيف ذلك؟» قال الشاب: حمل أبي أمواله وذهب في سفر للتجارة بصحبة سبعة رجال. وبعد مدة عاد الرجال ولم يعد أبي معهم. فلما سألتهم عنه، أخبروني أنه مات في الطريق. فسألتهم عن أمواله، فقالوا أنهم لم يجدوا معه شيئاً، فرفعت أمرهم إلى القاضي شريح، ولما لم يكن عندي بيّنة فقد حكم ببراءتهم. فاستدعى الإمام علي القاضي شريحاً وسأله عن الأمر. فقال له القاضي شريح إن الشاب لم يقدم بيّنة على أن أباه كان يحمل مالاً فحكمت ببراءة المتهمين. قال الإمام عليه السلام: «سأحكم في القضية حكماً لم يسبقني إليه إلا دانيال وداوود». ثم أمر الشرطة بإحضار المتهمين



السبعة، وأمر أن يربطوا إلى أعمدة متباعدة من أعمدة المسجد، كما أمر بأن يغطى رأس كل منهم بملاءة سوداء بحيث لا يرى ولكنه يسمع.

واستدعى عبد الله بن أبي رافع ليكون كاتب الجلسة. وبعد أن تم كل ذلك استدعى واحداً من المتهمين وأخذ يستنطقه، في أي يوم خرجتم؟ في أي موضع نزلتم؟ أية طريق سلكتم؟ متى وأين مات أبو الشاب؟ من كفنه؟ من صلى عليه؟ من أنزله في قبره؟ بعد الانتهاء من الأسئلة والأجوبة، هتف الإمام عليه السلام قائلاً: «الله أكبر». فسمع بقية المتهمين التكبير، وحسبوا أن صاحبهم قد اعترف بقتلهم لوالد الشاب. أمر الإمام عليه السلام بإعادة المتهم الأول إلى موضعه، واستدعاء متهم ثان. فما كاد هذا يمثل أمام الإمام عليه السلام حتى اعترف بأنه ورفاقه الستة قتلوا والد الشاب واقتسموا أمواله. ذهل القاضي شريح من أسلوب الإمام عليه السلام في المحاكمة والتحقيق.

بعد يومين جاء القاضي شريح إلى الإمام علي عليه السلام وقال له: «يا سيدي ومولاي، إن عندي قضية لم أجد لها مخرجاً». قال الإمام عليه السلام: «وما هي هذه القضية؟» قال القاضي: «لقد جاءني رجل اشتكى على أحدهم وادعى أنه ضربه على أم رأسه ضربة أفقدته الشم والنطق والنظر بإحدى عينيه. وأنا حائر في أمري، ولا أعرف كيف أتحقق من ادعاءات هذا الرجل».

قال الإمام عليه السلام: «القضية سهلة وواضحة يا شريح». قال القاضي: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟» قال الإمام عليه السلام: «ليستين لك أمر عينه، تأمره بأن ينظر بها إلى الشمس، فإن دمعت واضطربت فهي سليمة وهو كاذب. وإن ظلت مفتوحة لا تدمع ولا تضطرب فهي عمياء وهو

صادق. أما بالنسبة للشم فأدن من أنفه حرقاً. فإذا كانت حاسة الشم سليمة، فإن رائحة الحرق تنتقل إلى الدماغ فتدمع العين. ويكون المدعي كاذباً. أما إذا لم تدمع عينه فحاسة شمه معطلة وهو صادق.

وأما بالنسبة لنطقه فخذ لسانه بإبرة فإذا خرج منه دم أحمر فلسانه سليم وهو كاذب، وإذا خرج منه دم أسود فلسانه معطل عن النطق وهو صادق».

فلننتبه للأبعاد العلمية لكلام الإمام علي عليه السلام. مثلاً، للسان وظيفتان كما تعلمون وظيفة الذوق ووظيفة النطق. وبينما تنشط الدورة الدموية في لسان الناطق فإنها تضعف في لسان الأخرس. ولذلك يكون الدم في لسان الناطق أحمر قانياً، بينما يكون في لسان الأخرس أسود متخثراً. ترى ماذا يقول علماء اليوم وأطباؤه وعباقرته عندما يعرفون أن الإمام علياً عليه السلام توصل إلى هذه الحقائق العلمية وبدون مختبرات وكمبيوترات قبل ما يزيد على ألف وثلاثمائة وخمسين سنة؟ لا شك أنهم سيقفون إجلالاً لهذه العبقرية الفذة وهذا الدين العظيم الذي جاد على البشرية بهذه العبقرية الفذة.

* أهمية الكتاب والمكتبة:

هذا عجز بيت لأبي الطيب المتنبّي يقول فيه:

أعز مكان في الدنى سرح سابع وخير جليس في الأنام كتاب
والسابع هنا هو الجواد السريع الذي يعدو كأنه يسبح في الهواء
سباحة.



وقال أبو عثمان الجاحظ في مقدمة كتاب «الحيوان»: «الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، والمشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً...» وبعد أن يطنب في ذكر محاسن الكتاب وتفصيل أهميته، يختم بالقول: قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾. (١)

فوصف نفسه تبارك وتعالى بأن علم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتد ذلك في نعمه العظام وفي أياديه الجسام.

فكم واحد منا قرأ هذا القول وقدره حق قدره؟ من المؤسف أن نهتم بالمكاتب الفخمة، ولا نغير أي اهتمام للمكتبات العامة بكتب العلم والأدب والتربية مما لا يناقض جوهر الإسلام وروحه. إن البيت الذي لا مكتبة فيه مظلم مهما أضيء فيه من ثريات ومصابيح. وهو قفر بلقع مهما كان فيه من وسائل الراحة والتسلية. إن الكتاب وحده ينير البيوت والعقول. وعلى المكتبات تبني الحضارة ويقوم التمدن. وبها وفيها يزدهر ويتفتح الفكر. ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾. (٢)

(١) العلق: ٣-٤ .

(٢) الرعد: ١٧ .

* أوقفوا هذه المجزرة:

إنها مجزرة الأخلاق والقيم، وسلاحها التلفزيون. طبعاً التلفزيون بحد ذاته ليس هو المشكلة، وإنما المشكلة هي في استعمال هذا الجهاز. فهو كالكأس مثلاً، يمكن أن تضع فيه ماءً فراتاً حلالاً، ويمكن أن تضع فيه خمر. وقد تضاعف خطر التلفزيون بالأجهزة اللاقطة التي تصل الجهاز بمئات من محطات البث بواسطة الأقمار الصناعية. وتقوم الشركات المعنية بتركيب جهاز لاقط على سطح البناية، حيث يتهافت سكان هذه البناية على الاشتراك في هذا الجهاز (الدش)، فيتدفق عبره إلى بيوتهم سيل من البرامج المنافية للحشمة والآداب الإسلامية. فالإلام هذا التسيب في العالم الإسلامي؟ إن المال إذا لم يستعمل وفقاً لمقتضيات التقوى والإيمان عامل ضياع ودمار. وإنه لمن دواعي الأسف الشديد والاستغراب الأشد، أن ينفق المرء ماله ليدخل على بناته وأبنائه فنوناً من الخلاعة والمجون تقتحم عليهم حتى غرف نومهم. وحتى الأفلام العربية التي ينفي النقاد خطرهما على الأخلاق، هي مهازل ومآس مفعمة بالعراك والسباب ومظاهر الفساد، وما إلى ذلك مما يחדش الأسماع ويفسد الأذواق، ويدمر الأخلاق.

والمعزوفة هي إياها، امرأة تقع في غرام رجل، ورجل يقع في غرام امرأة. وللتمويه يخترعون عناوين من أمثال «سبعة رجال وامرأة» و «نداء الجسد». إلى ما هنالك من عناوين ليس لها غير هدف واحد، هو إثارة الفرائز البهيمية عامة والفريزة الجنسية خاصة. وقد وقعت عيني على ما هو أمرٌ وأدهى. إنه عنوان يثير الدهشة حقاً: «امرأة تحب قرداً» والعياذ بالله. لقد ربي أحد الأزواج قرداً. فما أن ترعرع القرد وشب حتى وقعت الزوجة في غرامه، فتأمل.



قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته». إننا مسؤولون أمام الله والرسول وأهل البيت - عليهم السلام - . إننا مسؤولون أمام ضمير الأمة الإسلامية، عن تنشئة أولادنا تنشئة إسلامية صحيحة، فلا يجوز أن نتركهم فرائس سهلة للمخططات الصهيونية التي تقتحم علينا بيوتنا من حيث لا نحسب. صدقوني، إن الإسلام والمسلمين في خطر، ونحن مسؤولون عن صد هذا الخطر، ولن نستطيع ذلك ما لم نضع حداً لهذه الموجة المدمرة من الخلاعة والمجون والمخدرات والمسكرات التي تفتك بفلذات أكبادنا.

* أنر الزاوية التي أنت فيها:

إن الإسلام يحرم كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تفتيت المجتمع وبث الفرقة والتباغض، كالنميمة والغيبة والنفاق والظلم والبهتان. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

أخي المؤمن: فلتكن مجالسك كلها نوراً ومحبة، وتوادداً وتراحماً. أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، أنصر أخاك الظالم بكفه عن ظلمه. وأنصر أخاك المظلوم برفع الظلم عنه. وتذكر دائماً أن عذاب القبر في الحياة البرزخية مسبب في معظمه بالنميمة والغيبة والنفاق.

(١) الحجرات: ١٢ .

* هلاً فكرنا بالموت؟!

إننا لا نتفك تفكر بالقصور والدارات ونحن لا نلبث فيها إلا عقوداً معدودات، كثيراً ما لا تتعدى الستين أو السبعين سنة. فهلاً فكرنا بالقبر حيث نلبث ملايين السنين؟! هلاً فكرنا بملك الموت هادم اللذات؟ يقول رسول الله ﷺ: ليلة أسري بي إلى بيت المقدس، ومنها عرج بي إلى السماء، رأيت في السماء الرابعة ملكاً ينظر في سجل أمامه وقد بدا عليه الحزن والكآبة. سألت جبرائيل عنه، فأخبرني إنه عزرائيل ملك الموت. فدنوت منه وسلمت عليه، فرد عليّ السلام. قلت له: «يا ملك الموت هل تعرف كل الذين تقبض أرواحهم وحيثما يكونون؟» فقال: «يا رسول الله، إنني أقلب الدنيا في يدي كما يقلب الرجل الدرهم بيده. وما من أهل بيت، في بدو أو حضر، أو شعر أو شجر، إلا وأتصفح وجوههم في اليوم واللييلة خمس مرات. وإذا أخذت واحداً منهم وبكوا عليه، قلت لهم: لا تبكوا فإن لي فيكم عودة وعودة حتى لا أبقى منكم أحداً».

إن عزرائيل يدخل علينا بدون استئذان، وبدون أن يراه أحد. إنه يتوفى الجنين في بطن أمه. فكيف يصنع ذلك؟ أيلج عليه من أحد أعضائها وجوارحها. أم أن روح الجنين تستجيب لنداء ربها؟ أم أن عزرائيل ساكن مع الجنين في أحشاء أمه؟! يقول سيد البلغاء والمتكلمين، عبقرى الإسلام ومجتهده الأكبر بعد رسول الله ﷺ، الإمام علي عليه السلام: «أم كيف يتوفى الجنين في بطن أمه؟!»

سأل أحدهم الإمام الباقر عليه السلام قائلاً: «أصحيح أن ملك الموت يتصفح وجوهنا في اليوم واللييلة خمس مرات؟» قال الإمام عليه السلام: «بلى،

هذا حديث عن جدي رسول الله ﷺ. يا هذا أرأيت الناس يجلسون في المجلس ويتحدثون. وإذا بهم يكفون عن الحديث وتتمر عليهم لحظة سكوت وسكون؟ قال الرجل: «بلى يا بن رسول الله» قال الإمام عليه السلام: «لحظة السكوت والسكون تلك، هي اللحظة التي يتصفح فيها ملك الموت وجوه من في المجلس».

* الإنسان في سكرات الموت:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينْذَ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ (٨٨) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾. (١)

فإذا بلغت الروح الحلقوم عند الموت، فأنتم يا أهل الميت لا يمكنكم دفع الموت. وملك الموت أقرب إلى المحتضر منكم ولكنكم لا تبصرونه، فهلا ترجعون روح من يعز عليكم، وقد بلغت الحلقوم إلى موضعها ولو لثانية واحدة؟ هل تستطيعون ذلك إن كنتم غير محاسبين ومجزيين بثواب وعقاب كما تزعمون؟ فإذا لم تقدرُوا على ذلك، ولن تقدرُوا فاعلموا أنه من تقدير حكيم عليم. فإذا كان المحتضر من المقربين إلى الله، فله راحة واستراحة ورزق في الجنة. ويقال إن رسول الله ﷺ

(١) الواقعة: ٨٣-٩٦.

يجلس عند رأسه في سكرات الموت ويقدم له باقة ريحان من الجنة. أما إذا كان من أصحاب اليمين فقد سلم من العذاب، وأما إذا كان من المكذبين بالبعث والرسول، الضالين عن الهدى، فطعامه وشرابه من حميم جهنم حيث يصلى سعيراً.

اللهم اجعلنا من المقربين، اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين.

* تقبض روح الكافر بسيف من نار:

دخل رسول الله ﷺ على الإمام علي عليه السلام، فوجده يتوجع من عينيه. فقال له: أحزناً أم جزعاً تتوجع يا أبا الحسن؟ قال الإمام عليه السلام: « لا والله يا رسول الله. وإنما وجع ما توجعت مثله». قال الرسول ﷺ: «أخبرك يا علي، إن ملك الموت يقبض روح الكافر بسيف يضربه به على رأسه، فتصيح جهنم من تلك الضربة». كان الإمام عليه السلام متكئاً، فاستوى جالساً وقال: «يا رسول الله، أعد علي ما قلت، فإن الوجع صرفني عن سماع الحديث». فأعاد الرسول ﷺ الحديث. فقال الإمام عليه السلام: هل في أمتك، يا رسول الله، من يصنع بهم ملك الموت كذلك؟ قال الرسول: «نعم يا علي إنه يصنع كذلك بثلاثة: السلطان الجائر وآكل مال اليتيم بغير حق وشاهد الزور. أما المؤمن فإنه عندما يقبض ملك الموت روحه يحس كأنما نسمة هواء عليل تمر عليه، فتغفى عيناه لحظات يفتح عينيه بعدها، فيجد نفسه في جنة عرضها السموات والأرض».

خذوا العلم من القرآن، من رسول الله وأهل البيت -عليهم السلام .

اسألوا أرقى جامعات العالم، ما هي الروح؟ ما هي النفس؟ فإنكم لو فعلتم، لما سمعتم جواباً. نحن المسلمون أهل العلم بالحقائق الإلهية، أما الغربيون فلم يتعدوا حدود التطور المادي التكنولوجي.

* عليك بصلاة الليل:

ما الحياة إلا ظل زائل، فكر بقدومك على الله، وإذا كان الشيطان قد ضلك وأغواك، فتب إلى الله تعالى توبة نصوحاً. إن الله غفور رحيم. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. (١)

﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. (٢)

أخي المؤمن، عليك بصلاة الليل، فإنها تتعش القلوب. وهي إحدى عشرة ركعة. خمس مرات مثل صلاة الصبح. في المرة الخامسة منها تنوي صلاة الشفع. وبعدها تنوي صلاة الوتر وهي ركعة واحدة. تقرأ في صلاة الليل الحمد مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات أو أكثر. بعد ذلك تقرأ قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس. ثم ترفع يديك وتدعي لإخوانك المؤمنين بظهر الغيب. والدعاء لأخيك بظهر الغيب يصفى قلبك، ويساقط ذنوبك، حتى إذا فرغت من الصلاة عدت كيوم ولدتك أمك.

يقول الإمام علي عليه السلام: «منذ أن قال لي رسول الله، يا علي عليك بصلاة الليل، ما تركت صلاة الليل أبداً».

(١) الزمر: ٣٥.

(٢) يوسف: ٨٧.



القراءة والاستماع

القراءة والاستماع

في موضوع القراءة والاستماع، تأتي عدة نقاط في هذا البحث:
أولاً: بالرغم من أن أول آية نزلت على النبي قالت له: اقرأ - إلا أن الاستماع أكثر تأثيراً من القراءة، فليس كل الناس لديهم الوقت للقراءة، كما أنه ليس كل من يقرأ، يستوعب ما يقرأ ولذلك نجد أغلب الناس يفضلون الاستماع على القراءة، وذلك لانشغالهم بالأمور المعاشية، والأعمال الضرورية، في الحياة.

ثانياً: إن الاستماع، أو بتعبير آخر: إعمال حاسة السمع - يؤدي المنفعة بشكل أكبر.. وننطلق من هذه الحقيقة، وهي: أن القراءة تعطي صورة واضحة وعميقة، في مقابل الخطيب الذي يتدفق العلم من لسانه، كالشلال المنسكب.. ويمكن توضيح هذه النقطة بأن نقول: إن الخطيب المتكلم، إنما أخذ كلامه هذا عن أكثر من مائة كتاب على أقل تقدير، ثم قام بالتفاعل مع هذا العلم الجَمِّ، حتى ظهرت هذه اللآلئ من فمه عبر المنبر.. وأعطت فائدة عامة للجميع.. تفاعلت مع فطرته.. وفي قلبه وفؤاده، وروحه، وبعد ذلك انطلقت درراً في بيانه الوضاح.

ثالثاً: إن الناس الذين يحيطون بالخطيب للاستماع، ليس كلهم يجيد القراءة والكتابة، فبعضهم أمي لا يقرأ ولا يكتب.. بينما نجدهم يتساوون في القدرة على الاستماع، كما تتساوى أسنان المشط.

رابعاً: إن القراءة فيها جانب فردي، بمعنى أن الذي يقرأ، إنما يقرأ وحده، وفي معزل عن الناس، لأن الضجيج الذي يحدثه اجتماع الناس لا يسمح بالقراءة، في حين أن الاستماع يمكن أن تؤدي مع الناس جميعاً، بالإضافة، إلى أن الاستماع يؤكد الجانب الاجتماعي، ويسقي نزعة الميل إلى الاجتماع، لأن الإنسان اجتماعي بالطبع، كما قالوا.. فالذي يستمع، إنما يستمع مع الناس، وهذا لا يعني - بالضرورة أنه ليس في مقدور الشخص أن يجلس للاستماع وحده، طبعاً يستطيع أن يستمع لموعظة، أو نصيحة، من إنسان واحد فقط، وليس معه أحد.. ولكن - العادة - اقتضت أن يكون الاستماع وسط جماهير غفيرة، كما يحدث في مجالس الإمام الحسين عليه السلام أيام عاشوراء، وفي شهر صفر.. وأيام شهر رمضان المبارك، وفي بعض البلاد الإسلامية، نجد مجالس الحسين معقودة وقائمة طوال أيام السنة.

خامساً: إن نظرية الإسلام، في الاجتماع واضحة ليس عليها غبار، ويفادها: أن الإسلام يشجع اللقاء بالناس.. ويحث الناس على التزاور، والتواصل والتوادد، في الوقت الذي ينههم فيه عن التقاطع والتدابير.. كل ذلك من أجل صناعة أمة إسلامية، قوية متماسكة...

على أننا نستطيع أن نلمس روح الجماعة، في أغلب مناهج الإسلام وفي أكثر تشريعاته.. فمثلاً في العبادات، نجد عامل الاجتماع، هو العامل المقدم على بقية العوامل، ففي الصلاة.. تكون صلاة الجماعة أفضل وأهم من الصلاة فرادى.. حيث ورد في الأحاديث أن صلاة الجماعة، لا يعادلها شيء في الفضل والخير، والعطاء.. والسبب في ذلك واضح جداً، وهو أن صلاة الجماعة بالإضافة إلى كونها واجهة

دعائية كبيرة للإسلام، فإنها في الوقت ذاته، تشد الناس بعضهم ببعض، وتجعلهم كتلة واحدة، وسببها واحدة، من النور، والهدى والعطاء.. فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ هي صفوف المصلين في صلاة الجماعة، لأن الله سبحانه ينظر إليهم، بعين الرحمة، والمودة والعطاء.

* الإسلام يجمع ولا يفرق:

وما يقال في الصلاة يقال في شعيرة الصيام أيضاً، حيث نجد أن الصيام، فريضة تجمع العباد، ولا تفرقهم.. تجمعهم على نظام واحدة في بداية الطعام وفي ختام الصيام، فهم يتناولون الطعام في وقت واحد.. ويمسكون عنه في وقت واحد... ثم إن الأخبار التي جاءت في هذا الباب، باب إطعام الطعام، وإفشاء السلام.. كلها تؤكد الناحية الاجتماعية في الإسلام، حتى ورد في الحديث الشريف: «إن خير الزاد، ما كثرت عليه الأيدي». ومعنى ذلك، أن المائدة التي تكثر عليها الأيدي إنما هي مائدة محبوبة عند الله، وعند الرسول وعند أهل البيت.. كما أنها محبوبة عند المؤمنين الصالحين.. والسبب في ذلك يعود إلى الناحية الاجتماعية في هذا المجال، لأن كثرة الأيدي، على الطعام، تعني اجتماع الأخوة في مكان واحد وهذا هو الهدف - في الإسلام - من تشجيع الناس على الاجتماع، والزيارة زيارة بعضهم لبعض.. بل وحتى موضوع زيارة النبي وأهل بيته، إنما تتبع من هذا المنبع، لأن فيها أعداداً غفيرة من الناس، يتعرف بعضهم إلى بعض..

وكما في الصلاة والصيام، كذلك في الحج، حيث أن مناسك الحج،



لا تؤدى - في الأغلب - إلا وسط جماهير غفيرة، من الناس الذين جاؤوا لحج بيت الله الحرام، ليشهدوا منافع لهم.. ومن نافلة القول: إن مناسك الحج، تجمع الناس على صعيد واحد، ففي مكان أو فسحة لا تكاد تتجاوز المتر الواحد، وتجد فيها أكثر من جنسية واحدة، فهذا عربي، وذلك فارسي، وذلك اندونيسي، وهؤلاء من أفغان، وأولئك من الأتراك.. وتلك الحافلة تقل جمعاً غفيراً من الحبشة.. ومن مناطق أخرى في القارة الأفريقية.. بالإضافة إلى اختلاف الجنسيات، هناك اختلاف للغات، فهذا مصري، وذاك هندي، والآخر قادم من جزر الفيليبين، وتراهم كلهم جاؤوا ليشهدوا منافع لهم، وهذا - لعمري - أكبر دليل على الروح الاجتماعية في الإسلام، وأنه دين يكره الانعزالية، والبعد عن الناس.

على أننا نجد الشيء نفسه، في الأعياد، وهي أعياد الإسلام، التي جاءت لتجمع الشمل لا لتفرقه.. فهذا عيد الفطر.. والأضحى.. وعيد الغدير.. وعيد النوروز، وما شابه.. هذه كلها إنما جاءت من أجل توحيد الناس جميعاً، وعلى صعيد واحد، بخلاف الأعياد الغريبة، أو قل: أعياد الحضارة الأجنبية، حيث إنها تفرّق ولا توحد، لأنها ما جاءت للناس كافة، وإنما جاءت تحمل روح الطبقية البغيضة، فمثلاً، نجد عيداً للعمال، وعيداً للفلاحين، وعيداً للمعلمين، وعيداً للموظفين.. وآخر للحدادين، والنجارين، حتى صارت الأعياد لكل فن، وكل صناعة.. بالإضافة إلى أعياد الأم، والأب، والطفل، وأعياد الحيوانات والأشجار، فللفيل عيد، وللبطة عيد.. وللشجرة عيد، وللنخلة عيد، إلى ما لا نهاية.. في حين أننا نجد الأعياد في الإسلام محدودة، ولكنها جامعة

وكاملة.. تجعل الناس كلهم في فناء واحد، وتحت سقف واحد، وهذه هي النظرية الاجتماعية في الإسلام، لأن يد الله مع الجماعة.

سادساً: إن التركيز على الاستماع، يشير إلى أهمية النظرية الحضارية في الإسلام، في باب الاجتماع، والأهمية التي يعطيها الإسلام، في هذا المجال، من أجل صناعة حضارية للمجتمع الإسلامي الكريم.

على أن مجالس الحسين - أي القراءة والتعزية - التي تجري في أكثر بلاد العالم، إنما هي لإحياء هذا الحس الاجتماعي، لأنه لا يقام مجلس عزاء، أو إلقاء محاضرة، إلا وفيه أكثر من شخص واحد.. وهذا هو معنى كلامنا: إذ القراءة فيها حسّ فردي، بينما الاستماع فيه حسّ اجتماعي، وذلك أنك لا تستطيع أن تقرأ وسط جماهير غفيرة، بل لابدّ لك من الهدوء، حتى تتمكن من استيعاب القراءة، والأمر ليس كذلك في الاستماع. ففي إمكانك أن تستمع وأنت وسط طوفان من البشر.. على أن الهدوء مطلوب أيضاً في هذا المجال، أي في الاجتماع، لأنه في الضوضاء والجلبة أيضاً لا يمكن للواحد منا، أن يفهم ويستوعب، وإنما فقط أردنا أن نؤكد أهمية العنصر الاجتماعي في حقل الاستماع.. والذي لا وجود له في حقل القراءة.

سابعاً: إن أهل النار حين سألوا عن سبب دخولهم إلى سقر، أجابوا بهذا الجواب: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴿(١).

(١) الملك: ١٠ - ١١ .

وحينما يقول الحق سبحانه: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ
السَّعِيرِ﴾.

فإنه يريد أن يبين حقيقة، لا مجال للتغافل عنها، وهي: أن تعطيل
حاسة السمع عن العمل، يعتبر خيانة كبرى، لذلك قال:
﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾... إلى آخر الآية.

وواضح جداً أن تعطيل السمع عن العمل، إنما يحصل عندما نترك
الاستماع من ذوي العقول، وحملة الفكر الإسلامي.. يحصل عندما
نترك الاستماع إلى العلماء الريانيين. الذين نور الإيمان قلوبهم، وأضاء
العلم رؤوسهم.

ومن هنا جاء التأكيد على ملازمة العلماء، والحضور في مجالسهم..
حتى قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم،
بركبتك، على أن هذه الجملة أو الكلمة الأخيرة، التي تقول: وزاحمهم
بركبتك، تشير إلى ضرورة أن يكون مجلس العالم مزدحماً بالناس،
بحيث لا يكون هناك مكان إلا عند مجلس العالم، فيأبى المستمع
ويزاحم العالم بركبتيه.. هذا بالإضافة إلى أن في الحديث إشارة إلى
تواضع العالم، بين الناس، وهو أن يكون مكانه، مساوياً لمكان الناس في
المجلس.. فركبهم واحدة، ومجلسهم واحد. ولهذا نجد الإمام زين
العابدين عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة في دعائه فيقول: «أو لعلك
فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني» فبين أن الابتعاد عن مجالس
العلم والعلماء، يؤدي إلى الخذلان في الحياة الدنيا، أي أن الواحد منا
ليس في إمكانه أن يسجل انتصاراً في حياته، إذا كان بعيداً عن
مجالس العلماء، وهذا أعظم تركيز على أهمية هذه المجالس.

إذن: فقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يشير إلى بعدهم عن هذه المجالس العظيمة - أي أنهم أرادوا أن يقولوا: لو أننا حضرنا مجالس الحسين عليه السلام ومجالس العلماء، لأبعدتنا عن النار، ولكانت حياتنا تجري بشكل آخر، غير هذا الذي جرت عليه حياتنا، فأنتهينا في الجحيم.

لألك يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: تجلسون وتتحدثون، فقالوا: نعم.. قال: إني أحب تلك المجالس، فأحيوا أمرنا.. رحم الله من أحيأ أمرنا.

الإسلام ملاذ المرأة وحصنها المنيع

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (١).

* المدخل:

إن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وعلاقة الفرد بالمجتمع، هما المقياس الذي على أساسه نستطيع أن نحكم بفشل هذا المجتمع أو ذاك، أو بنجاحه، فكل مجتمع يستطيع أن يشخص العلاقة التي ينبغي أن تكون سائدة بين الرجل والمرأة هو مجتمع ناجح وإلا فهو فاشل لأنه أساء التشخيص وبالتالي أساء العلاج.

وكلنا يعلم أن الدين الإسلامي هو دين الفطرة، وقد أمرنا أن يكون هذا الدين هو وجهتنا وخيارنا بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (٢).

ويلاحظ في هذه الآية أن لا تبديل لخلق الله أي أن هذه الفطرة ثابتة لا تتغير زماناً أو مكاناً فقوانينها واحدة لا تتغير ولا تتبدل مهما تبدلت الشعوب ومهما تقلبت الأزمنة والأمكنة. وبالتالي فإن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تخضع لهذه الفطرة وقوانينها لكي تكون

(١) الأحزاب: ٥٩ .

(٢) الروم: ٣٠ .

علاقة ناجحة تؤدي إلى انتظام المجتمع، وكذلك الأمر فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع.

ومما لا شك فيه أن المجتمعات التي ابتعدت عن مناهج السماء قد وقعت في الفشل الذريع إفراطاً وتفريطاً. إذ أن هذه المرأة التي هي أم أو زوجة أو بنت أو أخت كانت فيما مضى من الأزمنة القديمة تعامل معاملة أقل ما يقال فيها إنها سيئة، فهي خادمة عند الرجل تلبى طلباته وتشبع رغباته وليس لها إلا القبر.

ولو حاولنا أن نتعرف إلى وضعها عند الشعوب القديمة لكي نرسم صورة أشد وضوحاً وأكثر تفصيلاً لوجدنا أنها لم تخرج من كفتي الميزان الإفراط والتفريط. فإما أن تكون مظلومة، مهضومة الحقوق وإما أن تُعطى حرية قائمة على الفوضى في مجالات الجنس والأخلاق والرديلة مما يجعلها ناراً ملتهبة تحرق المجتمع. وهذا التاريخ يقف شاهداً على صحة ما ذهبنا إليه.

* المرأة في ظل المجتمع الجاهلي:

إن أقل ما يقال في المرأة في الجاهلية هو أن وضعها كان مهيناً يعاملونها على أنها عبء على مجتمع الرجال. وإذا كان هناك بعض النساء المشهورات من أمثال الخنساء فذلك هو الشواذ الذي يؤكد صحة القاعدة. وليس أدل على ذلك من عادة وأد البنات التي ورد ذكرها في كتب التاريخ مما جعل القرآن الكريم يشير إلى ذلك متسائلاً مستكراً: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ (١).

(١) التكوير: ٨ - ٩ .

وكان الرجل منهم إذا تلقى نبأ ولادة الأنثى تجده: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ
مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ﴾ (١).

ويقول شاعرهم:

الموت أخفى سترة للبنات ودفنها يُروى من المكرمات
ألم تر الرحمن عز اسمه قد وضع النعش بجانب البنات

ويروى أن أحد كبار الصحابة، ولا داعي لذكر اسمه - كان قد حفر
لابنته قبراً وهي في الثامنة من عمرها، وعندما علق التراب على
لحيته نفّضت التراب عنها بيدها على حد تعبير الصحابي. يقول: فرّق
قلبي لها لكن الجاهلية غلبت عليّ شقوتي فألقيتها في الحفرة وهي
تتاديني. فما زلت أهيل عليها التراب حتى انقطع صوتها ورجعت إلى
البيت. وقد كان هذا الصحابي «الجليل» يروي القصة في مجلس
الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - فنهره كي يتوقف عن الكلام
وقد تفجرت عينا النبي بالدمع، فقال: «ما أقسى قلوبكم»: ﴿وَإِذَا
الْمَوَدَّةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)﴾ (٢).

* الانقلاب:

وحدث الانقلاب الذي قلب المجتمع الجاهلي رأساً على عقب، وإذا

(١) النحل: ٥٩ .

(٢) التكوين: ٨ - ١٠ .

بالرسول الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ يأخذ بيد المرأة من ظلمات الجاهلية وظلم رجالها إلى نور الإسلام وعدالته ورحمته. فكان يقول: «خير أولادكم البنات» و«إن بيتا فيه بنات لا أخشى عليه من الهلاك» و«إن الرحمة لتتزل على البيت الذي فيه بنات» و«إن رجلا أعطاه الله بنتا فأحسن صحبتها كان معي في الجنة ومن كان له ابنتان حجبته عن النار يوم القيامة، ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن كنت أنا وهو كهاتين في الجنة».

فكان ﷺ إذا دخلت عليه الصديقة الزهراء، روي فداها، يقوم إجلالاً لها ويستقبلها قائلاً، مرحباً بأم أبيها. ثم يأخذ يدها فيقبلها. ودخلت عليه ذات مرة امرأة من البادية فقام لها وهش مبتسماً واستقبلها مُجسماً إياها بجانبه مفترشاً لها عباؤه. وعندما خرجت شيعها إلى باب المسجد بابتسامة. وعندما سألوه: يا رسول الله من هذه؟ قال: هذه أختي من الرضاع، الشيماء بنت حليلة السعدية.

لا شك أنه انقلاب خطير قلب الأوضاع كلها، وقفزة عظيمة تحولت بالناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. لذلك عندما خطبت الزهراء - سلام الله عليها - بالناس قالت تذكرهم بجاهليتهم: «وكنتم تشربون الطرق، وتقتاتون القدأ أو الورق، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد ﷺ».

* المرأة عند الشعوب القديمة:

لو سبرنا أغوار التاريخ وتوغلنا في رحلة إلى أعماقه لوجدنا أن

المرأة في المجتمعات القديمة إما أن تكون في حالة من التحلل والانفلات تتبعها قبضة حديدية تحصي عليها أنفاسها وإما أن تبدأ بتلك القبضة الحديدية الخانقة يتبعها تحلل وانفلات يدمر الأسرة والمجتمع.

ففي الهند مثلاً نجد أن المرأة قديماً وما زالت حتى الآن مسكينة مظلومة فإذا مات زوجها دُفنت معه أو أحرقت وإياه. فهل بعد هذا الظلم ظلم وهل بعد هذا الجهل جهل؟!

والفرس قبل مجيء الإسلام تجد المرأة عندهم في حالة تدعو إلى الرثاء، فهي سلعة وحطام يباع ويشترى.

أما اليونانيون القدامى فقد سلطوا عليها قبضتهم الحديدية واعتبروها في فلسفتهم شراً بل شيطاناً بشكل إنسان فلم يسمحوا لها بالخروج من بيتها. وبقيت السلطة المطلقة للرجل يتحكم بها على هواه ويفعل ما يشاء، يتحكم ويظلم دون أي رادع. ثم جاء فلاسفة متأخرون فأعطوا المرأة كل الحرية فانطلقت النساء في المجتمع الجديد على هواهن وتحولت كل امرأة إلى مومس داعرة مما انعكس ذلك سلباً على الأسرة ومؤسسة الزواج.

أما الرومان ورثة اليونان فقد أعادوا المرأة إلى سابق عهدها من ظلم وتحكم فحولوها إلى جارية وإلى مجرد جسد يتمتعون به، يعرضونها في سوق النخاسة لتباع وتشترى فيقتنيها الأغنياء والنبلاء والأباطرة في قصورهم وغرف الحريم فيها كأداة تشبع غرائزهم وتروي ظمأهم الغريزي إلى جسدتها ومفاتها.



ثم جاءت المسيحية في ظل هذه الأوضاع المزرية فكانت ردة الفعل إلى الرهينة ونظامها القائم على الامتناع عن الزواج فكان القديس هو من لا يتزوج وكذلك القديسة التي تعزف عن الزواج فانتشرت الرهينة في كل مكان وتحكمت الكنيسة بموجب سلطتها بالناس مما جعل الانفجار رهيب في المجتمع يقلب الأوضاع ويعود بالمرأة إلى الانحلال فعادت مطية لشهوات الرجل وسلعة تباع وتشترى. وقد استمرت هذه الحال حتى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر.

* دور الأزياء تقودنا:

إن موجة الكفر والإلحاد تهب علينا من أربع رياح الأرض، لا سيما من أميركا والدول الأوروبية حاملة معها كل ألوان الفجور والانحراف والأفكار الهدامة التي تقتلعنا من جذورنا وتقذف بشبابنا إلى الهاوية السحيقة التي لا قرار لها.

وقد بدأت هذه الموجة منذ أن استولى الغربيون على البلاد الإسلامية وراحوا ييثون سمومهم وأفكارهم الهدامة فراح بعض القادة يطبقون كل القوانين التي تخدم الغرب ومخططاته. ومن هؤلاء القادة مصطفى أتاتورك الذي أراد أن يجعل من تركيا قطعة من الغرب فدعا إلى ترك الحجاب بل أعلن حرمة في تركيا الإسلامية ودعا إلى عدم تشييع الجنائز إذ اعتبر ذلك من غير معنى وبلا فائدة. كما منع الأذان في المساجد بحجة أن الأذان يؤذي النائمين لا سيما في الصباح. فهو وأمثاله من القادة كانوا سبباً في انتكاسة العالم الإسلامي.



فها هي دور الأزياء تتحكم في أذواق شبابنا وفتياتنا إذ تنهال علينا بكل ألوان الموضة الفاجرة التي تختفي وراءها الأنامل اليهودية التي تحركها بكل براعة ونجاح. ورب قائل إن المسألة ليست مسألة أزياء وثياب. ولهذا القائل نقول: إن الثياب جزء من القضية التي نحن بصددتها، بل هي في أساسها لأنها تحمل لنا كل الدمار الأخلاقي الذي حل ويحل بالعالم الإسلامي.

* التاريخ دراية لا رواية فقط:

من نعم الله علينا هذه المجالس الحسينية التي تجمعنا حول الحسين عليه السلام وحول أهل البيت مصابيح الدجى والهداية نتلمس طريقهم ونتفهم سبلهم ونعمل بموجب تعاليمهم التي حملوها أمانة بعد رسول الله ﷺ لكي يتابعوا الرسالة السمحاء. وأنا إذا أتحدث إليكم أيها الأحبة لا أريد أن أكون مجرد قارئ للتاريخ يروي أحداثاً جامدة لا حياة فيها.

إن التاريخ أيها الأخوة ليس مجرد أحداث تُروى أو حكايات تقص إنما التاريخ فقه وعلم وفلسفة. إذ يجب ألا نكتفي بطرح سؤال: ماذا حدث؟ بل يجب أن نسأل: لماذا حدث؟ إننا عندما نقرأ في التاريخ الإسلامي «هاجر المسلمون إلى الحبشة» فهذه رواية للتاريخ، ولكن في التاريخ يوضح لك «لماذا هاجر المسلمون إلى الحبشة» فتعرف أنهم هاجروا لأن خلفهم ظلاماً وتعذيباً وظلمة وطفاعة.

كذلك الأمر بالنسبة لهجرة الرسول ﷺ إذ لا يكفي أن تعرف ذلك



فيقال لك «واستقبله الناس بأنشودة، طلع البدر علينا من ثنيات الوداع»، بل يجب أن تبحث لماذا هاجر الرسول ﷺ؟ ما هي الأسباب وما هو الدوافع وكيف كانت النتائج؟ وهكذا...

أنتم أيها الأحبة لا تحضرون مجالس الحسين ﷺ لكي تعرفوا ماذا حدث له في كربلاء، بل لكي نعلم جميعاً لماذا كانت عاشوراء وما هي الدوافع والأسباب وما هي النتائج التي نتجت عن هذه الملحمة الإسلامية بل الإنسانية. ساعتئذ ينير الحسين قلوبنا ويتسلل الوعي إلى عقولنا فنعرف ما هي الواجبات وما هو الدور الملقى على كاهل كل منا، فالوعي هو غايتنا وهدفنا.

وفي هذا المجال يقول رسول الله ﷺ: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه» وعلى هذا فالدراية هي المطلوبة إننا نروي كثيراً من الأحاديث، وكلنا يعرف أن الإمام علياً - سلام الله عليه - يقول: «ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني» ونعرف أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم» ونعرف قول الإمام زين العابدين ﷺ: «من لا معاش له لا معاد له» ونعرف أيضاً أن أباذر الغفاري كان يقول: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه». أجل نحن نعرف كل هذه الأحاديث وكثيراً ما نرددها، ولكن الأهم من ذلك هو أن ندرّجها وأن نعمل بموجبها لكي تكون منطلقاً لنا إلى تكليفنا الرسالي الذي يلقيه الإسلام على كواهلنا جميعاً.

الأمر نفسه ينطبق على الوضوء والصلاة والصوم وسائر العبادات إذ يجب ألا نكتفي بالشكل فنتوضأ ونصلي ونصوم في حين أن قلوبنا



يقتلها الصداً وتعشش فيها كل ألوان الموبقات والمحرمات. إذ كيف نصلي ونصوم وقلوبنا مشحونة بالنفاق والكذب والبغضاء والنميمة والغيبة؟ كيف نصوم ولا هم لنا إلا الطعام والتفكير بما سوف نحضر من ألوانه فضلاً عن الحلوى وغيرها؟ فهل كان أهل البيت يفكرون بذلك عندما كانوا يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ولمدة ثلاثة أيام متواصلة لا يعرفون إلا للماء طعاماً حتى ظهر الضعف في أبدانهم ووجوههم مما أدمى قلب الرسول ﷺ وأفرحه في آن معاً؟

* الإسلام ينظم الميل الفطري بين الرجل والمرأة:

بعد هذه الجولة أعود بكم إلى الموضوع الأساسي الذي نحن بصدده لأقول: يجب العودة إلى الإسلام دين الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ (١).

ولكي أوضح كيف ينظر الإسلام إلى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وبالتالي كيف ينظم هذه العلاقة بينهما.

إن الإسلام يرى أن الرجل والمرأة هما جنسان من نوع واحد هو النوع البشري، وأن ثمة علاقة تجذب الواحد منهما نحو الآخر وأن هناك ميلاً بينهما، وهذا الميل هو ميل فطري. ونحن لا نعني بهذا الميل الجنسي، وإن كان الميل الجنسي يشكل جزءاً منه.

على أن الكون برمته قائم على هذه الثنائية. فأنت واجده في الطيور والزواحف والأسماك. وهو موجود أيضاً في الكهرياء ما بين سالب

(١) الروم: ٣٠ .



وموجب. والصوت الذي تسمعه ما كان ليخرج من الحناجر لولا
الثائية فالحنجرة تقوم مقام العاقد بين موجة سالبة وأخرى موجبة.
وكذلك السحاب الذي تسيّره الريح.

لكن هذا الميل بين الذكورة والأنوثة هو عند الإنسان أقوى منه عند
الحيوانات وسائر الكائنات. والسبب أشرّت إليه سابقاً على أنه ليس
إشباع الغريزة الجنسية فقط هو المقصود. ولو كان الأمر كذلك لكان
شأن الإنسان كسائر الكائنات الأخرى.

ويلاحظ أيضاً أن الحيوان لا يمارس الجنس في كل أوقاته. بل هو
قائم على فصول إلا ما شذّ منها وهو قليل. وهناك حيوانات مثل البقر
والخيل والبغال والإبل قد تكفيها مرة واحدة. حتى أن هناك ما
يمارسها مرة واحدة في حياته ثم يموت لأن الأنثى تقتله بعد ذلك
كالإخطبوط والعنكبوت وغيرها.

ومسألة حضانة الأم للأولاد تجدها في عالم الحيوان مؤقتة قد لا
تتجاوز السنة. فالأسماك على سبيل المثال تلقي الأنثى بيضها في
أحضان الماء وتتركه لكي يتحول إلى سميكات من غير أن تحضنه.
وكذلك السلحفاة تضع بيضها فتدفنه في الرمل ثم تأخذ طريقها إلى
البحر. أما الكائنات الأخرى كالماشية والأنعام فلها مدة حضانة قد
تطول نسبياً بسبب الرضاعة ولكنها لا تتجاوز السنة.

أما في عالم البشر فالفترة أطول: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ﴾^(١).

(١) البقرة: ٢٣٣ .

ذلك لأن الإنسان ينتظره دور أهم وأكبر في الحياة هو دور حضاري. لذلك كان ينبغي أن يكون الميل الفطري عند الإنسان أقوى من الميل الغريزي القائم على الشهوة الجنسية. ولو كان الميل الجنسي هو المقصود فقط لتوقفت العلاقة بين الرجل والمرأة عند هذا الحد. ولكن هناك مهمات أخرى تتعلق بالأسرة وبناء المجتمع، حيث هناك أطفال يحتاجون إلى رعاية وعطف وحنان.

* الحجاب:

على أن دور الإسلام هو في تنظيم هذا الميل الفطري حيث يؤكد بداية أنك إذا أحببت النساء فليس ذلك حراماً من حيث المبدأ كذلك حب النساء للرجال. أما الحب المحرم فهو القائم على الخبث والخيانة كأن يحب الرجل مثلاً زوجة صديقه، أو يحب امرأة للإيقاع بها. ومن صفة مؤمن أن يحمل الحب في قلبه، ذلك الحب الطاهر العفيف.

بذلك يقول رسول الله ﷺ: «حب النساء من أخلاق الأنبياء» ويقول أيضاً: «أحب من دنياكم ثلاثاً: الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة» كما يقول: «من صفات المؤمن حب النساء». وهذا الحب من المؤمن للنساء يقع في مقابل كره الآخرين كما كان يفعل العرب في جاهليتهم من دفنهن في التراب وهن أحياء. ومن هنا الحديث الشريف: «قول الرجل لزوجته إني أحبك لا يخرج من قلبها إلى يوم القيامة» لأن هذه الكلمة تغذي فيها هذا الميل الفطري.

وهنا لابد للإسلام من أن يتدخل لكي ينظم هذا الانجذاب بين



الرجال والنساء لئلا يتحول إلى فوضى. فهو ينظمه عن طريق الحجاب. وهذا هو الاعتدال الفطري. وإذا كان الإسلام يمنع الاختلاط فذلك حتى لا يتحول إلى اختلاط سلبي يؤدي إلى المهالك والعواقب الوخيمة عندما يفقد الرجل سيطرته على نفسه ويفلت زمام المرأة من يدها فتحدث المأساة وينتشر الزنا والخيانة وتسود المجتمع الأخلاق السيئة.

أما الغربيون فقد أباحوا الاختلاط بل أوجبوه معارضين كل لون من ألوان الحجاب تاركين السفور والخلاعة تصل إلى مداها ثم وجهوا أفكارهم إلى بلادنا الإسلامية عن طريق الثقافة والإعلام.

في الوقت الذي يؤكد الإسلام على المجتمع الطاهر والنظيف الذي وحده يحفظ حقوق المرأة ويؤمن حرمتها وكرامتها. لذلك خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الأكرم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ...﴾^(١).

وقد أمر أن يبدأ بأزواجه وبناته لأن النبي أسوة لنا وقدوة ولا يعقل أن يطلب منا النبي أن نحجب نساءنا دون نساءه. والجلباب هو الثوب الذي يغطي جميع البدن.

لذلك تقول أم سلمة: لما نزلت هذه الآية خرجت نساء الأنصار والمهاجرين في ذلك اليوم للصلاة وعلى رؤوسهن مثل الغريبان من الأكياس فبمجرد نزول الآية امتثلن جميعاً لأوامر الرسول وأوامر رب العالمين من غير نقاش أو جدال. فلم تجد امرأة واحدة مثلاً تقول للرسول ﷺ: دعني الآن فأنا غير مقتتعة بالحجاب. لأن المرأة المؤمنة تستجيب لأوامر الله سبحانه ونواهييه.

(١) الأحزاب: ٥٩ .

* مزاعم أعداء الحجاب:

إن الذين يقفون من الحجاب موقف العداء يوردون المزاعم التالية:

١ - إن الحجاب يسبب الطلاق لأن الرجل يتزوج المرأة من غير أن يراها.

٢ - فض الحجاب على المرأة هو سحب للثقة من المجتمع واتهامه سلفاً بالسوء.

٣ - إنه يمنع المرأة عن الدراسة ويحد من تحصيلها العلمي.

٤ - يحول بينها وبين التعرف إلى «فارس أحلامها».

٥ - كما يمنع «فارس الأحلام» هذا من إخضاعها للتجربة قبل الزواج.

إنها مزاعم تفتقر إلى المنطق، يبثها الخبثاء بين الشباب ويدرسونها في علم الاجتماع. لذلك سوف أفند هذه المزاعم واحدة واحدة.

بالنسبة لمن يقول إن الحجاب يسبب كثرة الطلاق، نجد أن الإحصائيات تنفي زعمه هذا، فهي تؤكد ارتفاع نسبة الطلاق في أنحاء العالم الغربي لا سيما في الولايات المتحدة الأميركية. فلماذا؟ هل لأن النساء هناك محجبات، أم أن هناك أسباباً أخرى تعود إلى السفور والاختلاط والخلاعة والفجور؟

أما القول الذي يعتبر أن الحجاب هو سوء ظن بالمجتمع وسحب للثقة منه فهو مردود. لأنه بموجب هذا المنطق على أصحاب المحلات التجارية والبنوك أن يبقوا محلاتهم وبنوكهم مفتحة الأبواب حفاظاً

على مشاعر المجتمع والثقة به. كما أن على الدول أن تلغي عمل الشرطي بل تلغي هذا السلك من أصله لأن في ذلك سوء ظن بالمجتمع، علماً أنه بالرغم من وجود الشرطة ومن إقفال البنوك والمحلات أبوابها بكل أنواع الأقفال الكهربائية والالكترونية وأجهزة الإنذار نجد أن اللصوص في أميركا يعيشون فساداً في كل مكان جهاراً نهاراً.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، إذا كنا نقبل بنظام الإقفال للأبواب ونظام الشرطة فلماذا نرفض نظام الحجاب. أما بالنسبة إلى التعرف إلى «فارس الأحلام» فإن الإسلام يسمح لمن يريد أن يخطب فتاة أن يرى خطيبته على حقيقتها فينظر إلى شعرها ويراها. على أنه لا يجب أن يفهم من كلامي أن الإسلام يحول الفتاة إلى معرض للزوار والخطاب وأن على الأهل أن يفتحوا أبوابهم لكل شاب بحجة أنه جاء يخطب بنتهم. لا. إن الأمر ليس على هذا النحو، لأن المسألة تتعلق بالمجتمع الإسلامي، والشاب المؤمن يعتبر أن كل أعراض الناس عرضه لذلك يحافظ على أعراض الناس.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الفتاة المؤمنة التي تود خطبتها لن ترضى بك إلا إذا كنت مؤمناً والمؤمن له علامات ومسلك يعرف به. أما إذا كانت سافرة فلا حاجة أصلاً إلى أن تطلب من أهلها أن تراها في أي مكان.

وفي هذا المجال يروى أن شاباً جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله خطبت فتاة ووالداي خطبا لي فتاة. فمن أتزوج؟ قال: «تزوج التي

خطبتها أنت، فإنه أحرى أن يدوم بينكما» والإمام الصادق عليه السلام يقول: «إذا خطب أحدكم فليسأل عن شعرها، فإن الشعر أحد الجمالين».

وبمناسبة الحديث عن الشعر، يلاحظ في هذه الأيام موضة رائجة بين النساء وهي موضة حلق الشعر تماما، لذلك أسأل الله ألا يعود الإنسان إلى بيته فيجد فيه مجموعة من (القرعان) والعياذ بالله. فما أكثر الصرعات التي نتحفنا بها الموضة الأوروبية على شاشة التلفزيون أو على صفحات المجلات المتخصصة بأخبار الموضة والأزياء، حمانا الله وإياكم من سمومها وحمى شبابنا وفتياتنا.

* تجربة آدم وحواء:

لو تأملنا التجربة التي خضع لها آدم وحواء عندما وسوس لهما الشيطان، إنما كان ذلك عبر مسألة الحجاب. فإليك القصة كما وردت في صورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾. حتى ينزع عنهما ما يوارى سواتهما من الحجاب واللباس ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)﴾ (١).

ويلاحظ في هذه الآية أنه قد ورد فيها «هذه الشجرة» تارة، و«تلكما

(١) الأعراف: ١٩-٢٢ .



الشجرة» تارة أخرى، ففي الأولى كان آدم وحواء قريبين منها لأن اسم الإشارة «هذه» تدل على القرب، وفي الثانية كانا بعيدين عنها لأن اسم الإشارة «تلكما» يدل على البعد. ويفهم من ذلك أن الخطاب الأول كان في الجنة والثاني عندما خرجا منها.

بعد ذلك اعترف آدم وحواء بخطأهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا﴾ (١).

ولابد هنا من الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم من حيث المبدأ للأرض بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢).

ولكن كان لابد أن يمر آدم وحواء بهذه التجربة لكي نتعلم منها درساً بليغاً. إذ كان الهبوط إلى الأرض بسبب نزع اللباس والحجاب وإتباع الشيطان، مما يؤدي إلى خلل في الأخلاق.

بعد ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

ويلاحظ في هذه الآية أن الخطاب انتقل إلى بني آدم بشكل عام إذ لم يعد الأمر متعلقاً بآدم وحواء. ويلاحظ أيضاً أن الآية قد حددت للباس وظيفتين هما ستر السوءة أي العورة، وأداء ناحية جمالية

(١) الأعراف: ٢٣ - ٢٤ .

(٢) البقرة: ٣٠ .

(٣) الأعراف: ٢٦ .



تستفاد من كلمة الريش الواردة في الآية. والريش هنا تعبير عن الجمال، علماً أن المرأة قد نهيت عن إبراز زينتها خارج بيتها لأنها عنصر مثير في المجتمع فهي بخروجها سافرة تثير الفرائز الفطرية والجنسية، فضلاً عن أن المرأة لديها غريزة فطرية لإظهار مفاتها كي تبدو جميلة لا سيما بنظر الرجال. وذلك لا يعالج إلا بالرقابة وبمنعها عن إبراز هذه المفاتن. فهي إما زوجة أو بنت، والمسؤولية تكون إما على زوجها وإما على أبيها. وكل ذلك يؤدي إلى انتظام الأمور وسيرها بشكل سليم.

والأمر الذي لابد من الإشارة إليه في هذا المجال، هو أن السوء الواردة في الآية هي القبل والدبر عند الرجل، في حين يعتبر جسد المرأة كله عورة ما خلا الوجه والكفين، على اختلاف ما بين الفقهاء. ولكن ما ذهبنا إليه هو الأعم والأظهر.

* حجاب العفة والتقوى:

ورد في الآية الأنفة الذكر قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾^(١).

ويفهم منها أن المسألة لا تتوقف عند اللباس والحجاب المادي وإنما هناك حجاب معنوي وهو الأهم، ذلك هو الحجاب الذي يستند إلى العفة والتقوى اللتين تعمران القلب وتطهران النفس من كل درن أو شائبة. لأنه في ظل الميل الغريزي عند المرأة لا يكفي الحجاب واللباس

(١) الأعراف: ٢٦ .



ولأن ذلك وحده لا يمنعها من الارتقاء في أحضان الشيطان لذلك كان لابد من حجاب التقوى وحجاب العفة.

إن الله تبارك وتعالى قد زود المرأة بحلة من الحياء والعفة والتمنع مما يمنعها عن ملاحقة الرجال وإلا لتحول المجتمع إلى غابة. فهي مع ميلها إلى الرجل إنما يكون ذلك على استحياء وخجل وعفة. لذلك على الرجل أن يحافظ على هذه المزايا الطيبة عند المرأة بغض بصره عنها وبعدم ملاحقتها مما قد يقتل هذه الحالة عندها. ومن هنا كانت حرمة النظر للمرأة الأجنبية.

إن العفة عند المرأة تصبح في خبر كان عندما تلاحظ أن العيون تكاد تأكلها بل تلتهمها، فتتحول إلى طالبة للرجل بدلاً من أن تكون هي المطلوبة. وإذا كان الرجل الذي يلاحق النساء بنظراته وألفاظه وحركاته يسقط في عيوننا فكيف بالمرأة التي تسلك مسلكاً مشابهاً له.

على أنه مما لا شك فيه أن عظمة المرأة تكمن في إغضائها وحيائها. وقد ورد في وصف الحور العين في الجنة قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ (١).

فالحوراء في الجنة تقصر طرفها على زوجها دون غيره. لذلك تجد القرآن الكريم يركز على الإغضاء عند الرجل والمرأة على حد سواء: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢).

(١) الرحمن: ٥٦ .

(٢) النور: ٣٠ .



﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (١).

وعلى هذا النحو الرائع صور القرآن الكريم ابنة شعيب حيث يقول:
﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (٢).

أي جاءت موسى نبي الله في لباس من الحياء فهي ابنة نبي: «قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» إذ لم تقل: أنا أدعوك بل نسبت الدعوة إلى أبيها وفي ذلك كل الأدب والحياء ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٣).

وقد نعتته بالقوة والأمانة لأنه انتشل الماء لها ولأنه طلب إليها أن تسير خلفه بعد أن كان الهواء يلعب ثوبها. والرجولة والأمانة صفتان تتشدهما كل امرأة في الرجل.

* ماذا فعل الغرب بشبابنا:

حقا ماذا فعل الغرب برجولة شبابنا؟ لقد حولتهم الحضارة الغربية إلى شباب الموسيقى والديسكو تلك الموسيقى الصاخبة التي تصم الأذان وتثير الأعصاب في حين أن الإسلام يريد لك السكينة والهدوء:

(١) النور: ٣١ .

(٢) القصص: ٢٥ .

(٣) القصص: ٢٥ - ٢٦ .



﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ (١).

القرآن يحدثنا عن السكينة وشبابنا يسعون خلف الصخب المستورد من جنون أوروبا وأميركا فتأمل.

على أن الهدوء مطلب كل أسرة. لأن الأسرة التي تعيش الفوضى والصخب والعراك لا يمكن أن تربي جيلا صالحاً.

* القلوب المريضة:

إن أمثال هؤلاء الشباب من ذوي النفوس المريضة، هم الدافع الأول والأساسي لفرض الحجاب على المرأة حتى لا تكون عرضة لكل ذي نفس مريضة. يقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (٣).

لأنهن أمهات المؤمنين ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (٣).

لأن أمك في النسب يمكن أن تراها من دون حجاب، أما أمهات المؤمنين فهن أمهات بالإيمان والإسلام.

ويروى أنه عندما نزلت هذه الآية التي تمنع المسلمين من النظر إلى

(٢) التوبة: ٢٦ .

(٢) الأحزاب: ٣٢ و ٥٣ .

(٣) الأحزاب: ٦ .



نساء النبي إلا من وراء حجاب استجاب المسلمون لها، فاعترض طلحة بن عبيد الله قائلاً: أريد محمد أن يمنعنا من النظر إلى بنات عمنا؟ أما والله لئن مات محمد لنتزوجن نساءه ونجول بين خلايلهن.

ولكن أن تعلم بعد هذا أن طلحة من العشرة المبشرين بالجنة. وأنا لا أعلم لماذا بشر بالجنة، المقولته هذه أم لأنه حارب علياً عليه السلام يوم الجمل؟

إذا يدعو الإسلام المرأة ألا تخضع في القول لئلا يطمع فيها من كان مريض القلب يتناول أعراض الناس ويلاحق النساء بسيارته أو على الهاتف. ومن هنا كان نعت القرآن له بالمريض فهو إنسان غير سوي. والخضوع بالقول هو الدلال والغنج فيه. علماً أن صوت المرأة ليس عورة إلا إذا خضعت بالقول. أما إذا تكلمت بشكل طبيعي فصوتها ليس بعورة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

* حماية الإمام علي عليه السلام:

سمع الإمام علي عليه السلام أن جنود معاوية قد أغاروا على الأنبار ودخلوا على النساء المسلمات والمعاهدات أي الذميات اللواتي هن بعهدة المسلمين وحمائيتهم، فنزعوا منهن القلائد والخلاخيل والأساور، فصعد المنبر وقال: «وهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل

(١) التوبة: ٧١ .



حساناً البكري، وأزال خيلكم عن مسالحتها^(١) ولقد بلغني أن الواحد منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، وعلى الأخرى المعاهدة، فينتزع حِجْلَهَا^(٢) وَقُلْبَهَا^(٣) ورعائها^(٤) فما تمتنع منه إلا بالاسترحام والترجيع^(٥)، ثم انصرفوا وافرین، ما نال رجلاً منهم كَلَمٌ^(٦)، ولا أريق لهم دم. فلو أن مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».

إن هتك الحجاب هو مما أثار الإمام علياً في هذه المسألة بالدرجة الأولى حيث توصل القوم من النساء إلى موضع الخلخال والسوار والأقراط، والمجتمع يومذاك هو مجتمع حجاب وعفة. لذلك تجده عليه السلام يشعر بالأسف المميت لما حدث، فقد وصل الأمر بجنود معاوية أن يعتدوا على الحرمات ويهتكوا ما حرمه الإسلام.

وهؤلاء هم أهل البيت الطاهر حيث انطلق الحجاب. فرسالة الحجاب مقدسة وعلى المرأة أن تحافظ على هذه الرسالة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ويجب أن تعلم كل النساء أن آسية بنت مزاحم زوجة فرعون قد ضحت بنفسها من أجل حجابها.

وأنا استغرب كيف أن بعض الأزواج يمنعون زوجاتهم من الحجاب

(١) موضع السلاح.

(٢) الخلخال.

(٣) السوار.

(٤) الأقراط.

(٥) إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) جرح.

ولسوف يكون موقفهم صعباً يوم القيامة حيث يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (١).

على أن بعض النساء يتحجبن للزينة ومعظم شعرهم مكشوف، أو يكون لون الحجاب صارخاً. فحجاب الزينة هذا غير مقبول لأن المرأة المسلمة لا تتزين إلا لزوجها فقط. وعلى كل رجل عنده غيرة وحمية أن ينتصر لكل امرأة تتعرض لأذى ذوي القلوب المريضة وتحرشاتهم ودناءتهم التي يأبأها الذوق والأدب قبل أن يأبأها رب العالمين ورسوله العظيم.

* حجاب الزهراء عليها السلام:

عندما خرجت الزهراء - سلام الله عليها - وألقت خطبتها المشهورة كانت تتعثر بأذيالها وتطأ ثيابها زيادة في الحرص على الحجاب، وهي ما تخرم مشيتها مشية أبيها عليه السلام وقد كان جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: إذا نظرت إلى فاطمة تمشي تذكرت أبأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

دخلت الزهراء - سلام الله عليها - المسجد فتيطت دونها ملاءة بناءً على طلبها. فجلست ثم أنت أنه أجهش القوم لها بكاءً. فأمهلت حتى سكتوا وسكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، وافتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأعاد القوم بكاءهم. فأمهلت القوم حتى إذا سكتوا قالت:

(١) الصافات: ٢٤ .



«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها...» إلى آخر الخطبة وهي من روائع كلامها.

إنها - سلام الله عليها - لم يفارقها الحجاب لحظة واحدة من لحظات حياتها. فاعجب معي كيف سولت للظالمين أنفسهم أن يهجموا على دارها فحاصروها بين الباب والجدار فأسقطوا جنيها وكسروا ضلعها الذي أبكى أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان يغسلها فوق المغتسل، علماً أن أصداء صوت رسول الله ﷺ مازالت تتردد في مسامعهم: «فاطمة بضعة مني يرضيني ما يرضيها ويؤذيني ما يؤذيها». ومع ذلك أغضبوها وآذوها حتى ماتت غاضبة عليهم، فيماذا يدافعون عن أنفسهم إذا وقفوا أمام أبيها فسألهم: هل حفظتم الوصية وحرصتم على الوديعة؟

يقول الشاعر مخاطباً باب فاطمة عليها السلام:

يا باب فاطمة لا طرقت بخيفة	ويد الهدى سدلت عليك حجاباً
نفسى فداك أما علمت بفاطم	وقفت وراك تناشد الأصحابا
أما رققت لضلعها لما انحنى	كسراً وعنه تزجر المرتابا
أفهل درى المسمار يوم أصابها	في قلبها قلب النبي أصابا
عتبي على الأعتاب، أسقط محسن	فيها وما انهالت لذاك ترابا

فلا حول ولا قوة إلا بالله.



في قوله تعالى :

(الرجال قوامون على النساء . . .)

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١).

* المدخل:

إن هذه الآية الكريمة تطرح علينا مسألة تحتل مكانة هامة في الفكر الإسلامي، هي مسألة المرأة في الإسلام، بل مسألة الرجل والمرأة في الإسلام، ذلك الثنائي الذي يتكون منهما المجتمع الإسلامي، لا سيما أن النقاش بدأ وما يزال مستمراً حول هذه المسألة.

إن القرآن الكريم يخاطب في آياته الإنسان، أي الرجل والمرأة في آن معاً. لأن الإنسان من هذه الناحية كالزمن تماماً. فالزمن في حقيقته واحد بالرغم من أنه ليل ونهار، وكذلك الإنسان وإن كان رجلاً وامرأة. وكما أن الليل وظيفته وللنهار كذلك، فالرجل وظيفته وللمرأة وظيفتها في المجتمع البشري.

إن الإسلام قد رفع من قيمة المرأة كما رفع من قيمة الرجل، لأن الإسلام يكرم الإنسان من حيث كونه كائناً استخلفه الله سبحانه على الأرض.

(١) النساء: ٣٤ .



* المرأة أولاً:

ومع ذلك فقد ركز الإسلام على المرأة من حيث الاهتمام، لأنها تتحمل المسؤولية أكثر من الرجل، وتتحقق شخصيتها المستقلة ككائن بشري قبل الرجل. ولكي تتضح هذه الفكرة أضرب المثالي التالي:

لو أن المرأة أنجبت من زوجها طفلاً ذكراً وبعد مرور سنتين ولدت منه طفلة أنثى، بعد مرور عشر سنوات تكون البنت قد بلغت عشرة سنوات من العمر بينما أصبح الولد في الثانية عشرة من عمره. فلو أن الأم ماتت بعد زوجها الذي ترك لها إرثاً أو مبلغاً من المال، فلمن يعطى المال عند موتها؟

إن الإسلام يعتبر الولد البالغ من العمر اثني عشر عاماً قاصراً فلا يسلم شيئاً من المال بينما البنت البالغة عشر سنوات يعطيها الإسلام حقها من الإرث، على العكس من القوانين الوضعية التي تعتمد من الثمانية عشرة، لأنها قوانين كافرة لا يلتفت إليها، والإسلام يراعي من هذه الناحية الوضع البيولوجي للإنسان.

إن المسؤولية التي نتحدث عنها لا تتعلق بالإرث فقط، وإنما تتعلق أيضاً بالواجبات التشريعية، فصلاة البنت وهي في العاشرة تعتبر صلاة واجبة في حين أن صلاة الولد في هذه السن هي صلاة مستحبة.

وهناك من يسألك: إذا كان الأمر كذلك، فما بال الإمام علي عليه السلام يصف النساء بأنهن نواقص العقول؟.



وجواباً على هذا التساؤل أقول: ينبغي ألا نأخذ كلام الإمام عليّ - سلام الله عليه - بشكل سطحي. إذ هل يعقل أن يفرق أبو الحسن بين الرجل والمرأة من الناحية العقلية أو النفسية، أو الجهادية؟ بالطبع لا، وهو الذي دفع، من خلال تربيته أولاده ابنته زينب وسبطيه الإمامين الحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - إلى ساحات الجهاد.

إن الإمام علياً عليه السلام عندما قال: النساء نواقص العقول إنما يشير إلى ناحية هامة قد أثبتها العلم، وهي أن المرأة قد زودها الله سبحانه وتعالى بعاطفة جياشة، وهي أي المرأة تستخدم هذه العاطفة أكثر من عقلها. والثابت أن الجهاز نفسه والدماغ نفسه عند الرجل كما عند المرأة، لكن العاطفة عند المرأة متدفقة، لأن لها وظيفة يجب أن تقوم بها على أساس هذه العاطفة.

إن الفرق بين المرأة والرجل من حيث الوظيفة الاجتماعية كالفرق بين الطبيب والمهندس من حيث الاختصاص. فالمهندس وظيفته أن يعمم الخرائط ويبنى الأبنية والطبيب عمله ينصب على شفاء المرضى ومحاربة الأمراض ووصف العلاج النافع. فهل معنى ذلك أن الطاقات تختلف بين الطبيب والمهندس؟ بالطبع لا، وإنما كل منهما يملك طاقة موجهة إلى ناحية وظيفية معينة.

وكذلك الرجل والمرأة، إذ أن المرأة في وظيفتها الاجتماعية تحتاج إلى العاطفة المتدفقة والرجل في وظيفته الاجتماعية يحتاج إلى العقل المفكر. فإذا كان الرجل يتعامل مع المجتمع الكبير في شتى ميادينه العلمية والتجارية والصناعية والزراعية والقتالية، فإن المرأة تتعامل مع



مجتمعها الصغير المكون من أسرة وأطفال، وذلك المجتمع الذي يحتاج إلى جو هادئ وإلى رعاية وعناية واهتمام وصبر، مما يحتم عليها أن تكون محبة لعائلتها حنوناً عليها رءوفاً على أولادها وزوجها، وذلك كله يحتاج إلى عاطفتها التي زودها الله سبحانه بها.

إن الطفل عندما يبكي في الليالي الطوال، ما الذي يدفع المرأة، الأم إلى السهر الطويل بجانبه وهي تحنو عليه وهو في حضنها سارقاً منها نومها وراحتها؟ إن العاطفة، والعاطفة وحدها هي التي تجعل الأم على أتم استعداد لأن تلعب هذا الدور الهام في حياة أولادها وأسرتها. أما الرجل الذي يعود إلى بيته متعباً ويسمع بكاء طفله، فإنه يتوجه إلى زوجته طالباً إليها أن تهتم به فتسكته وكأن الأمر لا يعنيه، فتأخذ الأم المسكينة طفلها وتحاول أن تسكته حفاظاً على راحة زوجها، ومع ذلك فهي تجد في ذلك لذة وهي تغدق على طفلها كل الحنان والعطف والمحبة.

إن هذه العاطفة، هبة بل نعمة أغدق بها الله سبحانه على المرأة وزودها بها على أساس من حكمته البالغة. إذ لو تساوت المرأة مع الرجل في العاطفة لقضى الطفل المسكين بكاءً بين أم وأب، يبحث كل منهما عن راحته وهنائه.

ومن هنا نستطيع القول إن العاطفة والعقل واحد عند الرجل والمرأة ولكن المرأة تستخدم عاطفتها أكثر والرجل يستخدم عقله بشكل ملحوظ لكي تستقيم الحياة العامة والحياة الخاصة في آن معاً، وبالتالي تسير الحياة سيرها الطبيعي.

وهكذا نجد أن الإمام علياً عليه السلام يكرم المرأة في قوله هذا دون أن



يسيء إليها، وهو الذي يقول: «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، أحبكم إلى الله أحبكم إلى عياله»، فهل يعقل أن يسيء أمير المؤمنين إلى المرأة وفي بيته زوجة كالزهراء وابنة كالحوراء - سلام الله عليهم أجمعين - !!؟

* الحقوق الزوجية:

إن كلامنا حول المرأة والرجل يقودنا إلى أن نتناول مسألة الحقوق الزوجية، فللزوج حقوقه على زوجته، وللزوجة حقوقها على زوجها، وكل ذلك من أجل أن يكون بناء الأسرة كاملاً وعلى أسس متينة.

يقول رسول الله ﷺ: «أيما امرأة سقت زوجها شربة ماء كان لها خيراً من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها».

ويقول ﷺ: «أيما امرأة أطاعت زوجها في حق سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب الجحيم وفتح لها ثمانية أبواب الجنة واستغفرت لها ملائكة السماوات والأرض». ومما لا ريب فيه أن المقصود بهذه الطاعة انعكاسها على الحياة الزوجية بكاملها حيث الجو الذي يتربى فيه الأولاد.

ويقول رسول الله ﷺ: «أيما امرأة بات زوجها عليها ساخطاً في حق، لعنتها ملائكة السماء والأرض». لماذا؟ لأن الرجل عندما سخط على زوجته في حق فمعنى ذلك أنها صارت بحكم الشريعة ناشزا أي انحرفت عن خط التربية الإسلامية. وحينئذ تحتاج المسألة إلى علاج

تحدده الآية الكريمة: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾^(١).

إذاً، الرجال قوامون على النساء بالمفهوم الذي تقدم. أما إذا انحرفت المرأة عن خط التربية الإسلامية المحدد بهذه الآية الكريمة، فلا بد من العلاج الذي حددته الآية الكريمة بالوعظ وهجر المضاجع والضرب الخفيف الذي تفي بالغرض.

إن من حق الرجل أن يأمرها بعدم الخروج من البيت إلا بإذنه، إذ عليها أن تعلم زوجها بخروجها. فلو تركت البيت لأمر طبيعي فلا ضير عليها من إخباره حتى تستقيم العلاقة بينهما وحتى لا يكون للشيطان مجال بينهما، أما إذا خرجت في أمر غير شرعي فهنا الطامة الكبرى التي تؤدي إلى معصية وبالتالي تؤدي إلى هدم البيت على ساكنيه بمن فيهم الأولاد.

لذلك فإن المرأة الصالحة هي التي تعمل بموجب الشرع الإسلامي حتى تستقيم العلاقة بينها وبين زوجها وبالتالي تنعكس تلك العلاقة على الأسرة بكاملها.

يقول الإمام علي - سلام الله عليه - : «كنت إذا نظرت إلى فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - انجلت عني الهموم والأحزان». من أجل ذلك شعر الإمام عليه السلام بالخسارة الكبرى عندما ماتت الزهراء - سلام الله عليها - . فقال:

(١) النساء: ٣٤ .

نفسى على زفراتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات

لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي

ولا عجب في ذلك، إذ أن الرجل عندما يفقد زوجة صالحة إنما يفقد ساعداً كان يعينه في رحلة الحياة الشاقة، وأنيساً كان يبدد وحشة الطريق، وعضداً كان يعينه على تربية الأولاد، وينير عتمة الدرب وظلام الطريق.

إن الكلمة الطيبة أيها الأحبة تفعل فعلها في الأسرة لأنها تخلق أولاداً طيبين. وهذا ما يؤكد علماء النفس وعلى رأسهم فرويد، إذ أن النزاع في البيت يؤدي إلى انحراف الأطفال، وإلى خلل في عقولهم وتفكيرهم، فقد يكبرون ولكن من غير أن يكونوا راشدين. لذلك على الزوج والزوجة أن يسويا خلافاتهما بعيداً عن سمع الأولاد وبصرهم، وفي جو من الألفة والمحبة والرحمة عملاً بموجب الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(١).

وهكذا نجد أيها الأحبة أن القرآن الكريم من خلال هذه الآية التي نحن بصددتها، إنما يتدرج في معاملة المرأة الناشئة من الوعظ والكلمة الطيبة إلى الهجر في المضاجع وهو أمر صعب على المرأة وأخيراً إلى الضرب الخفيف، لا الضرب المؤذي الذي يؤدي إلى التشويه، علماً أن الضرب المبرح لا يقره الإسلام. فهذا رسول الله ﷺ يقول: «أيضرب أحدكم زوجته، ثم يظل معانقها».

إن الإسلام كرم المرأة ويدعونا إلى احترامها وتكريمها، لا كما فعل

(١) الروم: ٢١ .



بعض الرجال من تحقير زوجاتهم بشتى الوسائل التي تدل على الخفة والاستهزاء خلافاً للأخلاق الإسلامية الكريمة والمدرسة الإسلامية الأصيلة.

ألم يقل الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (١).

إن المرأة هي السكن وهي المأوى وهي الملجأ الذي يأوي إليه الرجل، فإذا كان هذا السكن مضطرباً لا يؤمن الهدوء والسكينة فإن الحياة تتقلب إلى جحيم لا يطاق. لذلك يجب أن تكون المودة هي السائدة بين الزوجين والرحمة هي اللغة المتبادلة لا سيما من الرجل تجاه المرأة مما يؤدي إلى حياة زوجية هنيئة تمتد ظلالها لتشمل الأولاد الذين ينبغي أن ينشئوا في جو حميم صالح لكل فضيلة ولكل خلق كريم.

* عمل المرأة:

بعد هذه الجولة السريعة في عالم الحقوق الزوجية، لابد من الإجابة على سؤال يتعلق بموقف الإسلام من عمل المرأة. هل يسمح لها الإسلام بالعمل أم لا؟

ومما لا شك فيه أن الإسلام لا يمنعها من ممارسة العمل، لا سيما العمل الأساسي الذي خلقت له وهو عملها الذي تمارسه داخل الأسرة، وذلك العمل الشريف الذي تقوم به في تربية الأجيال من خلال تربية

(١) الروم: ٢١ .

الأولاد فإذا كان الرجل يتعامل مع الأشياء فإن المرأة تعمل على صناعة الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض. وتلك هي أقدس وظيفة يمكن للمرأة أن تقوم بأعبائها.

وفي هذا المجال لابد من الإشارة إلى الأبواق الشرقية والغربية التي تتهم الإسلام بأنه يعمل على خنق المرأة في بيتها، وبأنه جعل منها عضواً مشلولاً داخل هذا البيت، لذلك تتعالى أصواتهم مطالبة بأن تترك المرأة لممارسة عملها في الحياة العامة كالمصنع والمعمل وغير ذلك من المجالات.

ونحن نقول لهم، إذا تركت المرأة بيتها إلى المصنع وغيره، فلماذا تترك الأطفال، رجال المستقبل؟ من يربّيهم ومن يعتني بهم ومن يلبي حاجاتهم الجسدية والنفسية؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى، هل صحيح أن المرأة المسلمة مخنوقة في بيتها؟ وهل صحيح أنها عضو مشلول في المجتمع؟

بالطبع لا، فهي تخرج إلى صلاة الجماعة، وهي تشهد المأرك والحروب فتقوم بما هو موكل إليها من أعمال خاصة، كما أن عليها طلب العلم كما الرجل تماماً، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. أما إذا أرادت الخروج للعمل في الحياة العامة فإن الإسلام يقر لها مبدأ العمل ويحفظ لها ذلك الحق: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (١).

وإذا أرادت أن تعمل في الحياة العامة فليكن لها ما تريد ولكن شرط

(١) النساء: ٣٢ .

أن تحافظ على كرامتها وعفتها من حيث كونها أنثى محترمة، لا أن تتحول إلى سلعة فيما هي أنثى كما هي الحال في المجتمعات الشرقية والغربية على حد سواء، فالإسلام لا يتساهل مع المرأة من هذه الناحية لأنها إذا باعت شرفها وكرامتها فقد ينعكس ذلك سلباً على سلامة المجتمع بكامله، والإسلام يطالبها أن تكون شريفة ومحترمة كما يطالب الرجل تماماً، إذ أن العمل الشريف مطلوب منهما كليهما.

ولكن الملاحظ اليوم أن سوق العمل تبحث عن المرأة الأنثى لكي تستغل أنوثتها. خذ ما يسمى بعمل «السكرتيرة» وراقب أي إعلان في أي صحيفة يعلن الحاجة إلى سكرتيرة ولاحظ الشروط التي يعلن عنها والتي يجب أن تتوفر فيمن يقع الاختيار عليها لكي تقوم بهذا العمل. إنك لو قرأت هذه الشروط لوجدت أنها تتعلق بالدرجة الأولى بجمالها وأنوثتها وعمرها ورشاقة قدها... إلى ما هنالك من كلام رخيص وتافه. ونحن نسأل لماذا لا يكون المطلوب «سكرتيراً» بدلاً من سكرتيرة؟ ثم، هل قرأت عن إعلان يطلب حداثة أو نجارة أو كناسة أو ما أشبه ذلك؟ لا.. وإنما فقط سكرتيرة. فلماذا لا يقولون وبكل صراحة «مطلوب عشيقة» وكفى.

ومهما يكن من أمر، إذا كان لا بد للمرأة أن تعمل في هذا المجال فليكن، ولكن بشرط أن تحافظ على حجابها وشرفها وكرامتها وأنوثتها. لأن الإسلام يعتبر المرأة جوهرة ثمينة لذلك تجده يعمل على حفظها وصيانتها بالحجاب والعلم، فهي أساس المجتمع الصالح ولا يصلح المجتمع إلا بصلاحها.

وهناك مجالات كثيرة لكي تعمل المرأة في ميادينها كالمدارس



والمستشفيات والدوائر الحكومية، والإسلام لا يرى مانعاً من أن تعمل في هذه المجالات، ولكن الشرط يبقى هو نفسه أن تحافظ على كرامتها وأن تصون أنوثتها من عبث العابثين ونظرات الجائعين والمتطفلين من الرجال الذين يعترضون طريقها، فقد كرمها الإسلام واحترمها، لذلك يجب أن تحافظ على هذه الكرامة.

وهكذا نجد أن الإسلام لم يهضم حقوق المرأة على الإطلاق خلافاً لما يقال أو يشاع في هذا المجال، فقد كرمها الإسلام طفلة وزوجة وأختاً وأماً. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «خير أولادكم البنات». وعندما دخلت إليه الشيماء أخته في الرضاعة وهو في مجلسه الكريم قام لها وأجلسها بجانبه وكرمها، والناس ينظرون ويسألون: من هذه؟ ويأتيهم الجواب: إنها أختي من الرضاعة فهي بنت حليلة السعدية. أما فيما يتعلق بتكريم الزوجة فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

كما كرم الإسلام المرأة الأم إذ يقول الرسول ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ويروى أن شاباً دخل على رسول الله قائلًا: يا رسول الله! حملت أمي مرات إلى الحج على ظهري وكتفي، فهل أدّيت حقها؟ فقال ﷺ: والذي بعثني بالحق نبياً، ما أدّيت حق طليقة واحدة. ويجب أن نعلم أن المرأة إذا ماتت في أثناء الولادة ماتت شهيدة. فهل هناك أدنى شك في أن الإسلام لا يحافظ على المرأة وحقوقها وكرامتها؟

(١) النساء: ١٩ .

* القيمومة بيد الرجل . لماذا؟

أريد أن أعود بكم أيها الأخوة مرة أخرى إلى الآية الكريمة التي نعيش أجواءها، لكي نسأل: لماذا هذه القيمومة من قبل الرجل على المرأة، لماذا الرجال قوامون على النساء وليس العكس؟

إنها القيادة، فالأسرة لابد لها من قائد ومدبر ومشرف. وهذه القيادة يجب أن تكون على أساس من العدل والحرية لا على أساس من الدكتاتورية الطاغوتية. إذ يجب أن يكون الرجل وهو يمارس هذه القيادة، رحيماً ودوداً. والأسرة هي أشبه ما تكون بحكومة مصغرة. والرجل تنكشف أخلاقه وتبدو حقيقته من خلال إشرافه على أسرته. إذ أن بعض الرجال تجدهم خارج البيت محبوبين من الناس يتميزون بأخلاق كريمة وسهلة ولكنهم يتحولون داخل بيوتهم إلى وحوش لا تطاق، أخلاقهم سيئة وتصرفاتهم تدعو إلى الاستنكار والاستهجان، علماً أن الأخلاق السيئة تكون سبباً فيما يسمى ضغطة القبر.

وفي هذا المجال يروى أن سعد بن معاذ وهو من الأنصار، قتل في معركة من المعارك الإسلامية. وعندما استشهد في تلك المعركة شيعه الرسول ﷺ بنفسه ونزل إلى قبره ووضع خده على التراب ثم أhal عليه ذلك التراب، وأم سعد تراقب ما يحدث فقالت: هنيئاً لك يا سعد.. يا ولدي.. هنيئاً لك الجنة. فالتفت إليها النبي الأعظم ﷺ وقال: مهلاً يا أم سعد! إن سعداً أصابته ضمة (أي عصرة). سألوه: لماذا؟ قال: لأنه كان سيء الخلق في عائلته.

وهكذا نجد أن الإسلام يرفض للإنسان أن يكون سيء الخلق بينما



الأخلاق الحسنة تجلب الرزق. فلماذا لا نعمل على أن نكون بعيدين عن كل خلق سيء لكي نتجنب عصرة القبر التي تحطم الأضلاع وتخمد الأنفاس ونكون من ذوي الأخلاق الحسنة التي تجلب الرزق، لا سيما في بيوتنا وأسرنا كما أمرنا رب العالمين.

* التكافؤ في الزواج:

إن الزواج سنة الله في خلقه. وبقدر ما يكون الزواج ناجحاً بقدر ما ينعكس ذلك على جو الأسرة التي تنتج عنه وبالتالي ينعكس على المجتمع برمته. والشرط الأول الذي ينبغي أن يكون متوافراً من أجل نجاح الزواج هو أن يكون هناك تكافؤ بين الرجل والمرأة. ومظاهر هذا التكافؤ ما يلي:

١ - التكافؤ العقيدي.

٢ - التكافؤ المادي.

٣ - التكافؤ الأخلاقي.

في مجال التكافؤ العقيدي يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^(١).

أي أن المشركات لا تتزوجوا منهن لأن التكافؤ من حيث العقيدة غير متوفر. إذ يجب أن تكون عقيدة الزوجة مماثلة لعقيدة الزوج، وذلك من أجل بناء الأسرة.

(١) البقرة: ٢٢١ .



ونحن نعلم أن هناك كثيراً من شبابنا الذين يسافرون إلى الخارج ولا سيما إلى الدول الغربية، يتزوجون من أجنبيات ثم يأتون بهن إلى الوطن، ثم تبدأ المشاكل المستعصية التي تؤدي إلى خراب الأسرة.

ونحن نقول: إذا كانت هذه الزوجة قد أسلمت فلا بأس من الزواج منها. أما إذا بقيت على دينها فهنا تكمن المشكلة. فمنهن المسيحيات ومنهن اليهوديات ومنهن المشركات ومنهن الكافرات الملحقات اللائي لا يعترفن بدين أو عقيدة.

إن بلادنا إسلامية، لها عاداتها وتقاليدها وأخلاقها التي لا تتسجم مع عادات الزوجة الوافدة وتقاليدها وأخلاقها. لذلك تجد الزوج إما أن يماشي الزوجة في أخلاقها وعاداتها وبذلك يخسر دينه وإسلامه وإما أن يحافظ على دينه وإسلامه وعاداته وبذلك يخسر زوجته.

وكثيرات هن اللاتي تركن أزواجهن وعدن إلى أوطانهن هاربات بالأولاد إذا أمكن مما يؤدي إلى مأس وكوارث اجتماعية يعاني منها الأزواج الذين فقدوا زوجاتهم وفقدوا أولادهم.

إن هذا الفشل ناتج عن الخلل الحاصل من عدم التكافؤ العقيدي الذي أشرنا إليه. وأنا أسأل لماذا لا يتزوج المسلم من مسلمة، ولماذا يبحث في بلاد الكفر والانحراف عن زوجة له، في الوقت الذي يجد السعادة والانسجام التام مع امرأة مسلمة يعمل وإياها على تربية الأولاد على الأخلاق الإسلامية والعادات الأصيلة؟ لماذا ينقاد هؤلاء الشباب وراء نزواتهم وشهواتهم ولا يحصدون بعد ذلك إلا الخيبة والفشل والمرارة؟ من أجل ذلك كله تجد أن الإسلام يحرم الزواج من المرأة الأجنبية المشركة.



أما في مجال التكافؤ المادي، فإن الإمام الصادق - سلام الله عليه - يقول: «الكفو أن يكون عنده دين ولديه يسار». أي أن يكون مؤمناً وأن تكون أموره ميسرة، إذ لا يجوز أن تزوج ابنتك من إنسان معدم لا يملك شيئاً لأنه لن يكون هناك استقرار. فالاستقرار شرط أساسي لتربية الأولاد، والإسلام إنما يهدف دائماً إلى بناء أسرة متكاملة.

أما التكافؤ الخلقي فيشترط أن تكون أخلاق الزوج طيبة وحميدة لئلا يتحول البيت إلى جحيم لا يطاق. يروى أن أحدهم كتب إلى الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام يقول له: يا ابن رسول الله عندي قرابة في أخلاقه سوء وخطب مني ابنتي فهل أزوجه أم لا؟ فكتب إليه الإمام: (لا تزوجه إن كان سيء الخلق) لأن سوء الأخلاق سوف يحول البيت إلى جحيم لا يطاق كما أسلفنا القول.

* أشكال الزواج وأنواعه:

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأوجد فيه مجموعة من الدوافع والرغبات والحاجات، وجعل لكل حاجة منها طريقة للإشباع والإرواء. وفي طبيعة هذه الحاجات، الحاجة الجنسية. وقد أراد الله سبحانه لعباده أن يشبعوا حاجاتهم عن طريق الحلال ورفض كل ما هو حرام. لذلك شرع الباري عزوجل للإنسان ثلاث طرق تسمح للإنسان أن يلبي حاجته الجنسية من خلالها وهي: الزواج الدائم، والزواج المؤقت، وملك اليمين. وسوف أتناول في هذه المحاضرة الشكل الثاني من أشكال الزواج عنيت به الزواج المؤقت. فما هو؟

* الزواج المؤقت:

لقد أجمع كل المسلمین من أهل القبلة من مفسرین وعلماء ومحدثین على اختلاف مذاهبهم، ومن صحابة وتابعین، على أن الزواج المؤقت (یعنی زواج المتعة) قد شرّع في عهد رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتمتعون في عهد رسول الله ﷺ وعهد أبي بكر وشطر من أيام عمر، إذ لا خلاف في هذه المسألة على الإطلاق وليس هناك في أمة الإسلام من ينكر مشروعیة هذا الزواج في الفترة التي أشرت إليها، تطبیقا للآية الكريمة القائلة: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾^(١). وهناك من يقول: إن هذه الآية نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٢).

ولهؤلاء نقول هذه الآية مكية وآية المتعة مدنية، - للماضي أن ينسخ الحاضر أو اللاحق؟ فضلا عن أن الإجماع معقود على أن زواج المتعة كان موجودا على عهد رسول الله ﷺ، وقد وردت أحاديث وروایات عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وغيرهما تؤكد هذه الحقيقة.

يقول عبد الله بن عباس: لو لم ينفه عمر عن المتعة لما زنى إلا شقي. وأنا عندما أثير موضوع الزواج المؤقت إنما أريد أن أؤكد أن هذا التشريع موجود في القرآن الكريم. وقد شرعه الله سبحانه للحالات التي تقتضي ذلك، لا سيما بالنسبة لشبابنا الذين يسافرون إلى الخارج.

(١) النساء: ٢٤ .

(٢) المؤمنون: ٥ .

على أنه يجب أن يُفهم أن الزواج المؤقت مثل الزواج الدائم، إذ يجب أن تتوفر فيه جميع الشروط ماعدا بعضها. فهو لا طلاق فيه لأنه ينتهي بانتهاء المدة المتفق عليها في العقد الذي يجرى على النحو التالي: تقول لك المرأة: زوجتك أو متعتك نفسي على المهر المعلوم والمدة المعلومة. فتقول لها: قبلت. وعندما تنتهي المدة ينتهي العقد.

على أن في الزواج المؤقت عقداً كما أشرنا، وفيه عدة وهي خمسة وأربعون يوماً، وإذا حدث حمل فالولد تابع لأبيه في الإرث وفي غيره: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(١).

لماذا نبتعد عن إثارة هذه المسألة وندفن رؤوسنا في الرمال كما تفعل النعامة. إن هذه المسألة بالرغم من مدى حساسيتها لا بد من إثارتها لأن فيها حلاً لكثير مما يتعرض له شبابنا المسافرون إلى الخارج، بل الشباب كافة. فهم إما أن يقعوا في معصية الزنا وإما أن يكون لهم حل مشروع يبعدهم عن الاستهتار والخلاعة. وهذا الحل شرعه لهم الله سبحانه وتعالى. إنه زواج مؤقت لمثل هذه الحالات التي نصِفُها بالضرورية، كحالة السفر وبعد الزوج عن زوجته، وفي حالة مرض الزوجة، شرط ألا تكون المرأة المتمتع بها متزوجة.

وإذا كان الزواج المؤقت غير موجود في أيامنا هذه فلأننا ابتعدنا عن الشرع الإسلامي. والغريب في الأمر أننا نستعجن ونستغرب هذا اللون من الزواج دون أن يكون هناك أي استغراب واستهجان للزنا والاستهتار والخلاعة.

(١) النساء: ١١ .

على أنني أدعو شبابنا إلى الإسراع الزواج الدائم، وزواج المؤقت للحالات الضرورية التي أشرت إليها آنفاً.

* ويسألونك عن المحيض:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾^(١).

إن القرآن الكريم يطرح المسائل بكل صراحة إذ لا حياء في الدين، فيجب أن نسأل لكي نتعلم. والمحيض هو الدم الذي تراه المرأة في الدورة الشهرية. وقد نهانا الله سبحانه عن الاقتراب من النساء وأمرنا باعتزالهن في أثناء الحيض لأن فيه أذى، إذ يسبب عند المرأة التهابات وأمراض يذكرها العلماء والأطباء. لذلك يجب على الرجل أن يتجنب ذلك لأنه محرم في الإسلام وتحريمه بسبب الأذى والضرر. لذلك يقول القرآن الكريم ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(٢).

* الخلاصة:

وهكذا نخلص إلى القول إن الله سبحانه وتعالى قد جعل الرجال قوامين على النساء لكي تتنظم أمور الأسرة وهذه الأفضلية لا تعني

(١) البقرة: ٢٢٢ .

(٢) البقرة: ٢٢٣ .

على الإطلاق أن الرجل أقرب إلى التقوى من المرأة، فقد تكون امرأة واحدة عابدة مجاهدة أفضل عند الله من ملايين الرجال الذين لا يصلون ولا يعبدون الله ولا يتقونه. وإذا كان هناك من تفضيل وارد في الآية الكريمة فإنما هو يعود إلى القوة التي يتمتع بها الرجل والتي يحتاجها في حياته وإلى النفقة التي تجب عليه إزاء المرأة، وإلا فإن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

(١) الحجرات: ١٣ .





في الأسرة ودور المرأة في المجتمع

المرأة في القرآن الكريم

في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (١).
وفي القرآن أيضاً: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٢).

وهنا نصطدم بحقيقة، وهي: أن القرآن يقرر أن كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان، فماذا تعني هذه الفكرة بالضبط؟ هذا هو السؤال الذي أرقني كثيراً، وأطار النوم من عيني، إذ كيف تصل المرأة إلى هذه الدرجة من الكيد، والمكر، والخديعة، بحيث يتصاغر الشيطان تحت أقدامها.. ونحن نقرأ في الفكر الإسلامي أن للمرأة دوراً حضارياً، رائداً، فكيف نجمع بين هذا وذاك؟

للإجابة، لابد من تبيان بعض الحقائق، أو قل: وضع النقاط على الحروف، وذلك أن الإسلام، لا ينظر إلى المرأة على أنها شيطان مخيف، ولا ينظر إليها على أنها ملاك وديع.. وإنما ينظر إليها، أولاً وقبل كل شيء، أنها إنسانة، وهي شقيقة الرجل في أداء رسالته، وشريكته في تحمل المسؤولية، بل أكثر من ذلك، أحياناً المرأة تكون قد قامت بعبء المسؤولية، قبل الرجل، وأسرع.

على أن هذه النظرة الإسلامية، للمرأة، إنما تتجلى، في الدور الحضاري البارز، الذي أدته المرأة، وقامت به أروع وأحسن قيام، كما

(١) يوسف: ٢٨ .

(٢) النساء: ٧٦ .

يشهد لها بذلك التاريخ، وحسن السيرة التي حفظتها لنا المرأة في
أرشيف الحياة.

ومثالي على ذلك: أن القرآن الكريم، أولاً وقبل كل شيء، يتحدث عن
المرأة بقوة، وعزيمة وصلابة، فهو- أي القرآن - إذا أراد أن يقدم
المرأة، فإنه يقدمها من موقع القوة، والانطلاق، وليس من موطن
الضعف، والجمود، ونجد ذلك واضحاً، في قصة مريم، وآسيا بنت
مزاحم، وبلقيس ملكة سبأ.. وعلى رأس الجميع نجد الوضوح في
عظمة المرأة من خلال الصديقة الكبرى، فاطمة الزهراء، سيدة نساء
العالمين، من الأولين والآخرين، -سلام الله عليها -.

أجل.. هذا هو موقف الإسلام من المرأة، وحقوقها، وحفظ منزلتها..
ومن هنا ننطلق بكم إلى نقطة بالغة الأهمية، في هذا البحث، وهي أن
المرأة شأنها في الحياة، شأن الرجل، فمنها الصالحة، ومنها دون
ذلك.. وقد ذكر القرآن الكريم، اللونين من النساء.. فواحدة مؤمنة،
ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين.. وأخرى كافرة ضرب الله بها مثلاً للكفر
والسقوط.

وكما في القرآن، كذلك في سيرة المصطفى، حيث نجد أن النبي كان
يتعامل مع نوعين من النساء، في المجتمع.. وفي الأسرة.. ففي المجتمع،
كان يتعامل مع خديجة، ويتعامل مع حمالة الحطب.. إذ تمثل الأولى
قمة الإيمان ونصرة الرسول.. بينما تمثل الثانية بؤرة الانحدار، والكفر،
والسقوط.. وهذا شيء طبيعي، يحدث في المجتمع الإنساني، لأن
المجتمع كالبحر، فيه الدرر، وفيه الجيف، على أن هذا الأمر لم يكن
مقصوراً على الناس وحدهم في المجتمع والأسرة، بل وأيضاً كان حتى

في بيت النبي، وبين بعض أزواجه.. حيث نلمس ذلك واضحاً، في سورة التحريم، فاقراًوها، تدركوا ما أقول.

إن سورة التحريم، تحدثت عن بعض زوجات النبي ﷺ اللواتي قمن بمظاهرة ضده، وكان نتيجة لهذا العمل أن صغت قلوب اثنتين من نسائه إلى الشك، والضلال، وقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة.

فقال: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. (١)
وقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

بمعنى مالت عن الإيمان، وهي عبارة صريحة، لا تحتل التأويل أبداً، صغت أي مالت إلى الكفر، ولذلك ضرب الله مثلاً للذين كفروا، في نفس السورة، امرأتين، لاثنتين من الأنبياء، وهما نوح، ولوط..

حتى لا يقول قائل: إن زوجة النبي لا يمكن أن تخطئ.. وذلك أن الخطأ لا علاقة له بزوجة نبي، أو غير نبي إلا إذا كانت تلکم المرأة معصومة، ونحن ليس عندنا من النساء معصومات، إلا مريم البتول - سلام الله عليها - والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها -.

على أنا نقرأ في ذات السورة، - سورة التحريم - أن الإيمان والعقيدة، لا علاقة لهما بعلاقة المرأة بزوجه.. لأنها أساساً، حرة ومسؤولة، عن تصرفاتها، وعن أعمالها، فمن الممكن أن تكون زوجة

(١) التحريم: ٤ .

النبي المعصوم، خائنة.. في الوقت الذي تكون فيه، زوجة طاغية من الطغاة مثل فرعون، أمينة، وطيبة، وطاهرة، وقد أشارت سورة التحريم إلى هذه الحقيقة بكل وضوح، وهي تتحدث عن المظاهرة الصاخبة، التي أخرجتها اثنتان من نساء النبي، كما هو واضح من الخطاب في السورة المذكورة، إذ جاء الخطاب مدعوماً، بألف التثنية، وليس بنون الجمع في النسوة أو ميم الجمع، إذ يقول القرآن: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ...﴾.

فجاءت الآية، بألف التثنية، ثلاث مرات.. مرة في قوله: تتوبا.. ومرة في قوله: قلوبكما.. وثالثة في قوله: تظاهرا.. الخ.. مما يدل على أن الخطاب ليس لكل النساء، وإنما هو مخصوص باثنتين فقط، وإن توجه الخطاب إلى كل نساء النبي بعد هذه الحادثة، هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم، قد انتهج في ضرب الأمثلة، بنفس الطريقة، - أعني طريقة التثنية، ليؤكد على اثنتين من النساء - فجاء بمثالين مثال للمؤمنين.. ومثال للكافرين.. ثم جعل في كل مثال، اثنتين من النساء، ففي مثال الكفار، ذكر امرأة نوح وامرأة لوط.. وفي مثال المؤمنين، ذكر آسية بنت مزاحم، ومريم البتول، وهاكم اقرأوا هذه الآيات، لأحدثكم بعدها بالسر، والمناسبة.

يقول القرآن في ذلك: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (١).

(١) التحريم: ١٠ .

هذا في المثال الذي ضربه القرآن الكريم للذين كفروا.. أما المثال الذي جاء في الإيمان والعمل الصالح، والنساء المؤمنات الصالحات فيقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. (١)

ويتابع القرآن في المثال الثاني فيذكر مريم البتول بقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. (٢)

أجل، لأن الله أمرها أن تكون من القانتين، فكانت من القانتين، عندما أحصنت فرجها بالعفاف، وصدقت كلمات ربها، باليقين.

أما السر الكامن، في أن تكون زوجة فرعون مؤمنة، وزوجة النبي كافرة، فإنه لتبيان حقيقة أن المرأة تتمتع بحرية في العقيدة، مطلقة، بحيث لا النبي في إمكانه أن يفرض عقيدته على زوجته، ولا فرعون في إمكانه أن يفرض كفره على زوجته، لأن المرأة أساساً، كانت حرة في عقيدتها وفي دينها، وهكذا خلقها الله سبحانه فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾. (٣)

إلى هنا فقط ويترك القضية هكذا.. للرجل والمرأة، وإنما فقط

(١) التحريم: ١١ .

(٢) التحريم: ١٢ .

(٣) البقرة: ٢٥٦ .

يبين، أن الإيمان ينتهي إلى النعيم.. في حين أن الكفر ينتهي إلى النار والجحيم.

هذا هو السر الكامن في عرض نموذجين للمرأة.. أما المناسبة التي دعت الحق أن يذكر هذه الحقيقة هنا، وبالذات في سورة التحريم، فهي لتوضيح المرأتين اللتين كانتا وراء هذه المظاهرة العدوانية، ضد الرسول، والتي اقتضت كل هذا الاهتمام، بحيث تحركت كل قوى الكون، في دعم النبي ونصرته، بما في ذلك جبرئيل، وصالح المؤمنين، وجحافل الملائكة.. أقول : أراد القرآن الكريم، في هذه السورة بالذات، أن يبين من هما المرأتان، اللتان، كانتا وراء هذا الانفلات من قيود الإيمان، والعقيدة.

وأنت من دون أن تراجع كتب التفسير، والحديث لمعرفة المرأتين، فإنك إذا نظرت إلى سيرة نساء النبي، ومعاملتهم للحبيب المصطفى، فإنه لا يقع اختيارك إلا على اثنتين فقط، وهما : عائشة وحفصة.. تدل على ذلك سيرتهما الذاتية.. هذا بالإضافة إلى أن كتب التفسير، والحديث حافلة بذكر هذه الحقيقة، وأن بطلي القصة هما : عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وذلك أن مواقف هاتين السيدتين واضحة جداً، وليس عليها غبار، فعائشة يوم كانت في بيت النبي، كانت تختلق المشاكل، وتفتعل الأحداث مع أعز الناس لرسول الله ﷺ مع التي كان النبي ﷺ المصطفى يستقبلها، إذا أقبلت عليه، مرحباً بها، بقوله: مرحباً بأُم أبيها...

فعن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - قال: دخل رسول الله ﷺ منزله، فإذا عائشة



مقبلة على فاطمة تصايحها، وهي تقول: والله يا بنت خديجة ما ترين إلا أن لأمك علينا فضلاً، وأي فضل كان لها علينا؟ وما هي إلا كبعضنا!!

فسمع النبي مقالته لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول الله ﷺ بكت، فقال: ما يبكيك يا بنت محمد؟ قالت: ذكرت عائشة أُمِّي فنقصتها فبكيت. فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: مَهْ يا حميراء! فإن الله تبارك وتعالى بارك في الودود الولود وإن خديجة - رحمها الله - ولدت مني طاهراً - وهو عبد الله - وهو المطهر، وولدت مني القاسم، وأنتِ ممن أعقم الله رَحِمَهُ. فلم تلدي شيئاً.

ومهما يكن من أمر، فإن الأخبار الواردة عن سيرة عائشة، وحفصة، فيها ما يكفي لإثبات هذه الصورة، ورسوخها في الذهن، ومن الأخبار: أنه كانت هناك كوة في بيت فاطمة، وكانت عائشة تطل من هذه الكوة على بيت فاطمة فلما علمت فاطمة الزهراء بذلك أخبرت أباها رسول الله ﷺ فقام وأغلق تلك الكوة.

أما فرح عائشة وسرورها، في يوم وفاة الزهراء، فهو معروف لا يستطيع أحد أن يخفيه أبداً، كما ذكر ذلك، الكاتب الكبير، والباحثة عمر كحالة، في كتابه: أعلام النساء، وكنت قد ذكرت هذا الموضوع، بأكثر من مناسبة في هذا الكتاب فراجع.

ومن هنا يظهر واضحاً، أن القرآن الكريم، يعرض صورتين للمرأة تماماً كما هو الحال بالنسبة للرجل، صورة الإيمان.. وصورة الكفر..

على أن النوع الثالث وهو النفاق، فهذا ليس محله هنا، وإنما سيأتي بحثه إن شاء الله، في مكان آخر، من هذا الكتاب.

ومن هذا المنطلق، أيضاً نقرأ في نهج البلاغة، أقوالاً للإمام علي عليه السلام تصف المرأة - تارة - بأنها ريحانة، وطورا، تصفها بأنها شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها.

على أننا نستطيع أن نفرز هذه الأقوال، فنذكر ما يرمى إليه قول أمير المؤمنين، وذلك بقليل من التأمل والتدبر.

أجل.. إن نظرة واحدة، نلقيها على كلمات الإمام علي عليه السلام هذه التي تصف المرأة بالصالح مرة، ومرة تصفها بالعدوانية والشر، أقول: إن نظرة واحدة، تكفي لكشف الحقيقة، وهي: إن كل كلمة تحمل مفهوماً، يختلف عن الآخر.. فواحدة تقصد المرأة، ذات المنبت السوء، وأخرى تقصد المرأة، التي أنبتها ربها، نباتاً حسناً، وعلى هذا الأساس، يمكن تفسير كل كلمات الإمام علي، التي جاءت في هذا المسعى، من قبيل قوله: إن النساء نواقص العقول. أو قوله: المرأة كالضلع المعوج، وما شابه هذه الأحاديث.. فأحياناً كثيرة، كان الإمام علي عليه السلام، يتحدث عن المرأة التي خرجت، لقتاله ومحاربته في البصرة.. وهي عائشة.. وكان غاضباً عليها، لأن مكانها ليس الحرب والمعركة، وإنما هو البيت، والحجاب والأسرة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (١).

المهم.. وبعد هذه الجولة، في دنيا المرأة، نعود، إلى أصل البحث

(١) الأحزاب: ٣٣ .

وهو: كيف جاء في القرآن الكريم: أن كيد الشيطان ضعيف، وكيد المرأة عظيم.

والإجابة عن هذا السؤال، أضحت واضحة، وجلية، بعد الذي تقدم من البحث.. إذ بات واضحاً أن النساء اللواتي وصفهن القرآن بأن كيدهن عظيم، إنما هن اللواتي غرقن في الشهوات، وضيعن الصلاة.. يدل على ذلك أن الآية التي وصفت النساء، بأنهن ذات كيد عظيم، إنما جاءت في قصه يوسف، والنساء اللواتي راودن يوسف عن نفسه معروفات سلفاً من هن.. الأولى، كانت زليخا، وهي السيدة الأولى في المجتمع آنذاك.. بينما الأخريات كن نساء شخصيات كبيرة في الدولة، على مستوى الرؤساء والملوك والوزراء، وذلك في المجتمع المصري أيام يوسف الصديق، وكان الحاكم في مصر الملك العزيز، كما يصرح بذلك القرآن الكريم.

إذن: فالمسألة خاصة، بطبقة معينة من النساء، وهن النساء الكافرات اللواتي كن يعبدن الأصنام كما هو معروف وليس كل النساء، لأن القرآن، بالنسبة لبقية النساء يصفهن بالإيمان والصلاح، ويقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

ثم في القرآن آيات تخاطب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات على حد سواء.

وفي القرآن سورة باسم سورة النساء.. وسورة مريم، وسورة المجادلة، والتحريم، وسورة النور، وكثير من السور التي جاءت تعالج مشاكل المرأة، وتصور الدور الحضاري، الذي تقوم به المرأة في الحياة.



إذن : فحين يصف القرآن كيد النساء بأنه عظيم، فإنه لا يقصد كل النساء، وإنما نساء معينات، ومعروفات، في زمان ومكان معينين.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، فإننا نجد أن المرأة - بصورة عامة - تستطيع بفتنتها، وقدرتها على الإغراء، أن تصنع الأعاجيب، وتفعل في الرجال ما لا يستطيع الشيطان أن يفعله.. فمثلاً، غريزة الجنس تعتبر أقوى غريزة، وأشرس غريزة في الإنسان، وهي مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً وحاداً بالمرأة ووجودها.. وليس بالشيطان، يدل على ذلك، أن الشيطان مهما كان ماكراً، ومخادعاً، إلا أنه لا يستطيع أن يجر ضحاياه إلى حبائله، إلا عن طريق المرأة، وطبعاً، عندما أقول: المرأة، فإنني أقصا، المرأة غير الملتزمة، وليس المرأة المؤمنة التي تخاف الله، وتخشاه.

وهذا هو المعنى الذي أردنا أن نورده هنا في هذا المجال.

أما تكريم الإسلام للمرأة، فيكفي أن أنقل إليكم هذه الحزمة من الأحاديث المضيئة بنور النبوة، وعطر السماء، التي وردت في احترام الإسلام للمرأة، وحرصه على حقوقها، وهي - أي هذه الأحاديث - تبين رأي النبي محمد ﷺ بالمرأة.



رأي النبي في المرأة

ننقل إليكم فيما يلي جملة من الأحاديث الشريفة المرتبطة بمختلف شؤون المرأة:

* عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

قال رسول الله ﷺ: نعم الولد البنات، ملطفات، مجهزةات، مؤنسات، مباركات، مفليات.

* وعن أبي عبد الله عليه السلام قال:

قال رسول الله ﷺ: من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة، فقيل: يا رسول الله، واثنتين، فقال: واثنتين، فقيل: يا رسول الله، وواحدة، فقال: وواحدة.

* وعن النبي ﷺ أيضاً قال: من كن له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن كن له حجاباً يوم القيامة.

* وعن ابن فهد في عدة الداعي قال:

قال رسول الله ﷺ: من عال ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات وصبر على لأوائهن حتى يأتين على أزواجهن أو يمتن فيصرن إلى القبور كنت أنا وهو في الجنة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى، فقيل: يا رسول الله واثنتين، قال: واثنتين، قيل: وواحدة، قال: وواحدة.



* وعن حمزة بن حمران في حديث قال:

أتى رجل وهو عند النبي ﷺ فأخبر بمولود أصابه فتغير وجه الرجل، فقال له النبي ﷺ: ما لك؟ فقال: خير، فقال: قل، قال: خرجت والمرأة تمخض، فأخبرت أنها ولدت جارية، فقال النبي ﷺ: الأرض تقلها، والسماء تظلها، والله يرزقها، وهي ريحانة تشمها.

* وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:

قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى على الإناث أرق منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرحه الله يوم القيامة.

* وعن رسول الله ﷺ أنه قال: من كان له ابنة فالله في عونه ونصرته وبعثته ومغفرته.

* وعنه ﷺ قال: من عال ثلاث بنات يُعطى ثلاث روضات من رياض الجنة، كل روضة أوسع من الدنيا وما فيها.

* وعنه ﷺ قال: من كانت له ابنة واحدة كانت خيراً له من ألف حجة وألف غزوة وألف بدنة وألف ضيافة.

* وعنه ﷺ أنه قال: نعم الولد البنات المخدرات، من كانت عنده واحدة جعلها الله له سترًا من النار، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله بهما الجنة، ومن كن ثلاثاً أو مثلهن من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة.

* وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: خير أولادكم البنات.



* وعنه عليه السلام أنه قال: ما من بيت فيه البنات إلا نزلت كل يوم عليه اثنتا عشرة بركة ورحمة من السماء، ولا تنقطع زيارة الملائكة من ذلك البيت، يكتبون لأبيهم كل يوم وليلة عبادة سنة.

* وفي حديث عنه عليه السلام أنه قال: من عال واحدة أو اثنتين من البنات جاء معي يوم القيامة كهاتين، وضم إصبعيه.

* وعن ابن عباس قال:

قال النبي عليه السلام: من دخل السوق فاشتري تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، فليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنه من فرح ابنة فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقر بعين ابن فكأنما بكى من خشية الله، ومن بكى من خشية الله أدخله جنات نعيم.

* وقال عليه السلام: من كان له أنثى فلم يبعدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة.

* وعن النبي عليه السلام قال: خيركم خيركم لنسائكم وبناتكم.

* وعنه عليه السلام قال: ما زال جبرائيل يوصيني في أمر النساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن.

* وعنه عليه السلام أنه قال: المرأة ريحانة وليست بقهرمانة.

* وعنه عليه السلام أنه قال: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول.

* وعنه عليه السلام أنه نهى أن يشبع الرجل ويגיע أهله.

* وفي حديث الحولاء بعد ذكر حقوق الرجال على النساء قالت:

فما للنساء على الرجال؟ فقال عليه السلام: أخبرني أخي جبرائيل، ولم يزل



يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها أف، يا محمد اتقوا الله عز وجل في النساء فإنهن عوان بين أيديكم، أخذتموهن على أمانات الله عز وجل لما استحللتم من فروجهن بكلمة الله وكتابه من فريضتي وسنتي وشريعة محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فإن عليهن حقاً واجباً لما استحللتم من أجسامهن، ولما واصلتم من أبدانهن، ويحملن أولادكم في أحشائهن، حتى أخذهن الطلق من ذلك، فأشفقوا عليهن وطيبوا قلوبهن حتى تقفن معكم، ولا تكرهوا النساء ولا تسخطوا بهن، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا برضاهن وأهلهن.

* وعن ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتى رسول الله ﷺ في ليلة ثلاثون امرأة كلهن تشكو زوجها، فقال رسول الله ﷺ إما أن أولئك ليسوا من خياركم.

* وعنه عليه السلام قال: الرجل راع على أهل بيته، وكل راع مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على مال زوجها، ومسؤولة عنه.

* وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال:

بعث إلي أبي الحسن موسى عليه السلام بوصية أمير المؤمنين عليه السلام وساق الوصية إلى أن قال: الله الله في النساء وما ملكت أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به نبيكم - صلى الله عليه وآله وسلم - أن قال: أوصيكم بالضعيفين: النساء، وما ملكت أيمانكم.

* وفي جملة من الروايات زيادة بر الأم على الأب، وذلك لوضوح أن الأم عاطفة تحتاج إلى مزيد من العناية، وفي رواية عن علي بن الحسين - عليهما السلام - قال:



جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما من عمل قبيح إلا قد عملته، فهل لي من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: فهل من والدك أحد حي؟ قال: أبي. قال: فاذهب فبره، قال: فلما ولى قال رسول الله ﷺ: لو كانت أمه.

* وعن النبي ﷺ قال: الجنة تحت أقدام الأمهات.

* وقال ﷺ: إذا كنت في صلاة التطوع فإن دعاك والدك فلا تقطعها، وإن دعتك والدتك فاقطعها.

* وعن النبي ﷺ أن رجلاً جاءه فقال له: من تبرر؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أباك، ثم الأقرب فالأقرب.

* وفي حديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ما حق الوالد؟

قال: أن تطيعه ما عاش. فقيل: وما حق الوالدة؟ فقال: هيهات هيهات،

لو أنه عدد رمل عالج، وقطر المطر، أيام الدنيا قام بين يديها ما عدل

ذلك يوم حملته في بطنها.

* وفي حديث أنه قال له ﷺ رجل: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أمك.

قال: ثم من؟

قال: أبوك.



الرجل والمرأة من نفس واحدة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (١).

* المدخل:

في بعض الأحيان يحدث لون من ألوان الاضطراب الفكري والتشويش العقلي في فكر الإنسان المسلم فيما يتعلق ببعض المفاهيم الإسلامية والمسائل المتعلقة بعقيدته مما يسبب له بلبلة تترك شيئاً من الضبابية وعدم الرؤية الواضحة في ذهنه وتفكيره.

إن هذه البلبلة الفكرية مردها إلى ما يجده من تناقض ظاهري لدى اطلاعه على بعض الأقوال أو الآراء التي يجد فيها ما يجعله عرضة للشك لا سيما عندما يجد أن بعضها يناقض ولو في الظاهر البعض الآخر، فيقف أمامها حائراً دون أن يجد حلاً أو شاطئاً أمان يلجأ إليه في عملية إبحاره.

وأكثر المسائل التي يقف منها الإنسان المسلم مثل هذا الموقف المضطرب هي مسألة المرأة وما يتبعها ويتعلق بها من شؤون الأسرة وعلاقتها بالرجل، مما يترك بصماته الواضحة والمؤثرة، على العلاقات الاجتماعية بكاملها.

(١) النساء: ١ .

فمثل هذا المسلم يقرأ تارة أن الإمام علياً عليه السلام يقول: «المرأة ريحانة»، ثم يقرأ في مكان آخر أن الإمام علياً نفسه الذي جعل المرأة ريحانة، يقول: «المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها». لذلك تجده يقف حائراً مضطرباً أمام هذا التناقض الظاهر في كلا القولين فلا يدري أيهما يصدق، مما يترك أثره على مسلكه مع المرأة بشكل عام ومع زوجته بشكل خاص.

إن هذا اللون من التناقض ولو ظاهرياً يستدعي إعادة النظر في عملية الطرح للقضايا الإسلامية لا سيما المسائل التي تتصل بحياة الإنسان ومسلكه وحركته، علماً أننا نفتقر اليوم إلى الطرح الحضاري للإسلام. وهذا يتطلب وعياً كاملاً وشاملاً يجب أن يتحلى به أولئك الذين يتصدون لهذا العمل الرسالي الخطير، وإلا سوف يؤدي الطرح السيئ إلى مزيد من سوء الفهم للعقيدة الإسلامية السمحاء التي جاءت في الأصل لخلاص البشرية ونجاتها.

* منشأ الاضطراب في تفكير المسلم:

إن منشأ هذا اللون من البلبلة يعود إلى عدم التفريق بين نوعين من القضايا والمسائل اصطلاح علماء الأصول والفلسفة والمنطق على تقسيمها إلى لونين: قضايا حقيقية ثابتة وقضايا خارجية غير ثابتة. وبتعبير آخر: قضايا عامة شاملة لا تتغير وقضايا ظرفية تتعلق بحدث ما وزمان ومكان معينين. وإليك ما يوضح ذلك.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ



فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿١﴾

إن القضية التي تطرحها الآية الكريمة هي توضيح وتبيان لنفسية الطاغية وكيف ينشأ الطغيان في نفسه.

ومع ذلك فهي تنقسم إلى قسمين: قضية خارجية وقضية حقيقية ثابتة. أما القضية الخارجية فهي ظرفية تتعلق بسبب نزول الآية. فهي نزلت في رجل يدعى الأخنس بن شريق، جاء إلى النبي ﷺ على رأس عشيرته فأعلن إسلامه ثم ترك الرسول بعد ذلك ليتحول إلى مفسد يعيش في الأرض فساداً يهلك الحرث والنسل دون أي رادع نفسي.

هذا ما يتعلق بسبب نزول الآية فيما كونها قضية خارجية ظرفية تتعلق بحادثة معينة حدثت في زمن معين ومكان معين. ولكنها تتضمن قضية حقيقية مفادها أن لها مدلولاً عاماً يترك الواقع والزمان والمكان لكي ينطبق على كل طاغية وعلى كل ظالم وعلى كل إنسان منافق ومنحرف في أي زمان وأي مكان.

ولكي تكون المسألة أكثر وضوحاً أضرب لكم مثلاً آخر. يقول الله سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

إن في هذه الآية الكريمة قضية حقيقية مفادها: إذا ثبتت شروط السرقة على إنسان اعتدى على حقوق الآخرين، تقطع يده. وهي قضية عامة على أساس أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥ .

ومع ذلك فهي تتضمن قضية خارجية وهي أنه في زمن المجاعة لا تقطع الأيدي. فلو كان هناك رجل فقير لديه أطفال جوع وسرق رغيفاً لكي يطعمهم فأنت لا تقطع يده، باعتبار أن هذه القضية لا تخضع للحكم العام المفهوم من الآية الكريمة باعتبار أنه للضرورة أحكام. أي أن هناك مبررات وظروفاً قاهرة.

* الإسلام يكرم المرأة:

إذا صار واضحاً لدينا أن منشأ الاضطراب عندنا فيما يتعلق بالأسرة والمرأة وحقوقها هو أننا لا نفرق بين هذين اللونين من القضايا الحقيقية الثابتة والقضايا الخارجية. وبالتالي فإن قول الإمام علي عليه السلام: «المرأة ريحانة» هو من باب القضايا الحقيقية الثابتة. لا سيما أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن الرجل والمرأة يتناولهما على أساس أنهما من نفس واحدة وعلى أساس أنهما كليهما مكلف فهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (١).

باعتبار أن الأوامر موجهة للرجال والنساء على حد سواء.

ومن هذا المنطلق نحن نرفض مقالة من يقول: إن الشيطان قد أغرى حواء، وحواء أغرت آدم، لكي يجعل المسؤولية عليها. لأن القرآن الكريم كان صريحاً وواضحاً عندما قال: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (٢).

(١) النساء: ١ .

(٢) الأعراف: ٢٠ .



فالضمير يعود عليهما كليهما ﴿فَدَلَاهُمَا﴾. (١)

أي أن الوسوسة من الشيطان لم تكن لحواء دون آدم. إن أصحاب هذه المقالة يريدون الوصول إلى التأكيد على أن الشيطان يصل إلى الرجل عن طريق المرأة. وقطعاً هذا غير صحيح.

والإمام علي عليه السلام عندما يقول: «المرأة ريحانة» إنما يطابق القرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾. (٢)

لأن الإسلام قد أسند إلى المرأة وظيفتين. الوظيفة الأولى تتعلق بالأسرة والثانية تكليفية اجتماعية تجعلها مسؤولة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو الرجل تماماً. يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. (٣)

فلو كانت المرأة في الإسلام دون الرجل مرتبة أو منزلة لما أسند إليها هذه الوظيفة الرسالية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن من يتصدى لهذه المهمة الرسالية يجب أن يكون على قدر المسؤولية.

إن القرآن الكريم عندما يتحدث عن المرأة يحفظ لها منزلة محترمة ومكانة لائقة ويكرمها لا كما يتصرف بعض الرجال عندما يتحدثون عن المرأة بفوقية ذميمة فيجعلونها غير أهل للثقة. إذ كيف يسمح

(١) الأعراف: ٢٢ .

(٢) الفتح: ٢٥ .

(٣) التوبة: ٧١ .

هؤلاء الرجال لأنفسهم أن ينظروا إلى المرأة مثل هذه النظرة الخاطئة في حين أن الإسلام أسند إليها تربية الأسرة والأولاد من جهة وأسند إليها مسؤولية رسالية من جهة أخرى.

وإذا كانت المجتمعات الحديثة قد أعطت للمرأة حق الانتخاب فإن الإسلام كان سباقاً في هذا المجال ومنذ انطلاقة الأولى حيث يقول القرآن الكريم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ (١).

فهل الرجال فقط هم الذين بايعوا الرسول ﷺ؟ ويوم غدیر خم هل الرجال فقط هم الذين بايعوا الإمام علياً عليه السلام؟ ومن هنا ضرورة أن نعالج مثل هذا الاضطراب في المفاهيم لكي نضع حداً لكل هذه الهجمة الشرسة والخبیثة على الإسلام.

* صورة المرأة في القرآن الكريم:

إن أفضل مرجع نعود إليه لكي نقف في وجه الحملة المسعورة التي تريد النيل من الإسلام، هو القرآن الكريم الذي أنزل على نبي الرحمة ليكون فيه هدى للناس جميعاً رجالاً ونساءً دون أي تفريق إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٢).

وإذا ما حاولنا أن نرسم صورة للمرأة من خلال القرآن الكريم نجدها عاقلة لبیبة فطنة، تحسن التصرف. ومن النماذج النسائية التي

(١) الممتحنة: ١٢ .

(٢) النساء: ١ .

وردت في القرآن الكريم السيدة بلقيس ملكة سبأ التي تزوجها النبي سليمان عليه السلام. فقد صورها القرآن الكريم على أنها امرأة حاكمة في قمة الحنكة السياسية والوعي من غير أن تكون متسلطة أو مستبدة برأيها. إذ عندما ورد لها كتاب النبي سليمان عرضت أمرها على مستشاريها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (١).

فهي تشرك الآخرين بالرأي دونما أي تحكم أو تسلط أو مصادرة لحرية الرأي كما نشهد ذلك لدى حكامنا اليوم.

لكن مجلس المستشارين، نظراً للثقة التي يولونها إياها، تركوا الأمر إليها قائلين: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ (٢).

على أساس أنهم يقرون بأنها مقدمة عليهم بقوة العقل وحسن الإدارة وفن الحكم. فرأت أن تبعث لسليمان بهدية لتختبر ردة فعله وتنتظر ماذا يكون من أمره بعد ذلك.

وكانت ردة فعل النبي سليمان أن صمم على أن يأتي بعرشها: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ (٣).

(١) النمل: ٣٢ .

(٢) النمل: ٣٣ .

(٣) النمل: ٣٨-٣٩ .

وعندما اعتبر النبي سليمان ذلك الوقت طويلاً: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ
الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ
فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ (١)

وقبل أن تصل بلقيس قال سليمان: ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ
أَتَهْتَدِي ۖ ﴾ (٢)

ولما وصلت قيل لها: أهكذا عرشك فوقفت حائرة لأن عرشها تركته
في سبأ، وهو يشبهه كثيراً برغم التغيير الذي طرأ عليه: ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ
هُوَ ۖ ﴾ (٣)

وقبل أن أمضي في ضرب الأمثلة القرآنية التي تعطينا صورة
حقيقية للمرأة، أود أن أشير إلى ذلك الذي عنده علم من الكتاب وهو
آصف بن برخيا لأقول إن لديه جزءاً يسيراً من الاسم الأعظم ومع ذلك
استطاع أن يأتي بعرش بلقيس من سبأ في اليمن إلى القدس في
فلسطين قبل أن يرتد طرف النبي سليمان. فإذا كان هذا العبد الصالح
يمتلك هذه القدرة العجيبة بفضل بعض الاسم الأعظم فلماذا يعجب
البعض فلا يصدق أن الإمام علياً عليه السلام قد ذهب إلى المدائن لتفصيل
سلمان الفارسي - رضوان الله عليه - في ليلة واحدة، علماً أن أمير
المؤمنين عنده علم الكتاب لا بعضه كما هي الحال مع آصف بن برخيا.

(١) النمل: ٤٠ .

(٢) النمل: ٤١ .

(٣) النمل: ٤٢ .

ومن النماذج النسائية في القرآن الكريم التي تتمثل فيها قوة العقيدة والإيمان، آسية زوجة فرعون الذي كان طاغية. فقد رفضت حياة القصور ومجتمعها المخملي الارستقراطي طلباً لمجاورة الله سبحانه وتعالى دون أن يؤثر فيها تعذيب فرعون بكل ألوانه الوحشية. ولكنها كانت تواجه ذلك بابتسامة فيها كل عناد المؤمنين لأن روحها بقيت قوية صامدة، وقد ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. (١)

طالبة مجاورة الله سبحانه لأنها تفضل ذلك على قصور الكفر.

ولن ننسى أيضاً أن المرأة خرجت يوم أحد مع رسول الله ﷺ لتداوي الجرحى. والزهاء - سلام الله عليها - تضمد جراح أبيها وبعلاها وهو يهز السيف قائلاً:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بمليم

وهكذا نجد أن المرأة في الإسلام قوية تلعب دوراً هاماً. وهذا معنى قول الإمام علي عليه السلام «المرأة ريحانة». أما قوله: «المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها» فهي قضية خارجية ظرفية تتعلق بامرأة معينة في زمان معين ومكان معين.

* مسألة الحقوق:

بعد هذه الجولة التي تأكد لنا فيها أن الإسلام يكرم المرأة، وأن

(١) التحريم: ١١ .

الصورة التي ظهرت بها من خلال القرآن الكريم هي صورة بيضاء ناصعة لا تشوبها شائبة، أريد أن أطرح مسألة الحقوق والواجبات بالنسبة للإنسان المسلم رجلاً كان أو امرأة، زوجاً كان أم زوجة. ولسوف أبدأ بمسألة الحقوق.

إننا بادئ ذي بدء لن نلتفت إلى وثيقة حقوق الإنسان العالمية لأننا لسنا بحاجة إليها طالما أن الإسلام يضمن حقوق الإنسان باعتبارها حقوقاً فطرية. لأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان جعل له حقوقاً وأوجب عليه واجبات. فالإنسان الذي يمتلك معدة وجوارح وأعضاء معرض للجوع، ومن حق الإنسان الجائع أن يأكل وهذا حق فطري من حقوقه لا يحتاج إلى وثيقة.

والإنسان الذي يولد وينزل من بطن أمه عارياً من حقه أن يكون له لباس يكسو عريه. وعقل الإنسان الذي يحتاج إلى علم من حقه أن يتعلم فليس هناك من يمنعه عن طلب العلم الذي جعله الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة. كما أن الله سبحانه وتعالى قد جعل للإنسان عينين ومن حقهما القراءة والكتابة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾. (١)

بخلاف الحيوانات برغم أن لها عينين، فالله سبحانه الذي جعل للإنسان عينين أمره أن يقرأ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. (٢)

كما أن الشفتين واللسان تفرض عليك تقديم العلم للآخرين. فالعين

(١) البلد: ٨ .

(٢) العلق: ١ .

والشفة واللسان أدوات حضارية ويجب أن تستخدم في هذا المجال:
﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾. (١)

وكل هذا يتوج بالحرية التي هي حق فطري من حقوق الإنسان لأنها تتوافق والفطرة التي فطره الله عليها. لذلك يجب أن يمارس الإنسان حريته في حدود الشريعة الإسلامية السمحاء.

* الحقوق رهن بوجود الأداة:

إن أهل المنطق والأصول في الفقه يقولون: «السالبة بانتفاء الموضوع». فما معنى ذلك؟ وما علاقته بموضوع الحقوق الذي نحن بصدد الكلام فيه؟

إن المقصود «بالموضوع» هو الأداة والوسيلة، أي أن وجود الأداة أو الوسيلة يخلق لك حقاً من الحقوق، فإذا انتفت الأداة أو انعدم وجودها، انتفى الحق. وتوضيحاً لذلك أقول إذا وجد مثلاً الميكروفون أصبح من حقك الكلام عبره، فإذا لم يكن موجوداً انتفى حقك في الكلام.

وقل مثل ذلك عن الراديو، فهو أداة لإيصال الرأي إلى أوسع فئة من الناس، وبانعدامه ينعدم هذا الحق. وكذلك الصعود إلى القمر مرهون بوجود السفينة الفضائية: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. (٢)

(١) البلد: ٨-٩ .

(٢) الرحمن: ٣٣ .

فالتفاد من أقطار السماوات والأرض مرهون بوجود السلطان الذي هو الوسيلة. فإذا انعدم وجود السفينة الفضائية انعدم الحق.

فلو طبقنا هذه القاعدة على الإنسان لوجدنا أنه ما من طاقة فيه أو ميزة إلا ولها في الخارج حق يلائمها. فالحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان وكرمه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. (١)

فجعل له عزيزاً، لذلك أصبح التكريم حقاً من حقوقه ولا يحق لأحد كائناً من كان أن يسلبه هذا الحق الطبيعي الذي زوده به رب العالمين. باعتبار أن الإنسان كرمه الله سبحانه، وما دام كريماً فلا بد له من هذا الحق، حق التكريم.

لذلك تجد الإسلام يقول لك: أيها الإنسان اعلم أن لك حقوقاً ويجب عليك أن تطالب بها. فإذا سكت عنها فأنت مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى. فالإسلام لا يريدك خائفاً ذليلاً. أي لا تدر خدك الأيسر لمن ضريك على الأيمن لأنه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. (٢)

فالإسلام يريدك أن تسعى خلف حقك.

وهذا ما فعلته الزهراء - سلام الله عليها - عندما خرجت من بيتها ووقفت في مسجد أبيها رسول الله ﷺ فألقت خطبتها المدوية مطالبة بحقها لأنه حق الإسلام والمسلمين جميعاً، بل هو حق الله سبحانه.

(١) الإسراء: ٧٠ .

(٢) فصلت: ٣٤ .

وقد أرادت بذلك أن تعلمنا أن الحقوق تؤخذ ويطلب بها دون أن يسكت عنها .

* الواجبات:

ولكن يجب أن نعلم أيها الأحبة أن الحقوق متبادلة، أي كما لك حقوق فعليك واجبات. وإذا كنا قد فصلنا القول في الحقوق وقلنا إن حق البدن الطعام واللباس والسكن وهذا ما ضمنه الله سبحانه لآدم فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٩)﴾. (١)

فإن هذه الحقوق تفرض عليك واجبات تجاه من أمنها لك. فالحاكم الذي وفر لك حق البدن من طعام وشراب ولباس وحق الروح من أمن وحرية، له عليك حق الطاعة مقابل ذلك. ومن هنا قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾. (٢)

إن الآية الكريمة قد فرضت على الناس واجب العبادة والطاعة. ولكن على أي أساس كان هذا الفرض؟ لقد كان بعد توفير الحقوق، حقوق البدن في الطعام لسد الجوع، وحقوق الروح في الأمن لرد الخوف. لذلك كان على الناس طاعة رب العالمين الذي أمن لهم مزيداً من الحقوق المادية والمعنوية التي هم بأمس الحاجة إليها في حياتهم الدنيا.

(١) طه: ١١٨-١١٩ .

(٢) قريش: ٣-٤ .

* حق الحرية ورفض الذل:

إن هذا الأمن الذي وفره رب العالمين في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾، يمنع أيا كان أن يسلبك أمنك وحریتك. ولو فعل فهو معتد أثيم يخالف أوامر الله سبحانه، لا سيما عندما تؤخذ من بين أحضان أطفالك وزوجتك ليرمى بك في غياهب السجون ثم يخضعونك لكل ألوان التعذيب لأنك عبرت عن عقيدتك وعما تؤمن به مما يخالف أهواءهم.

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا أحراراً ومنع علينا أن نكون عبيد غيره وأن نقول كلمة الحق دون أن نخاف في الله لومة لائم، ولكن القاعدة في شرقنا مع الأسف هي:

يا قوم لا تتكلموا	إن الكلام محرّم
ناموا ولا تستيقظوا	ما فاز إلا النوم

هذا على أن الله سبحانه قد حفظ للإنسان كرامته وآدميته ورفض أن يكون خائفاً ذليلاً. إن الله سبحانه يأمرنا برفض الذل أو ما يؤدي إليه. فماء الوضوء مع الذل مرفوض، وعليك أن تتيمم بالتراب مع العزة وترفض ذلك الماء لأن الصلاة في الأساس هي عزة ورفض للذل.

من أجل كل ذلك تجد أن الحاكم الذي يطلب منك الطاعة عليه أن يوفر لك الحقوق فلا طاعة بدونها. وكذلك الزوج إذا لم ينفق على زوجته ولم يوفر لها الحقوق المفروضة عليه، يسقط حقه في الطاعة. لأن الطاعة مبنية على أساس الإنفاق والحقوق فإذا انتفت الحقوق سقطت بالتالي الطاعة.



* الإسلام يصون حقوق المرأة:

ليس كالإسلام ما يمكن أن يحفظ للمرأة حقوقها مهما كان عنوانها . فهو يصون كرامتها من خلال شريعته السمحاء التي تتناول كل حق من هذه الحقوق، حتى في مسألة عقد الزواج. إذ أن من الشائع عند معظم الناس أن عقد الزواج لا يصح إلا بإذن من ولي أمرها .

وتوضيحاً لهذه المسألة أقول: إن عقد الزواج بين الرجل والمرأة يصح بدون إذن الأب أو من ينوب عنه. فالمرأة الثيب لا إشكال في كونها لا تحتاج إلى إذن وليها . أما البكر فهي تحتاج مثل هذا الإذن من الناحية التربوية والأخلاقية فقط، لا من الناحية الشرعية.

وتعليل ذلك أن الثيب قد أصبحت عارفة بحيل الرجال من خلال التجربة. أما البكر التي لم تخضع لمثل هذه التجربة بعد فقد تتطلى عليها حيل الرجال فتخدع، لذلك تحتاج إلى إذن وليها كنوع من الحماية والإرشاد وتقديم النصح. أما القول بأن القاصر يحتاج إلى الإذن فلا عبرة به لأن الثيب مهما كان عمرها ليست بحاجة إلى الإذن من وليها .

وفي هذا المجال يروى أن رسول الله ﷺ قد دخلت عليه فتاة بكر وهو جالس في المسجد فشكت إليه أن أباه يريد تزويجها من ابن أخيه وهي له كارهة. فأطرق الرسول برأسه لحظة ثم قال لها: أجيزي ما صنع أبوك. فقالت: لا رغبة لي فيما صنع أبي. قال: إذا ذهبي وانكحي من شئت فأنت حرة.

وهنا لابد من التوضيح بأن الإسلام عندما يطلب من الفتاة البكر أن



تستأذن أباهما إنما يستند إلى أمر نفسي يتعلق بنفسية كل من المرأة والرجل. فمن الثابت علمياً أن الرجل تلح عليه الشهوة أكثر من المرأة فهو أقل صبراً. وما يؤثر في المرأة هو الكلام المعسول الذي يطلقه الرجل في الحب والمودة. وعلى هذا فالرجل صياد يرمي بشباكه ومصيده مما يجعل الفتاة البكر تقع في حبائله، فكان لابد من ولي لأمرها يكون عوناً لها في مثل هذه المواقف بخلاف المرأة الثيب التي أصبحت مجربة في هذا المجال، فلا تتطلي عليها حيلة الكلمات بالسهولة نفسها بالنسبة للفتاة البكر. من أجل ذلك تستأذن البكر وليها، لا لأن الشريعة تفرض ذلك.

كل ذلك يؤكد أن الإسلام يقف إلى جانب المرأة ليصونها ويحفظها ويقدر حقوقها، لا سيما أن الإسلام يوليها مسؤوليتين، فهي مدبرة الأسرة وهذه رسالة الأنبياء، وهي مكلفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه رسالة اجتماعية تكليفية تضعها في مرتبة عالية لأن الإسلام يكون قد جعل مرتبة المرأة بموازاة مرتبة التكليف. فأنت عندما تكلف إنساناً ما بمهمة معينة، معنى ذلك أنك أوليته محض ثقته ولا لما كلفته بالمهمة.

* نساء خالدات:

وأبلغ دليل على أن الإسلام قد بوأ المرأة مرتبة عالية ومرموقة، هو أن في تاريخ الإسلام نساء كخديجة والزهراء والعقيلة زينب ومريم ابنة عمران - سلام الله عليهن جميعاً - . فمن من الرجال بلغ مراتب هؤلاء النساء الخالدات؟



إن مريم نفسها قد بلغت درجة أرفع من نبي زمانها زكريا الذي:
﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (١)

مما جعله يحتار فافقت نظره إلى ذلك مع أنه نبي. لذلك يقول
القرآن الكريم: ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾. (٢)

أما فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين فهي أفضل من كل الأنبياء
 والمرسلين باستثناء أبيها وبعلمها. وأنا لا أطلق الكلام على عواهنه أو
 جزافاً ودليلي إلى ذلك أن الزهراء أفضل من ولديها الحسن والحسين
 وذرية الحسين - عليهم السلام - . فإذا كانت الزهراء أفضل من هؤلاء
 المعصومين فهي بالتالي أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين باعتبار أن
 المعصومين أفضل منهم. والأدلة على ذلك كثيرة سواء في القرآن
 الكريم أو السنة النبوية الشريفة.

* نساء كريلائيّات:

وإذا أردنا أن نعرف من هي الزهراء - سلام الله عليها - ، نستطيع
 أن نعرفها من خلال العقيلة زينب عليها السلام، فهي ابنتها التي أنشأتها لتكون
 أنموذجاً للمرأة المسلمة المؤمنة. فقد حملت العقيلة في نفسها الكثير
 الكثير من ملامح أمها في الشجاعة والثبات والإيمان الذي لا تزعزعه

(١) آل عمران: ٣٧ .

(٢) آل عمران: ٣٨ .



العواصف ولا تؤثر فيه النكبات مهما بلغ شأنها . فكانت بطلة كربلاء بكل ما تحمل كلمة بطلة من المعاني السامية .

لقد كانت لها مواقف رائعة جعلتها جديرة أن تكون ابنة الزهراء وابنة علي بن أبي طالب - سلام الله عليهم جميعاً - . لقد وقفت على مصرع أخيها الحسين عليه السلام قائلة : « اللهم تقبل منا هذا القربان » .

وكانت لها وقفة رائعة في مجلس الدعي ابن الدعي عبيد الله بن زياد إذ قالت له بكل قوة وعناد بالرغم من فداحة المصيبة في فقدانها أخاً كالحسين عليه السلام . قالت : « ثكلتك أمك يا ابن مرجانة » وذلك جواباً على سؤاله الذي ينضح بالتشفي واللؤم والشماتة إذ قال : « كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيته ؟ » فقالت : « ما رأيت إلا جميلاً .. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتُخاصم ، فانظر يومئذ لمن الفلج .. ثكلتك أمك يا ابن مرجانة » .

عندها أراد أن يضربها الخسيس ابن الخسيس فقام إليه عمرو بن حريث وحال بينه وبين لؤمه قائلاً له : ويلك ما تريد أن تصنع .. هذه زينب بنت علي بن أبي طالب وأنت تريد أن تضربها في المجلس ، فوالله لو فعلت لانقلبت عليك النفوس ، فدعها . وعندما أراد أن يقتل الإمام السجاد لأنه لم يضعف أمامه ولم يهن ألقى بنفسها على الإمام السجاد قائلة : « إن عزمت على قتله فاقتلني قبله » .

وكانت لها أيضاً وقفة رائعة في مجلس يزيد الخمر والقرود ، لا سيما عندما قالت له : « إني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعتك » . وقالت أيضاً : « والله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحيانا » . وقد صدقت الحوراء زينب - سلام الله عليها - ، فهذه مجالس الحسين تعمر يوماً



عن يوم وذكر آل البيت - عليهم السلام - يملأ الآفاق ويتردد على كل شفة ولسان على اتساع الزمان والمكان. فهذه هي المرأة المسلمة ومكانتها تتمثل بآبنة الزهراء - سلام الله عليها - وعلى أمها وأبيها وجدها وأخويها وذرية أخيها الحسين منارات الهدى ومصابيح الدجى ولو كره الكارهون.

ومن النساء اللاتي كانت لهن مواقف مشهودة في كربلاء، الرباب زوجة الحسين عليه السلام، وأم البنين التي كانت تخرج إلى البقيع ترسم أربعة قبور لأبنائها الأربعة الذين سقطوا على درب الشهادة مع الحسين في كربلاء وعلى رأسهم أبو الفضل العباس. إن كل هؤلاء النسوة الطاهرات الصابرات أحدثن زلزالاً ساهم في دك عروش الطفافة من أمثال يزيد وصنيعته ابن زياد وعملائه الصغار كعمر بن سعد والشمر بن ذي الجوشن وغيرهم من ذباب المزابل وعفن التاريخ.

* ناعي الحسين في المدينة:

قبل أن يدخل الإمام السجاد مدينة جده رسول الله صلى الله عليه وآله طلب إلى بشر بن حذلم وقد كان يقول الشعر، أن يذهب إلى المدينة فينعي أباه الحسين إلى أهلها. يقول بشر هذا، دخلت المدينة وناديت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدار

الجسم منه بكربلاء.. مخرج والرأس منه على القناة يدار

فتقدمت مني امرأة جليلة وقور تحمل على كتفها طفلاً، وقالت لي: أخبرني عن الحسين. وعندما سألت عنها قيل لي: إنها أم البنين.



فرحت أعدد لها أولادها الذين سقطوا في كربلاء، وهي تقول لي: لقد سألتك عن الحسين فاخبرني عن الحسين. وعندما قلت لها: عظم الله لك الأجر بولدك العباس. يقول: نظرت إلى كتفها فانهدل وسقط الطفل إلى الأرض. ومع ذلك وضعت يدها على خاصرتها وقالت: ويحك.. قطعت نياط قلبي.. أخبرني عن الحسين. فقلت لها: عظم الله لك الأجر بأبي عبد الله، فصرخت باكية منتحبة...

وعندما دخلت العقيلة زينب دار أخيها أبي عبد الله جاءت أم البنين وطرقت الباب. فأرسلت زينب الجارية لتتظر من بالباب. وعندما عادت الجارية إليها مهرولة، قالت: سيدتي إن أم البنين بالباب. فقالت: أدخلها فهي شريكتنا في العزاء، ولما فتح الباب وقع بصرها على زينب فصاحت واولداه.. واحسيناه.. فأجابتها العقيلة زينب واأخاه.. واعباساه...

إنا لله وإنا إليه راجعون.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..
ولسوف يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.



- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٢٠ - ص ١٧٢
(٢٥٣٤١) : عبدالله بن جعفر في (قرب الإسناد) عن السندي بن محمد، عن أبي البختري، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: تقاضي علي وفاطمة إلى رسول الله ﷺ في الخدمة فقضى علي فاطمة عليها السلام بخدمتها ما دون الباب، وقضى علي عليه السلام بما خلفه قال: فقالت فاطمة: فلا يعلم ما دخلني من السرور إلا الله باكفائي رسول الله ﷺ تحمل أرقاب الرجال.

- الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - ص ١٦٥ : عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن حماد بن عثمان، عن زيد بن الحسن قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقولك كان علي عليه السلام أشبه الناس طمعة وسيرة برسول الله ﷺ وكان يأكل الخبز والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم، قال: وكان علي عليه السلام يستقي ويحتطب وكانت فاطمة (ع) تطحن وتعجن وتخبز وترقع وكانت من أحسن الناس وجهاً كأن وجنتيها وردتان ^(١) صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلمها وولدها الطاهرين.

(١) الوجنة: ما ارتفع من الخدين.

بحث في السالبة
بانتفاء الموضوع!

بحث في السالبة بانتفاء الموضوع!

ماذا تعني هذه العبارة: السالبة بانتفاء الموضوع إنه اصطلاح فقهي.. أو قل: قاعدة في الأصول، وقانون في شريعة العقول وتفسير ذلك: أن لكل شيء موضوعاً، فإذا لم يوجد الموضوع، فإن الشيء ينتفي من أصله.. ويتعبير أكثر دقة اقول: مثال ذلك حرية الرأي، إنها مضمونة، لأن موضوعها هو إبداء الرأي، والإفصاح عن مكنون الضمير، والعقيدة، وهذه حرية متاحة، ومسموح بها، لأن موضوعها موجود، وهو القدرة على إبداء الرأي، وكل إنسان له قدرة أن يقول كلمة الحق.. في حين أن إبداء الرأي في الراديو يتوقف على وجود المذياع، لأن موضوع حرية نشر الرأي في المذياع يتوقف على وجود المذياع، فإذا لم يوجد المذياع، فإن الحرية تنتفي حينئذٍ، وهذا هو التفسير الصحيح، لمعنى هذه القاعدة الأصولية: السالبة بانتفاء الموضوع. على أنني لدي تحفظي على هذه الأساليب من البيان، فأغلب كتب الفقه والأصول عندنا تراها مليئة، وحافلة بهذه العبارات التي هي اقرب إلى الطلاس، منها إلى الفصاحة والبلاغة.. ولأني لأتذكر أحد رجال العلم، كان يتحدث مع مجموعة من الشباب، فسمعتة يقول لهم - في معرض حديثه -: (السنخية علة الانضمام) فعلت الدهشة وجوههم لأنهم لم يعرفوا مراده، ولم يستوعبوا هذه الكلمة ولا معناها، فهو كان للحظة مضت يكلمهم بلسان عربي فصيح، فما باله انقلب عن تلك الفصاحة والبلاغة، إلى هذه اللفة الغائمة التي ليس فيها نجم ولا بصيص نور؟ ثم التفت إلى الشباب وقلت لهم:

إن معنى: السنخية علة الانضمام هو المثل الشعبي الذي نتناقله وهو: إن الطيور على أشكالها تقع. ومثل آخر يقول: شبيه الشيء، منجذب إليه.

ومثل آخر يقول: وافق شئ طبقه .. ومرة أعد لهم هذه الأمثلة التي تقرب المعنى الحرفي لهذه القاعدة الثقيلة التعبير.

إذن: فمعنى السالبة، هو: أن حرية إبداء الرأي، في المذيع تتوقف على وجود الراديو، والإذاعة، والتلفزة، فإذا وجدت هذه الأجهزة والأدوات الإعلامية، وجدت الحرية، وإذا انتفت، انتفت الحرية معها.

ومثال آخر، وهو عن حرية السفر بالطائرة، فإن موضوع هذه الحرية هو وجود الطائرة، فإذا ما وجدت، وجدت الحرية، وإذا انتفت الطائرة، فلا معنى لهذه الحرية.

وكما في الطائرة، كذلك في حق الإنسان في السفر إلى القمر، أو قل: في حرية الإنسان بالسفر إلى القمر، فإن هذا الحق وتلك الحرية يظلان قائمين ما دام هناك سفينة فضائية، تنقل الإنسان إلى الآفاق البعيدة، أما إذا لم توجد سفينة، ولم توجد وسيلة للنقل، فإن هذا الحق يسقط، والحرية تنتفي بانتفاء الموضوع .. وهذه القاعدة يطلق عليها علماء الفقه والأصول اسم: قاعدة السالبة بانتفاء الموضوع، أي أن الحق سلب لعدم وجود القضية، والموضوع من الأساس.

إذن: فالإنسان مخلوق، لا يمكن أن يعيش بلا حرية، ولا حقوق .. لأن الحقوق والواجبات، مركبة على تركيبة الإنسان .. فمثلاً: خلق الله

الإنسان وجعل له بدنا يعيش على الطعام، والهواء، والماء، والشمس، وخلق له نفساً، وجعلها لا تعيش إلا في جو الأمن، والطمأنينة والسلام وهنا، نلاحظ هذا المعنى واضحاً جداً، فكما جعل الله للإنسان بدناً يحتاج إلى الطعام، كذلك أوجد له الطعام، وهداه إلى الطرق التي إن سلكها وفرت له ما يحتاج من الطعام .. وكما خلق له نفساً تقتات بالأمن، كذلك هيأ له الأمن والنظام بمنهج اجتماعية، واقتصادية وسياسية إذا سار عليها ابن آدم، أعطته ما يريد، من الأمن، والخير، والعطاء.

هذه - إذن - حقوق استحقها الإنسان بفطرته، وليس لأحد أن يسلبها منه، أو أن يستعلي عليه أبداً.

على أنه في مقابل هذه الحقوق، هناك واجبات مفروضة، من الخالق الحكيم الذي أعطاه الحقوق، وكأن الحقوق في مقابل الواجبات، فما دام الله سبحانه، منحك الحقوق، فلا بد من أن تؤدي أنت الواجبات .. في العبادة، والتكامل، والتربية والجهاد .. وانما ذكرت هذه الثلاث دون غيرها من الواجبات، لأنها تشمل الجميع. ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾. (١)

فما دام الله سبحانه وتعالى أعطاك هذه الحقوق .. في الأمن والطعام، فإنه أرادك بالمقابل، أن تؤدي الواجبات، ليكتمل دورك

(١) قریش: ٣ و ٤ .

الحضاري الرائد في الحياة .. وذلك أن الحياة، قائمة على هذه المعادلة: أخذ وعطاء .. وحين تسقط الحقوق، تسقط الواجبات أيضاً.

لنفترض أن حاكماً لا يحفظ حقوق الناس، ثم يطالبهم بأداء الواجبات، وحفظ الوطن، ودفع الضرائب .. ! فكيف يمكن للشعب أن يؤدي الواجبات تجاه حاكم أخذ حقوق الناس، ونشر الظلم، والاستبداد؟

ونحن نعرف، في الفقه الإسلام أن طاعة المرأة لزوجها، تتوقف على حفظ حقوقها من قبل الزوج، فإذا حفظ الزوج حقوق امرأته، حق له أن يطالبها بالواجبات تجاهه هو، كزوج له حق الكلمة والقرار، ولكن ضمن المعقول والخير.. أما إذا لم يحفظ حقوق زوجته، فإن واجباتها تجاه زوجها تسقط حينئذٍ.

ولتوضيح هذه الفكرة خذ مثلاً على ذلك .. رجل لا ينفق على زوجته، ولا يؤدي حقوقها، ثم يطالبها بالطاعة، أي أنها لا تخرج من البيت إلا بإذنه، ولا تخالف طاعته، فهل من حقه أن يفرض الطاعة على هذه المرأة؟ كلا بالطبع، لماذا؟ لأن الطاعة مقابل النفقة عليها، فإذا لم ينفق عليها تسقط الطاعة .. والا فكيف تعيش هذه المرأة؟ إنها تصبح محبوسة.. فلا الزوج يعطيها طعاماً، ولا يسمح لها أن تخرج، لتقتات من كسب يدها!

بين الجوع والكفر والإطعام والإيمان

على أن ثمة تعادلاً يثير الدهشة، في ميزان الجوع والكفر، من جهة والإطعام والإيمان من جهة ثانية.. فقد قيل: إن المعدة الجائعة لا تعرف الفضيلة، وأنا أؤكد هذا المعنى، رغم أنني لا أتخذ منه قاعدة عامة ولا قانوناً شاملاً، ولكنه استثناء يؤكد القاعدة، إلا إذا لم يكن هو الأصل في أحيان كثيرة.

إن القرآن الكريم، الذي يربط العبادة بتوفير الخبز والأمن، إنما يريد أن يؤكد هذه الحقيقة، ويبين أنها من الثوابت.. فقد أكد الرسول الأعظم محمد ﷺ هذه الحقائق بمنطقه القويم، وفكره العظيم.. ونفس الشيء صنع الأئمة المعصومون من أهل بيت الوحي والنبوة.. فهذا الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول لولده محمد بن الحنفية: يا بني إني أخاف عليك الفقر.. فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين.. مدهشة للعقل، داعية للمقت.

وفي حديث آخر يقول علي عليه السلام: «لوتمثل لي الفقر رجلاً لقتلته».

وحديث ثالث: «ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر».

وللإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام كلمة في هذا المضمار، يقول فيها: «من لا معاش له، لا معاد له». فربط الفلاح في الآخرة، بالفلاح في الدنيا، لأن المعاش في الحياة الدنيا معناه مشية الحياة بشكل أفضل، وعلى نحو أحسن.



ومن هنا، فإننا نجد أن أحكام الدين قائمة على هذه المعادلة ..
فالجائع إذا سرق، أو اغتصب شيئاً من الناس، ليسد به جوعه، أو يسد
به أوده، وأود أبنائه، فإن قانون العقوبات لا يجري عليه على
الإطلاق .. وطبعاً ليس المراد بهذا الكلام تبرير الذين يسطون على
أموال الناس، ولا صنع مبررات للتصل من المسؤولية، ولكن فقط،
أردت أن أبين ذلك الارتباط الخفي، بين الدين وتوفير الخبز والأمن
في الحياة، ليعيش الناس أحراراً، كرماء.

وأول ما يضره الاستبداد في الحياة الاجتماعية، يضرب الخبز
والأمن، فالخبز يضره بانهدام الاقتصاد الإسلامي الحر.. والأمن
يضره برعونة السياسة الهوجاء التي لا إيمان لها، ولا ضمير..
وعندئذ يخيم الظلم والظلام على الناس، فلا تعود الرؤية واضحة، ولا
يعود الأمر مفهوماً لدى الجماهير.. وهذا هو ما حصل، بالضبط، أيام
حكام الجور، والخيانة من بني أمية، وبني العباس، ومن تبعهم بظلم
واساءة إلى يومنا هذا.

ولذلك يتعجب أبوذر الغفاري، من الرجل يكون جائعاً، لا يملك الخبز
له ولا لأطفاله، كيف لا يخرج على الناس، شاهراً سيفه. يقول: «عجبت
لمن لا يجد قوت يومه، كيف لا يخرج على الناس، شاهراً سيفه».

ويقول في حديث آخر، يبين فيه الملازمة الفطرية، بين الجوع،
والكفر، فيقول: «إذا دخل الفقر قرية، قال له الكفر: خذني معك».

ومن هنا، ندرك أن الله عز وجل لا يريد للناس الفقر أبداً .. فكما
أنه لا يرضى لعباده الكفر، كذلك فإنه - تقديراً لأسماؤه - لا يرضى
لعباده الفقر.. غير أن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون الناس أحراراً،

فكما أنه ترك الإيمان والكفر لهم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، كذلك ترك الغنى والفقر لهم، فمن شاء الغنى عمل وسار في طريقه، ومن أراد الفقر، فليس عليه إلا ترك العمل .. هذا ولا يخفى أن المسألة، أحياناً - لا علاقة لها بالفرد، بمقدار ما تتعلق بالوضع القائم، أوقل: بالوضع الاجتماعي القائم، وهو الذي تمثله سياسة الدولة، بحيث إذا كانت السياسة حكيمة، كان النظام الاقتصادي حضارياً، وحكيماً .. بخلاف ما إذا كانت سياسة الدولة متعثرة، لا حرية فيها، ولا عدالة، ولا حقوق .. فإنها - حينئذٍ - تخلق اقتصاداً، مهلهلاً مفككاً، لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يدفع الضيم عن أحد قط.

* الحقوق تقابلها الواجبات:

من كل ذلك، نخرج بحصيلة فكرية، مفادها: أن الحقوق تقابلها الواجبات، فما من حق لك على الله، أو على الناس، إلا وله واجب أو فريضة لابد من أدائها.

ومثال على ذلك .. حتى في العلم .. فحين أعطاك الله عقلاً، وسهل لك طلب العلم الذي هو غذاء العقل، بعد أن بيّن لك الطريق، وأوضح لك السبيل، فإنه أوجب عليك - في الوقت ذاته نشر هذا العلم بين الملأ.

وما يقال في العلم، يقال في المال أيضاً، فعندما يمنحك المال، فإنه



يريد ألا تكون عبداً للدنيا -والدرهم- وإنما المال هو العبد بين يديك، وذلك حتى تستطيع أن تشتري بمالك جنة عرضها السموات والأرض.

وهنا يجيء الميزان الصحيح، لتعاملنا مع المال، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

وفي الحديث: «ليس منا من ترك آخرته لذيئه، ولا من ترك دنياه لآخرته». وذلك أن الدنيا والآخرة تتعانقان في محبة وصدق، إذا كان المرء صادقاً مع الله يحمل محبته في قلبه.. على أن الدنيا مزرعة الآخرة، وكيف يحصد الإنسان إذا لم ينثر ببيادره في الأرض؟

(١) القصص: ٧٧ .



الإمام الحسين عليه السلام يقول كلمته

وقد دأبت السلطات الجائرة أن تسوس الناس بالجوع والظلم، وخذ مثلاً على ذلك، بني أمية، حيث أخذوا أقطار الأرض، وآفاق السماء، على الناس جميعاً، إلا الموالين لهم، الراكعين تحت أقدامهم .. فهؤلاء وحدهم، هم الذين كانوا ينعمون بالعطاء، ويرفلون بالحرير.. على أنهم قلة، أقل من القليل، لأن سياسة الظلم لا تفرق بين شخص وشخص ولا بين فئة وأخرى.. وقد ذكرهم الإمام الحسين عليه السلام بهذه الحقيقة فقال:.. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم -أي أنكم صرتم أنصاراً تدافعون عن أعدائكم، بني أمية الظلمة أبناء الظلمة، ضد أوليائكم الذين هم أهل بيت العصمة، والنبوة، ثم يبين لهم: أنهم إنما صنعوا ذلك لجهلهم وسوء تفكيرهم، وذلك أنهم نصروا الظالمين وخذلوا أهل الحق،.. نصروا الظلمة، لا لعدالتهم وسيرتهم الطيبة في الرعية والشعب وإنما لأنهم ظلمة أدعياء وأبناء أدعياء، فقال الحسين عليه السلام: «أصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم .. فهلا لكم الويلات، تركتمونا، والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستصحف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا.. وتداعيتم عليها، كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن .. ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟ أجل والله، غدر فيكم قديم....».

* الزهراء تنبه خطورة الموقف:

على أن خطاب الحسين، هذا، يذكرنا بخطاب أمه فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- لأنهم نور واحد.. ففاطمة نبهتهم خطورة الموقف، وحذرتهم صولة الدهر.. وفحش قلب الليالي والأيام، فقالت:

«زعمتم خوف الفتنة .. إلا في الفتنة سقطوا، وأن جهنم لمحيطه بالكافرين .. فبهيات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون .. وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة، وأعلامه زاهرة، وزواجه لائحة، وأوامره واضحة.. رغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون، بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين».

وكما نبهتهم الصديقة الكبرى، فاطمة الزهراء إلى خطورة الموقف، وحذرتهم مغبة الانحراف والمخالفة، كذلك منع ولدها أبو الأحرار وسيد الشهداء أبوعبد الله الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- فقال:

«... ثم لا تلبثون بعدها، إلا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهد هذه إليّ أبي عن جدي...».

وقال لعمر بن سعد وهو يحذره من مخالفة الحق: «وكأنني برأسك، على قصبة يتهادونه الصبيان في الكوفة، يتخذونه غرضاً بينهم...».

كل هذا إشارة إلى الحقيقة الكبرى، وهي أن الخبز والأمن والسعادة، والعيش الحر الكريم، إنما هوفي ظل الإسلام، وليس في ظل نظام غيره، مهما كان ذلك النظام كبيراً ومطنطناً.

إذن: فالسلطات الظالمة، الجائرة، اعتادت على تجويع الناس اقتصادياً، وإرهابهم سياسياً، وهذه هي سياسة الخوف والجوع والتي ينشرها الظالمون .. فإذا جاءت هذه الحالة لأمة من الأمم، فهي إنما تأتي بسبب ذنوبهم، وبعدهم عن الحق، وتجنبهم الطريق الصحيح.

ومن هنا، فإن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾^(١)، فهو إنما يريد هذه الحقيقة، وهي أن الخوف والجوع إنما هما للابتلاء والامتحان .. هذا إذا كانا قليلاً، لأن القرآن الكريم قال بشيء من الخوف والجوع، ولم يقل: بالخوف والجوع .. في حين أن القرآن حينما يذكرنا بسنن الله سبحانه في هذا الكون، وفي بناء المجتمع نراه يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٢).

ودائماً نجد أن الظلم الاقتصادي، يؤدي إلى الفقر، والجوع بينما الظلم السياسي، يؤدي إلى الاستبداد، والإرهاب.

وقد ركزت فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- على هذا الجانب بالذات، حيث بشرت الذين خالفوا الله والرسول، وخانوا الأمانة، بشرتهم بالسيف الصارم، الذي يشهره في وجوههم الظالمون، فقالت: «.. ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً، وذعافاً مبيداً».

(١) البقرة: ١٥٥ .

(٢) النحل: ١١٢ .

وفي كلمة ثانية نجدها تقول: «وابشروا بسيف صارم .. وسطوة
معتد غاشم، واستبداد من الظالمين، يدع فيكم زهيداً، وجمعكم حصيداً
فيا حسرة لكم، وأنى بكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟».



نظرة الإسلام الحضارية لليتيم

نظرة الإسلام الحضارية لليتيم

- من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام قبل الموت: الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله عز وجل له الجنة كما أوجب لأكل مال اليتيم النار^(١).

- وعنه عليه السلام قال: ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم إلا كتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة^(٢).

- وعن أبي الدرداء قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل يشكو قسوة قلبه، قال: أتحب أن يلين قلبك وتذكر حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتذكر حاجتك^(٣).

- وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يبعث ناس من قبورهم يوم القيامة تاجج أفواههم ناراً، فقيل له: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى^(٤).

- وفي خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام قالت: فرض الله مجانية أكل أموال اليتامى إجارة من الظلم^(٥).

(١) فروع الكافي: ٥١/٧ .

(٢) بحار الأنوار: ٤/٧٥ .

(٣) الترغيب والترهيب: ٣٤٩/٣ .

(٤) بحار الأنوار: ١٠/٧٥ .

(٥) بحار الأنوار: ٢٦٨ / ٧٩ .

- وعن عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الكبائر فقال: منها أكل مال اليتيم ظلماً^(١).

- وعن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة داراً يقال لها دار الفرح لا يدخلها إلا من فرح يتامى المؤمنين^(٢).

* اليتيم في القرآن:

وردت آيات كثيرة في القرآن توصي باليتيم منها:

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾^(٣).
- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۖ (١١)﴾^(٤).
- ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٥).
- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٦).

(١) بحار الأنوار: ٧٥ / ١٠ .

(٢) كنز العمال.

(٣) الأنعام: ١٥٢ .

(٤) الضحى: ١٠ - ١١ .

(٥) البقرة: ٨٣ .

(٦) البقرة: ٢١٥ .

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (١).
- ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ (٢).
- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٤).
- ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتَكُمُ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ (٥).
- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٦).

(١) البقرة: ٢٢٠ .

(٢) النساء: ٦ .

(٣) النساء: ٨ .

(٤) النساء: ١٠ .

(٥) النساء: ٣٦ - ١٢٧ .

(٦) الأنفال: ٤١ .

تأملات من وحي الخطبة الفاطمية

من المنبر الحر^٣

نعم الله وقوانين العدل والرحمة

تأملات من وحي الخطبة الفاطمية

من المنبر الحرّ

نعم الله وقوانين العدل والرحمة

في مناجاة موسى عليه السلام قال الله عز وجل: «يا موسى حبّني إلى خلقي وحبّبهم إليّ» فقال موسى: وكيف يا رب؟ قال: «ذكرهم بنعمي وآلائي، فإنهم إذا ذكروا نعمي أحبّوني».

إن مفتاح القلوب على رحمة الله وعطائه يكون بتذكّر نعم الله والتمعّن بآلائه وآياته الرحمانية. وهذا التذكير ضروري وواجب لأن من طبيعة الإنسان الاغترار بنفسه ونسيان نعم الله عليه.

والنعم الإلهية هي أكثر من أن تعد وتحصى، وهي تظهر في كل شيء، في نفسك وفي كل ما هو حولك. فهذا الكون الذي نعيش فيه، كل ما فيه مترابط في علاقة لا تنفصم. وهذه العلاقة محكومة بقوانين وأنظمة ربانية لا تملك أن تحيد شعرة واحدة عن المسار الذي وضعه لها رب العالمين: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١).

وكلما تعمق الإنسان في معرفة الوجود وكلما تقدم على طريق العلم

(١) يس: ٤٠ .



والاكتشاف، تتضح أمامه حقيقة أن كل الجزئيات الصغيرة مرتبطة بنظام كوني كلي ومؤثرة فيه. ومن عجيب ما قرأت في هذا المجال أن العلم والأبحاث أثبتت أن لوجود الطير ورفيف أجنحتها تأثيراً هاماً على حركة الأرض وعلى الغلاف الجوي، بحيث أنه لو انعدمت الطيور لأثر ذلك على طبقة الهواء المحيطة بالأرض، وبالتالي على حياة الإنسان.

ونحن مثلاً إذا ركبنا الطائرة وسارت بنا بسرعتها المعهودة نحسّ باضطراب في قلوبنا. فما بالك وأنت تعيش على سطح هذه الكرة الأرضية التي تسبح في الفضاء وتتحرك بسرعة سبعمائة ألف كلم في الساعة! ومع ذلك فإنك لا تشعر بهذا الأمر ولا تحس اضطراباً أو خوفاً! إن كل ذلك هو من تدبير الخالق عزوجل ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولاً﴾ (١).

أي الذي ذلّل لكم هذه الأرض السابحة المتحركة بسرعة فائقة فجعلكم تستطيعون العيش عليها بأمان واستقرار، فلا تتطايرون في الجو، ولا تفرقكم بحارها، ولا تتقلب عليكم جبالها، كل ذلك بفضل عنايته الإلهية وقوانينه الدقيقة التي تحكم الوجود وحركته بكل ما فيه. وكلما تعرّف الإنسان إلى نعم الله ورأى آياته فإن إيمانه يزداد، ومحبتّه لله المدبر الحافظ تتعمق، وشكره له ينطلق على لسانه وفي قلبه... ومن هنا نقرأ دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام:

«يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه، وأيقظني إلى ما منحني به من

(١) الملك: ١٥ .



مننه وإحسانه، وكفّ أكفّ السوء عني بيده وسلطانه، صل اللهم على الدليل إليك - أبي الزهراء - في الليل الأليل، والماسك من أسبابك بجبل الشرف الأطول، والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل....».

* نعمة الله والحجة في الأرض:

ولا يمكن أن تجري نعم الله وتدور الأرض بنا ونحن كفار مذنبون. لذلك قضى أمر الله أن يكون في الأرض حجة، وهو الإمام المعصوم. وقد قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

فوجود الإمام المعصوم الحجة شرط تحقق النعمة والعدل في حياتنا، وهو أيضاً المحور لحركة هذا الكون. فهذه الكرة الأرضية إنما تجري ببركة هذا الإمام العظيم، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها».

* نعمة الله وإقامة العدل والميزان:

ورب قائل: ما هي العلاقة بين الإمام الحجة وهذه الكرة الأرضية التي تدور؟! والجواب أن العلاقة وثيقة وقائمة، ذلك أن الإمام الحجة هو ميزان العدل في الحياة على هذه الأرض. فإذا فقد الميزان خربت ودمرت جميع العلاقات. تقول الزهراء العليّة في خطبتها: «وجعل الله سبحانه توفية الموازين والمكاييل تغييراً للبخس» والبخس هو الانقلاب والدمار والعذاب وهضم الحقوق.



والله سبحانه وتعالى ربط بين ميزان السماء والتكوين (الذي هو القوانين الإلهية) وبين ميزان الحياة على الأرض (الذي هو العدل في العلاقات والمعاملات) فقال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾. (١)

فميزان السماء والتكوين مرتبط بميزان المعاملات التجارية في الأسواق. والإمام العادل علي بن أبي طالب عليه السلام كان يسير في الأسواق يراقب الموازين والمكاييل ويقول للناس: «أوفوا المكاييل ولا تبخسوا الناس أشياءهم».

* خيانة ميزان العدل سبب الفساد والدمار:

إن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع ويضرب لنا أكثر من مثل على ذلك.

لقد نزل العذاب على أمة شعيب عليه السلام، لأنها كانت تخسر الميزان والمكيال في الأسواق. لقد أنزل الله عليهم عذاباً تمثل بعدم غروب الشمس فبقيت أياماً طوالاً تلهبهم بحرهما، ثم جاءتهم صيحة من السماء أرجفت الأرض وخلعت قلوبهم. ثم وقف شعيب يبكي على حال قومه ويقول لهم: يا قوم، جئكم بآيات ربي وكنت لكم من الناصحين، فلماذا كفرتم؟! ولكن الله يقول له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. (٢)

(١) الرحمن: ٧ و ٨ .

(٢) المائدة: ٦٨ .



إن الإخلال بميزان العدل وميزان السنن والشرائع الإلهية يؤدي إلى الفساد، وهذا يستدعي بدوره النقمة والدمار على القوم الفاسدين. وهذا ما حدث لأمة لوط. فقوم لوط فسدوا وأخلوا بالشرائع التي رسمها الله لعلاقات الناس، فنبذوا العلاقات الجنسية الطبيعية واستبدلوها بعلاقات بين النساء والنساء وبين الرجال والرجال، أي اعتمدوا السحاق واللواط.

ولننظر الآن كيف حلّ بهم العذاب. في أيام لوط كان إبراهيم عليه السلام يعيش في بيت المقدس، فجاءه نفر من الشبان ودخلوا عليه. استقبلهم إبراهيم ورحب بهم وذبح لهم عجلاً سميناً إكراماً لهم، وقامت زوجته سارة على خدمتهم. قدّم لهم الطعام، فإذا هم لا يأكلون! فأوجس إبراهيم منهم خيفة: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (١).

قالوا: «لا تخف، فنحن ملائكة أرسلنا الله إلى قوم لوط». ولما علمت امرأة إبراهيم بحقيقة أمرهم ضحكت واستبشرت، فبشرها الملائكة بأنها ستلد إسحاق ومن بعد إسحاق يعقوب. ذهلت المرأة وقالت: «إن هذا لشيء عجيب، أألدُ وأنا عجوز وزوجي إبراهيم شيخ كبير السن؟!» قالوا لها: «لا تعجبي من أمر الله إن رحمة الله وبركاته قد حلت عليكم أهل هذا البيت».

فلما ذهب الروح عن إبراهيم وزوجته أخذ إبراهيم يجادل الملائكة فيما جاؤا به، وقال لهم: «ولكن فيهم نبي هو لوط، فكيف تعذبونهم

(١) هود: ٧٠ .

وهو فيهم؟ ألا تسمحون لهم بعض الوقت لعلمهم يهتدون ويسمعون قول نبيهم؟ ولكنهم قالوا له: «لا عليك، فنحن أعلم بما فيها، وقد جاء أمر ربك بعذابهم وهو عذاب غير مردود».

وهنا قد نتساءل: إذا كان الملائكة يقصدون أمة لوط لأمر محدد، فلماذا عرجوا على إبراهيم؟ والجواب: لأن إبراهيم كان حجة الله في الأرض. وقد مر معنا قول الرسول ﷺ: لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

ووصل الملائكة إلى مشارف قرية لوط، وهي من قرى الأردن، فوجدوا عند بئر هناك بنتاً من بنات لوط، فسلموا بحياء وتهذيب وسألوها أن ترشدهم إلى بيت من بيوت القرية لأنهم ضيوف غرباء. خافت البنت عليهم لأنها تعلم فساد أهل قريتها، وطلبت منهم ألا يبرحوا مكانهم حتى تعود إليهم. وذهبت إلى أبيها ووصفت له حالهم، فجاء على الفور يحدثهم عن حال قريته ومفاسد أهلها، وأخذ ينصحهم بعدم دخولها. ولكنهم أصروا على رأيهم وأنهم يريدون أن يكونوا ضيوفاً عليه، ولذلك اضطر إلى استقبالهم في بيته لأنه لا يستطيع أن يردّ الضيف. فإكرام الضيف واجب على كل إنسان، فكيف إذا كان نبياً معصوماً؟ ولوط حتى الآن لا يعلم حقيقة أمرهم ولا يعرف أنهم من الملائكة المرسلين.

ولما صاروا في بيت لوط، ذهبت امرأته الخبيثة وأخبرت قومها بحضورهم، ووصفت لهم حسن هيئتهم وجمالهم فأسرعوا إلى بيت لوط يريدون رؤيتهم وفي نفوسهم نوايا السوء والفاحشة. لما رأى لوط ذلك، اضطرب وخاف، وقال لقومه: ارجعوا يا قومي عن ضلالكم



وفحشكم وشدوذكهم، وهاكم بناتي (أي بنات المدينة) فهن أظهر لكم، لأن سنة الله في خلقه هي الزواج الصحيح وليس هذا الشذوذ الذي سوف يدمركم وينزل عليكم عذاباً من الله شديداً.

لم يسمع قوم لوط كلامه ونصائحه. فتأمل كثيراً، ورأى أنه في موقف عصيب. كيف يسمح لهؤلاء الفاسدين الفاجرين أن يعتدوا على حرمة ضيوفه؟! التفت لوط إلى ضيوفه حزينا يائسا وقال: يا ليتني أستطيع أن أنتصر بكم عليهم فتكونوا لي قوة، أو آوي إلى ركن شديد يعصمني ويعصمكم منهم.

وإذا به يسمع قولاً قوياً حازماً من أحدهم، وهو جبرائيل، «يا لوط، لا تخف. إنهم لن يصلوا إليك. وإنا نحن رسل ربك، وقد جئنا لنصرتك وتدمير هذه القرية التي فسدت. فهؤلاء لا يستحقون الحياة لأنهم تركوا قضية الزواج..» وأشار جبرائيل بجناحه، فإذا أهل القرية عمي لا يبصرون. وقال جبرائيل للنبي لوط: إن موعد عذاب هؤلاء هو الصباح، أليس الصبح بقريب؟ أما أنت فاخرج بأهلك وعشيرتك من بينهم ولا تلتفت إليهم لأنهم لا يستحقون الشفاعة. وأما زوجتك هذه فاتركها معهم لأنها سوف تلاقي نفس عذابهم.

ولما جاء الصباح حمل جبرائيل القرية وأهلها على طرف جناحه وارتفع بهم في الفضاء. وبعد سبع ساعات أعادهم إلى مكانهم ونزل عليهم عذاب الله فدمر القرية وجعل عاليها سافلها وأمطر أهلها بحجارة من سجيل مسومة لا تخطئ هدفها.

وهكذا أهلك الله أهل هذه القرية بفسقهم واجترائهم على ميزان العدل والحق. وسأل لوط جبرائيل عن سبب تأخيرهم سبع ساعات

قبل أن ينزل عليهم العذاب، فقال: أمرني الله أن أمهلهم سبع ساعات لعل أحدهم يتوب ويذكر الله! . .

* بين المبادئ والمصالح:

إن إقامة العدل والميزان في حياتنا هي من المبادئ التي يجب المحافظة عليها والتمسك بها، وليس الأمر عبارة من مصالح شخصية نكيّف سلوكنا بمقتضاها. ونستطيع أن نلاحظ في أيامنا هذه أن اللعنة الكبرى التي حلت في مجتمعاتنا تتمثل بأن السياسة تعتمد على المصالح وليس على المبادئ. فترى الكتاب في الصحف يمدحون هذا الرئيس ويرفعون من شأنه ويتغنون بفضائله لمصلحة خاصة، ثم بعد مدة يعود نفس الكتاب لمهاجمته لأن المصلحة انتفت، هذا بصرف النظر عن حقيقة صلاح هذا الحاكم أو عدم صلاحه. فمن كان ذا مبدأ لا يمكن أن يمدح طاغية لسبب من الأسباب، كما لا يمكن أن يرى العدل ولا يشير إليه. وهكذا فإن كلمة الحق لا تصدر إلا عن ذوي المبادئ، أما أصحاب المصالح فهم الذين يقولون كلمتهم سعياً وراء المال أو الجاه أو المنصب.

وكلمة الحق وانتصار المبادئ نجدها بأبهى صورها وأعظم معانيها في سياسة أمير المؤمنين عليه السلام.. قالوا له: يا أمير المؤمنين، دع الشام لمعاوية وهادنه، حتى إذا استتب الأمر تأخذه على حين غرة. قال لهم: أتدعوني أن أطلب النصر بالجور؟ أدع معاوية يظلم الناس باسمي وأسكت عن ذلك؟



* نعم الله وقانون الرحمة:

إن قوانين هذا الكون والأنظمة المسيّرة له مترابطة وقائمة على مبادئ الرحمة واللف اللطف الإلهي. وهذا أكثر ما يظهر في قوانين العلاقات الاجتماعية التي أرادها الله لصالح الإنسان وكرامته.

والرحمة تنطلق من رحم الأم. وصلة الرحم هذه مرتبطة مباشرة بالسمااء، فإن الرحم معلقة بالعرش تقول: أي رب، صل من وصلني واقطع من قطعني.

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (١)

وصلة الرحم والرحمة تكون حتى مع الوالدين الكافرين أو المشركين: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (٢)

إن صلة الرحم لا يقطعها الشرك أو الكفر، أما الظلم فإنه يقطعها. ولذلك في موقعة بدر كنا نرى الأبناء يقاتلون الآباء. لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ (٣)

إن القرآن في مجال العلاقات الاجتماعية والأسرية وصلة الأرحام يأخذ بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الطبيعية والفطرية. فالأب والأم

(١) لقمان: ١٤ .

(٢) لقمان: ١٥ .

(٣) الشورى: ٤٢ .

لا يحتاجان إلى وصية بمحبة أولادهما، لأنهما مزودان بالعاطفة القوية نحوهم . أما الأبناء فإنهم بحاجة إلى هذه التوصية بل إلى هذا الأمر: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (١).

هذه هي الرحمة التي أرادها الله أن تكون بين الإنسان ووالديه . فكل إنسان إذا طال به العمر سوف يكون شيخا هرما كبيرا في السن بحاجة إلى المساعدة . وهذه المساعدة يجب أن تكون من أولاده لأنها تكون مساعدة دافئة تشعره بالسعادة، لا تلك المساعدة الباردة الموحشة التي يلقاها في دار العجزة .

والمجتمعات التي ابتليت بتفكك الروابط الأسرية يشعر أفرادها عندما يتقدمون في السن بهذا الخل الاجتماعي الرهيب الذي يفرض عليهم أن يمضوا سنوات شيخوختهم في مأساة متواصلة، بدلا من أن يكون الشيخوخة مرحلة من السعادة والغبطة البعيدة عن شتى أنواع القلق والإحساس بالوحدة . ويكفي أن نلقي نظرة أو نقوم بزيارة لإحدى دور العجزة في أوروبا أو أميركا لنرى علامات البؤس والشقاء على وجوه وفي حياة أولئك الناس .

أما في تعاليم الإسلام، فلننظر إلى هذا المثل الرائع الذي تقدمه لنا السيرة النبوية المطهرة: دخل شابٌ على رسول الله وقال له: جئتكَ للجهاد يا رسول الله . قال له: هل خلفت أحدا؟ قال: تركت أبي وأمي

(١) الإسراء: ٢٣ - ٢٤ .



بيكيان ولا يريدان فراقى. قال الرسول: بني، عد إليهما. فوالذي بعثني بالحق نبياً، لأنسهما بك ليلة واحدة أحبُّ إلى الله من جهاد سبعين سنة.

سأل أحدهم رسول الله يوماً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك.

فالأم لها مكانة عظيمة محفوظة في تعاليم الإسلام. وهذا لا يعني انتقاصاً من قدر الأب وفضله، ولكن التركيز على الأم ناتج عن سببين: الأول أن الأب في المجتمع يتمتع بالنفوذ والقوة، كما أن الولد يرى أن والده هو المسؤول عنه وهو الذي يتكفله وينفق عليه فيظن أن الفضل الأعظم للأب. والسبب الثاني هي تلك التضحية العظيمة التي تقدمها الأم في سبيل أبنائها خاصة في فترة الحمل: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾.

*** إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم:**

لقد ذكرنا سابقاً أن الآباء والأمهات ليسوا بحاجة إلى توصيتهم بالعطف على أولادهم لأنهم مزودون طبيعياً بهذه القوة العاطفية. ولكن نلاحظ هنا أن القرآن الكريم يحذر الآباء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (١).

(١) التغابن: ١٤ .



فما معنى هذا التحذير؟

الواقع أن هذا التحذير يأتي في نطاق خاص محدّد ولا يشكّل قاعدة للتعامل والعلاقة. ولكي نفهم ذلك علينا أن نعلم ظروف نزول هذه الآية. فهي نزلت في المهاجرين الذين هاجروا مع النبي إلى المدينة. فكان الواحد منهم إذا عزم على الهجرة من مكة إلى المدينة تعلّق به أولاده وزوجته وحاولوا حبسه عن الخروج إلى النبي لأنهم لم يكونوا يعرفون معنى الإيمان بعد. ولذلك اعتبرهم القرآن من بين القوى المعادية التي تحول دون اندفاع المؤمنين في طريق الرسالة. وهذا لا يعني أيضاً معاملتهم كالمشركين الذين يحاربون المسلمين، ولكن الغرض من ذلك كان تنبيه المسلمين إلى أثر هؤلاء السلبي ليأخذوا حذرهم ولا يضعف المسلم أمام ضغوط الزوجة والأبناء فتحجب عنه العاطفة ضرورة التمسك بواجبه المقدّس..

إذاً هذه الآية لها ظرفها الخاص، وتفسيرها يكون على ضوء معرفة هذا الظرف المحدود.

وكان أولئك المسلمون يندفعون أيضاً بعواطفهم في اتجاه آخر فيهددون أبناءهم بأنهم سوف يقتصّون منهم إن هم دخلوا المدينة على المسلمين. ولذلك انسجماً مع روح الإسلام السمحة وتعاليمه الثابتة في مجال الرحمة والتراحم، فإن الآية الكريمة نفسها تضيف: ﴿وَأِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هكذا هي العلاقات الاجتماعية في الإسلام، تقوم على الرحمة. لأن الرحمة والتآلف هما من ميزان العدالة في الكون.





عالم البرزخ

عالم البرزخ

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُعْثُونَ﴾ (١).

* مدخل:

إن مسألة التي سوف نتناولها بالبحث لها علاقة بحياتنا وأنفسنا، لأن أنفاسنا هي خطواتنا إلى الآخرة. فكل نفس نتنفسه يخطو بنا خطوة إلى القبر. والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا. وهو ما نطلق عليه اسم البرزخ. فما هو عالم البرزخ؟ جاء في القرآن الكريم: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢).

وفي مكان آخر: ﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (٣).

إن قوانين الفيزياء توضح لنا أن الماء العذب لا يختلط بالماء المالح،

(١) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) الرحمن: ١٩ - ٢٠ .

(٣) الفرقان: ٥٣ .



وذاك ما تشير إليه الآيتان الكريمتان، لأن بينهما حاجزاً يمنعهما من الاختلاط، وهذا من عجيب صنع الله سبحانه، فلو اختلطا لما شربنا ماءً عذباً. فعدم الاختلاط رحمة إلهية، فالبحر يجب أن يبقى مالحاً لئلا يصبح آسناً، والعذب يجب أن يبقى عذباً لأننا بحاجة إليه.

وعلى هذا نفهم أن البرزخ ما هو إلا فاصل يفصل بيننا وبين الطرف الآخر، أو هو حاجز بين منطقتين. على أن المقصود بالبرزخ ليس البرزخ بالمعنى المكاني فقط، وإنما يشير إلى اختلاف القوانين برمتها دون أن يتقيد بقيد الزمان والمكان الذي يفصل بين عالمين مختلفين.

* الكائنات تؤكد عالم البرزخ:

إننا نحن البشر نعيش على سطح الكرة الأرضية وسط عوالم أخرى، بعضها نستطيع أن نراها وأن نحس بوجودها كعالم الطير التي تملأ الفضاء، وعالم الأسماك التي تملأ البحار والمحيطات وعالم الزواحف والحشرات والهوام. إننا نطل على هذه العوالم بحواسنا المادية فقط، أما خطوط الاتصال بيننا وبينها فمنقطعة، فنحن لا نفهم عليها وهي لا تفهم علينا.

فهذه العصفورة التي تطير أمام ناظريك تبحث عن رزق لفراخها، وهذه القطارات من النمل الباحث عن رزقه حتى إذا رأت نملة قطعة من الحلوى أخبرت جماعة النمل بما وجدت، فأنت ترى كل ذلك بعينك ولكنك لا تفهم لغة هذه المخلوقات لأنها في عالم يختلف عن عالمك، ولأنها في برزخ يختلف عن برزحك.



ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن الطيور في السماء كقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^(١).

فنفهم أن هذه الطير تصلي وتسبح الله سبحانه. أما كيف تصلي وكيف تسبح فنحن لا ندرك من ذلك شيئاً لأنه ليس هناك أدنى اتصال بيننا وبينها من هذه الناحية، التي تتعلق بالكيفية.

على أن القرآن الكريم يؤكد أن هذه الطيور ليست وحدها التي تسبح الله سبحانه وإنما كل شيء في هذا الكون غارق في لغة التسبيح والتقديس لرب العالمين: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢).

ولماذا لا نفهم ؟ ذلك لأننا نعيش في برزخ يختلف عن برزخهم وفي عالم عن عالمهم، وبتعبير أدق، بيننا وبين هذه المخلوقات برزخ حيث لا يبغي أحدها على الآخر قيد أنملة.

* النبي والأئمة عليهم السلام لديهم علم ذلك:

على أن النبي ﷺ والأئمة - سلام الله عليهم - يطلون على هذه العوالم بخفاياها وأسرارها. فالرسول الكريم كان إذا قبض الحصى بيده يسمع تسبيحها. وعندما كان ﷺ يخطب في المسجد، كان يرتقي جذعاً، وعندما ترك هذا الجذع سمع أنيناً وحنيناً له، فقال لأصحابه:

(١) النور: ٤١ .

(٢) الإسراء: ٤٤ .

«إني أسمع لهذا الجذع أنيناً وحنيناً وحزناً وبكاءً». وهو في هذه الحالة كحالة الوحي تماماً إذ يسمع ويرى ويشاهد ونحن في برزخ آخر لا نفقه شيئاً، فكان أصحابه ينتظرون انتهاء حالة الوحي حتى يقرأ عليهم ما نزل عليه.

كما يُروى أنه عليه السلام مرّ بقبر لشاب من الأنصار، فقال: إن صاحب هذا القبر يتعذب. وعندما سأله لماذا تعذب؟ قال: لأن أُمِّي دعت عليّ، والله يعذبني لأنني كنت عاقاً بها.

ومن هنا حاجتنا إلى النبي صلى الله عليه وآله لأننا نحتاج إلى علمه. ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(١).

فهذا القرآن يحرك الأرض. فهل نعرف كيف هي حركة الأرض؟ وهل نسمع صوتها؟ إننا لا نرى إلا ما يقع عليه بصرنا فقط.

إن علم ذلك في القرآن الكريم ولدى أهل البيت. يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إن هذا العلم موجود عندنا» ونحن ننتظر ظهور الحجة عجل الله فرجه لكي يبرز هذا العلم القرآني إلى العالم الذي يتعرف عندها إلى عظمة القرآن.

* عالم الجن:

وهناك عوالم أخرى تعيش معنا ولكننا لا نراها ولا نحس بها. وهي

(١) الرعد: ٣١.



موجودة كعالم الجن والملائكة. إن عالم الجن مثلنا يعيشون على الأرض والقرآن الكريم نزل موجهاً لنا ولهم والرسول الكريم بعث لهدايتنا وهدايتهم ولكننا لا نراهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (١).
فالرسول الكريم كان يقرأ القرآن فتكاثر عليه الجن ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (٢).

كما أن القرآن الكريم يخاطبنا وإياهم في آية واحدة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣).

وواضح جداً أن الآية تخاطبنا جميعاً، وألف التشية دليل على أننا وإياهم نوعان من المخلوقات لرب واحد عزوجل. فأين هؤلاء الجن؟ لا نراهم.

* عالم الملائكة:

وبالإضافة إلى عالم الجن هناك عالم الملائكة الذين منهم جبرائيل ولكنه الإسراف بعينه والبذخ والترف الذي يحقر النعمة، صحيح أن النبي إبراهيم عندما جاءه ذانك الضيفان جاءهما بعجل سمين مشوي ومحشي. لكنه بعد ذلك وزع الطعام على الفقراء والمساكين ولم يلقه

(١) الجن: ١ .

(٢) الجن: ١ .

(٣) الرحمن: ٣٣ - ٣٤ .



على المزابيل، لا سيما أن الضيفين كانا جبرائيل وميكائيل وهما لا يأكلان الطعام. إن هذا الطعام أيها الأحبة نعمة الله سبحانه وتعالى، لذلك يجب أن نحترم هذه النعمة.

* جسد مادي وآخر مثالي:

إذا نحن نعيش وسط عوالم أخرى ولكنها مخفية عنا ومستورة. والقبر هو المرحلة الأولى في عالم البرزخ حيث تغادر الروح ذلك الجسد المادي لتستبدله بآخر.

إن للروح جسدين: الأول مادي يوافق موازين الحياة الدنيا، والثاني مثالي لطيف ينطلق مع الإنسان إلى عالم البرزخ وعالم الآخرة. وهذه الروح لا تموت إلا إذا انفصلت عن رحمة الله ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(١).

فالكافر ميت، وحياة الإنسان تكون رحمة الله سبحانه وتعالى. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(٢).

إن هذه الآية لا تعني الكفار بل تعني الذين كانوا مؤمنين ثم كفروا بدليل الخروج من النور إلى الظلمات. فأَي نور كان فيه الكافر؟ إن

(١) الأنعام: ١٢٢ .

(٢) البقرة: ٢٥٧ .



الكافر هو أصلاً في ظلام. فقد كان هؤلاء المؤمنون في نور الإيمان فأخرجتهم الشياطين إلى ظلمات الكفر.

إذاً الروح لا تموت طالما هي في رحمة الله، ولكنها تموت في حالة الكفر لأن من يقطع عن الله سبحانه تجده في ظلام دامس والله هو ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

وفي عالم البرزخ ترتدي الروح البدن المثالي الذي يوافق مقاييسه وموازينه، والذي له الشكل نفسه بالنسبة للبدن المادي والروح في عالم البرزخ تأكل وتشرب وتنام، وكل شيء موجود عندها من جنات ونعيم أو نار وعذاب. وفي عالم البرزخ تكون طاقة الإنسان قوية.

* البدن المادي يصيبه الوهن:

من المعروف أن الإنسان يبدأ في هذه الحياة الدنيا ضعيفاً ثم ينتقل إلى قوة الشباب ثم يرد إلى أرذل العمر ضعيفاً واهناً يعلوه الشيب: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾^(٢).

وهي ظاهرة لا تحتاج إلى كثير عناء لكي يدركها الإنسان. وفي هذا المجال يقول الشاعر:

(١) النور: ٣٥ .

(٢) الروم: ٥٤ .



كأنني وقد جاورت سبعين حجة خلعت بها عني عذار لجامي
 على الراحتين مرة وعلى العصا أنوء ثلاثا بعدهن قيامي
 رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برامي
 ويقول ابن الرومي:

ولي عصا عن طريق الذم أمدحها بها أقدم عن تأخيرها قدمي
 كأنها وهي في كفي أهش بها على الثمانين عاما لا على غنمي
 كأنني قوس رام وهي لي وتر أرمي عليها زمان الشيب والهرم

ويروى أن رجلا مسنا دخل على الحجاج وهو يتأرجح في مشيته. قد أربى على مئة وخمسين عاما فسأله الحجاج: كيف أنت في قيامك وجلوسك؟ قال: يا حجاج أصبحت تقيدني الشعرة وتسقطني البعرة، إذا جلست كأنما أهوي في واد سحيق، وإذا قمت كأنما لصقت بي الأرض. هذه هي حال الإنسان إذا طال عمره في هذه الدنيا.

* بدن البرزخ قوي لا يضعف :

أما في عالم البرزخ وعالم الآخرة فكل شيء يتغير ويتبدل إلى قوة مستمرة: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

فأنت ترى كل شيء فلا يحجبك عن الرؤية مانع أو حاجز. ومن هنا تفهم كيف أن الميت لا تخفى عليه خافية في البيت إذ يستطيع أن

(١) ق: ٢٢ .

يدخل ويخرج والأبواب مغلقة لأن بدنه مثالي، لا تحده جدران الدنيا،
فموازينه برزخية.

إن قوانين الدنيا تتحكم فينا نحن البشر إذ لا نستطيع أن نخترق
جدارا، ولا نستطيع أن نرمي بأنفسنا إلى النار لأنها تحرقنا.. وهكذا.
أما الميت فهو أقوى من هذه القوانين المادية.

ويروى عن الرسول ﷺ أن عالم البرزخ، لو وضعنا فيه السموات
السبع والأرضين ومن فيهن، نكون كمن يضع حلقة في صحراء. على أن
في هذا العالم كل ما تشتهيهِ الأنفس وكل ما يلذ الأعين من فاكهة
مثالية وغيرها حيث تكون الأشجار قطوفها دانية قريبة منك.

* عالم البرزخ غير يوم القيامة:

إن كل النعم متوفرة في عالم البرزخ، كما أن فيه جنة وفيه نار. ولكن
عالم البرزخ هذا هو غير يوم القيامة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ
فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١).

أي صباحا ومساء، وكلنا يعلم أن الآخرة ليس فيها صباح ومساء لأن
الصباح والمساء لهما علاقة بحركة الأرض والشمس. ويوم القيامة لن
يكون هناك شمس ولا قمر ولا أرض.

(١) مريم: ٦٢ .



والآيات التي تشير إلى هذه الحقيقة كثيرة. منها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١).

ومنها: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢).

ومنها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٣).

ومنها: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (٤).

ومنها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦)﴾ (٥).

إن هذه الآيات واضحة في أن كل شيء ينتهي من شمس وقمر وأرض، فلا يعود هناك مجال للحديث عن بكرة وعشي إلا في عالم البرزخ.

على أن هناك آية تتحدث أيضا عن النار في عالم البرزخ إذ تتحدث عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (٦).

أي صباحا ومساء. وسبق القول إنه في يوم القيامة لن يكون هناك صباح ومساء. فالنار التي يعرض عليها آل فرعون هي نار البرزخ. ومن

(١) التكوير: ١ .

(٢) يس: ٣٨ .

(٣) القمر: ١ .

(٤) الحاقة: ١٤ .

(٥) الزلزلة: ١ - ٦ .

(٦) غافر: ٤٦ .

هنا نفهم قول الرسول ﷺ إذ يقول: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النيران».

* زاد السفر:

يقول رسول الله ﷺ: «اذكروا هادم اللذات». لأن الكثيرين منا غافل عن الموت فلا يذكره. ويقول الإمام الحسن - سلام الله عليه - لجنادة: «يا جنادة، استعد لسفرك، وحصل زادك قبل حلول أجلك»، فنحن على أهبة السفر وهو يحتاج إلى الزاد: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(١).
﴿وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(٢).

ذلكم هم أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - الذين كانوا يتهيؤون للقبر ويتزودون لهذا السفر، فما بالنا نحن نغفل عن هذه الحقيقة الماثلة أمامنا، الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؟ لماذا لا نتذكر القبر والموت هادم اللذات، وذلك القبر الذي كان يتهيبه الإمام زين العابدين ومن قبله الحسين والحسن وأمير المؤمنين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - ومن قبلهم الحبيب المصطفى ﷺ.

لقد كان الإمام زين العابدين يقول: «افرشوا قبوركم بالأعمال الصالحة». فلماذا لا نهى شمعة تتير عتمة القبر؟ وما بالنا نتشبه بهذه الدنيا التي طلقها الإمام علي ثلاثا لا رجعة فيها، ونحن نعلم كل العلم أنها زائلة فانية.

(١) البقرة: ١٩٧ .

(٢) الحشر: ١٨ .

على أن الإسلام ليس ضد الدنيا من حيث المبدأ، بل هو يدعونا لكي
نجندها في سبيل الآخرة وسعادتها، وحينئذ نريح الدنيا والآخرة، علما
أن الإنسان عندما يموت يترك كل شيء، في هذه الدنيا ماعدا كفنا
يكفن به وما خلا عملا قام به إنه سفر غير مسموح لنا أن نحمل وما
خلا عملا قام به إنه سفر غير مسموح لنا أن نحمل فيه سوى هذه
الأمطار الخمسة من القماش الأبيض. وكل ما عدا ذلك يبقى مكانه،
فأرصدة البنوك تبقى مكانها تنتظر الورثة لكي يتقاسموها والأراضي
والحقارات والأبنية كلها تبقى. ولا شيء ينفعنا إلا عمل نأخذه معنا،
وحضورنا مجالس أهل البيت فهي زاد ينير عتمة القبر ويبدد وحشته،
لأنهم مصابيح دجى ومناارات دروب يقول الشاعر:

يا موت ما أقساك من نازل تنزل بالمرء على رغمه
تستلب الحسناء من خدرها وتأخذ الواحد من أمه
ويقول آخر:

يا أيهذا الذي قد غره الأمل ودونما يأمل التنغيص والأجل
أما ترى أنما الدنيا وساكنها كمنزل الركب حلواً ثم ترتحل
حتوفها رصدٌ وعيشها نكدٌ وَصَفْوُهَا كدرٌ وملكها دُولُ
تظل تقرع بالروعات ساكنها فلا يطيب له أمن ولا أملُ
النفس هاربة والموت يتبعها وكل عشرة رجلٍ عندها زلُّ
والمرء يسعى لما يبقى لوarithه والقبر وارث ما يسعى به الرجلُ

وقال ثالث :

كأني بأحبابي على حافتي قبري يهيلونه فوقي و أدمعهم تذري

ألا أيها المذري عليّ دموعه ستعرض في يومين عني وعن ذكري

لذلك يجب أن نتعظ أيها الأحبة قبل حلول الأجل «فلا تفرنكم الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها» إذ أن الواحد منا يمحي اسمه بمجرد أن يموت فيشطب من دوائر النفوس، ولا يبقى معنا ما ننقله إلى القبر سوى عمل قمنا به في هذه الدنيا الزائلة الفانية.

يقول الرسول الأعظم ﷺ: «إذا حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وتصور أنك طلبت من الله وقلت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾^(١) وأن الله أرجعك فانظر ماذا تعمل».

وفي هذه اللحظات الصعبة ينادي ملك الموت: يا ابن آدم إنني قد جبت الدنيا والفضاء أبحت لك عن نسمة هواء فما وجدت لك وأبحت لك عن لقمة طعام فما وجدت وعن قطرة ماء تشربها فما وجدت. لقد انتهت رحلتك في هذه الدنيا وآن الأوان لرحلة مقبلة إلى عالم البرزخ وعالم الملكوت.

* وحشة القبر:

إن كل من يسافر إلى دولة ما تراه يحضر أوراقه وجواز سفره حتى لا يكون هناك أدنى خطأ يجعله يقف مرتبكا عند الحدود، لذلك يتأكد

(١) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠ .

من صحة الجواز وصحة الأوراق. فكيف لا ندقق في أعمالنا وحساباتنا ونحن مقبلون على ملكي القبر منكر ونكير اللذين تنخلع القلوب بمجرد رؤيتهما، وهما لا شك ينتظران عند القبر.

وفي هذا المجال يقول الإمام الرضا عليه السلام: «أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن: يوم ينزل من بطن أمه. فيرى الدنيا وأهلها ويوم ينزل في قبره فيرى الملائكة هناك وعالم البرزخ، ويوم يقف بين يدي الله فيرى أحكاما لم ير مثلها في الدنيا».

وقد سلم الله سبحانه وتعالى على نبيه يحيى في هذه المواطن الثلاثة، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(١).
كما سلم عيسى عليه السلام على نفسه فقال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٢).

* عوالم ثلاثة:

إن ما يحدث في هذه العوالم الثلاثة: عالم الدنيا وعالم البرزخ وعالم الآخرة حيث ينتقل الإنسان دائما من عالم معلوم لديه إلى عالم مجهول لا يعرف عنه شيئا، لهو شبيه بما يحدث قبل هذه العوالم الثلاثة.

فإن الإنسان يكون بداية في عالم الذر إذ لم يكن شيئا مذكورا ثم

(١) مريم: ١٥ .

(٢) مريم: ٣٣ .

يبدأ رحلة جديدة في بطن أمه تدوم حوالي تسعة أشهر لكي يولد بعدها ويبدأ رحلة جديدة في عالم الدنيا. وبالطبع لكل عالم من هذه العوالم برزخه وقوانينه وموازينه ومقاييسه الخاصة.

فلو أننا استطعنا عن طريق أجهزة دقيقة متطورة أن نكلم الجنين وهو في بطن أمه يجري بيننا الحوار التالي:

- أيه الزائر الجديد، أهلاً بك.

- من أنتم؟

- نحن من الدنيا

- وأي دنيا هذه التي تتسبون إليها؟

- الدنيا وما أدراك ما الدنيا. إن حديثها طويل.

- وهل الدنيا التي تزعمون أكبر من هذا العالم الذي أنا فيه؟

- أجل، إنها أكبر بكثير، أكبر مما تتصور.

- عجباً، وهل يمكن أن يكون هناك مكان أكثر اتساعاً؟

إن قبل هذا الحوار يمكن أن يوضح لنا بشكل دقيق حديثنا عن عالم البرزخ من حيث اختلاف القوانين والمقاييس. فهذا الجنين يجهل تماماً أي شيء عن الحياة الدنيا.

وإذا جاء إلى الدنيا فإنه سوف يكتشف عالماً جديداً مختلفاً عن العالم الذي كان فيه. والأمر نفسه سوف يحدث فيما لو انتقل من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ الذي نحن بصددده، فالحياة الدنيا بالنسبة لعالم البرزخ تماماً كنسبة بطن الأم إلى الحياة الدنيا.



* في البرزخ حساب وكتاب:

منذ أن يصل الإنسان إلى عالم البرزخ سوف يجد ملائكة بانتظاره، ثم يعطي كتابه فيأخذه إما بيمينه وإما بشماله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ ﴾ (١).
﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِمَا حِسَابِيَهٗ ﴾ (٢).

أما الذي يأخذ كتابه من وراء ظهره فتراه يقول: ﴿ مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٣).

إذ أن كل شيء مدون في هذا الكتاب مهما بدا تافها بالنسبة لصاحبه.

إن الله سبحانه وتعالى قد أعطاك كل شيء في هذه الدنيا. لذلك سوف تكون الأسئلة كثيرة وعلى قدر العطاء الذي أعطيت. سوف تُسأل: كم إنساناً مسكيناً حطمت قلبه وكم إنساناً ظلمت وكم إنساناً رددت من غير أن تقضي حاجته وكم إنساناً سعيت فيه عند السلطان الجائر فدمرت حياته ودمرت أهله وعائلته؟ وكم... وكم... إلى آخر السلسلة.

(١) الحاقة: ١٩ - ٢٠ .

(٢) الحاقة: ٢٥ - ٢٦ .

(٣) الكهف: ٤٩ .

*** عندما تدنو ساعة الموت:**

إن الإنسان الذي يتوجه إلى الله سبحانه ويسلم أمره إليه ويعلم أنه الحق وأن إليه المصير تجده يعي خطورة الرحلة المقبلة ويعلم أن ساعة الموت سوف تدنو منه وأن الموت سوف يداهمه في أية لحظة لينهي حياته الدنيوية، فتجده يستعد لتلك اللحظات الحاسمة عملاً بقول الإمام الصادق عليه السلام: «علمت أن الموت يدركني فاستحضرت».

وفي هذا المجال يقول الإمام علي عليه السلام وفي وصية له: «واعلم يا بني أنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربة ولا يفوته طالبه، فكن منه على حذر، من أن يأتيك وأنت على حالة سيئة قد كنت تحدث نفسك بالتوبة منها فيحول بينك وبينها».

ولسوف لن يستفيد من الأهل والأحبة الذين تجمعوا حوله ليكون ويلطمون الرؤوس.

يقول أبو العلاء المعري في هذا المجال:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي	نوح باكِ ولا ترنم شادي
وشبيهُ صوت النعي إذا قيس	بصوت البشير في كل نادي
أبكت لكم الحمامة أم غنّت	على فرع غصنها المياد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب	فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض	إلا من هذه الأجساد
رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً	ضاحكٍ من تراحم الأضداد
ودفينِ على بقايا دفينِ	في طويل الأزمان والآباد



وعندما تتفصل الروح عن البدن تطوف حول أهل بيتها ثلاثين يوماً
تنتظر منهم أن يذكروها، ثم تطوف حول القبر عشرة أيام. ومن هنا
كانت ذكرى الأربعين التي تقام للميت.

ويروي حبة العرني فيقول: خرجت مع أمير المؤمنين إلى المقبرة
فرأيته وقد أطل الوقوف وشفته تتحركان. فقلت: سيدي أراك
تحدث؟ قال: بلى. فقلت: سيدي مع من؟ قال: يا حبة إن هي إلا
محادثة مؤمن. قلت: سيدي، من قال: يا حبة لو كشف لك عن بصرك
لرأيتهم جلوساً حول القبور حلقاً يتحدثون ويتزاورون. وفي رواية أخرى
مماثلة عن الأصبع بن نباته، يقول: سألته: أرواح أم أجساد قال: لا بل
أرواح.

* أهل البيت كيف يتزودون للأخرة:

إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يطرق أبواب الفقراء باباً فباباً
يحمل إليهم ما يخفف عنهم. والإمام الحسين - سلام الله عليه - كان
يعيل أربعمئة بيت في المدينة.

والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان إذا ذبح ذبيحة يوزعها، ولا يبقى لنفسه
ولبيته إلا الفخذ. فتقول عائشة يا رسول الله، لم يبق لنا من الذبيحة
إلا الفخذ. فيقول: يا عائشة بل كل الذبيحة بقيت ولم يذهب منها إلا
الفخذ الذي سوف نأكله، وما أعطيناه فإنه يرجع إلينا.

والإمام السجاد كان إذا رأى فقيراً مقبلاً عليه يقول: مرحباً بمن
يحمل زادي إلى يوم القيامة.



أما أولئك الذين تكفهر وجوههم لدى رؤيتهم فقيراً مقبلاً عليهم
فلسوف تكوى جباههم هذه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا
جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ (١).

إن هؤلاء، نسوا أو تناسوا قول السجاد الأنف الذكر ولم يستمعوا
إلى الرسول الأكرم وهو يقول: «اتخذوا أيادي مع الفقراء، فإن لهم دولة
يوم القيامة». وعندما سئل: كيف يا رسول الله؟ قال: «يوم القيامة يأتي
الفقراء فيقال لهم خذوا بأيديكم من المحشر ما شئتم، من أطعمكم
كسرة خبز أو سقاكم شربة ماء أو كساكم ثوباً. خذوا بيديه وأدخلوه
الجنة».

أجل هؤلاء هم الفقراء الذين يدير الممولون لهم ظهورهم أو تكفهر
لدى رؤيتهم جباههم. إن لهم يوم القيامة دولة. فلماذا لا نقول لهم في
الحياة الدنيا مع الإمام زين العابدين - سلام الله عليه - : مرحباً بمن
يحمل زادي إلى يوم القيامة؟ ولماذا لا نتعلم الدرس من هؤلاء الأطهار
الذين كان همهم المزيد من التزود ليوم القيامة، وهم من هم في عالم
التقى والعلم والورع والإيمان.

ويروي عمران بن حصين أن الرسول قال له مرة: يا عمران إن لك
منزلة عندنا، هلا جئت معي لعيادة ابنتي فاطمة عليها السلام؟ وكانت هذه
الدعوة مفاجئة له لأن في ذلك شرفاً له وأي شرف. وبعد أن استأذن
الرسول ﷺ بالدخول هم ومن معه، يقول عمران: لما دخلت فإذا بوجه

(١) التوبة: ٣٤ - ٣٥ .

الزهراء مصفر من الجوع. وعندما سألتها الرسول عن حالها، قالت: مضى ثلاثة أيام لم أكل فيها شيئاً من الطعام.

ولو سألتها: لماذا؟ علمت أنها كانت ترسل بطعامها إلى الفقراء وتؤثرهم على نفسها، علماً أن الخير والغنائم كانت تتدفق على رسول الله ﷺ ولكنه كان يوزعها على الفقراء والمحتاجين. لذلك كان الجوع من نصيبه ونصيب أهل بيته. ولذلك كان يقول للزهراء: «بنية فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة». أجل ذاك هو السر. إنهم لا يفكرون إلا بالآخرة، لذلك تجدهم يتجرعون مرارة الدنيا بمزيد من الرضا والقبول امتثالاً لأمر الله سبحانه.

* عندما يتوب المذنب:

يروى أن ملك الموت نزل على موسى عليه السلام. فسأله جئت زائراً أم جئت قابضاً؟ قال: بل جئت قابضاً. وعندما طلب إليه النبي موسى عليه السلام أن يمهل له كي يودع عياله لم يستجب له. وسمح له أن يسجد لربه بناء على طلبه. وفي أثناء السجود طلب من ربه أن يمهل ملك الموت حتى يودع عياله، فكان ما أراد. وكان الوداع مؤثراً على زوجته وأمه وأطفاله، لا سيما ذلك الطفل الصغير الذي لم يتجاوز من العمر خمس سنوات فقد تشبث بشياب أبيه باكياً، فبكى موسى. وعندما سأله الرحمن مم بكاؤك؟ قال: يا ربّ إني رحيم بعائلي وأطفالي لاسيما هذا الطفل الصغير. فجاءه الجواب من رب العالمين: لن أتركهم يا موسى، وسأحميهم فأنا الرحمن الرحيم.



ويروى أيضاً، وهنا بيت القصيد، أنه كان في بني إسرائيل شاب فاسق ضج منه أهل قريته ودعوا الله أن ينقذهم منه فأوحى الله سبحانه إلى موسى أن يخرجهم من تلك القرية، فأخرجهم منها وطاف به على سائر القرى التي كان يرفضه أهلها. وأخيراً ذهب به إلى مغارة في العراء بعيدة عن كل مكان مأهول.

وهناك انقطع هذا الشاب لعبادة الله سبحانه وراح يدعو أن يقبله ويقبل توبته بعد أن رفضه الجميع، وداوم على العبادة والزهد في ذلك المكان الموحش إلى أن مرض ذات يوم دون أن يجد إلى جانبه من يساعده من أم أو ولد. فدعا الله أن يكون له عوناً في محنته، فأوحى الله إلى ملائكته وإلى الحور العين أن يكونوا إلى جانبه بصورة أمه وزوجته وأبيه وأن يجهزوه بعد وفاته.

كما أوحى إلى موسى كي يخرج إلى تلك المغارة لكي يكفن ويجهز ويصلي على ولي من الأولياء الصالحين. وكم كان الأمر مفاجئاً لموسى عندما علم أن ذلك الولي ما هو إلا ذاك الشاب الذي أخرجهم من القرية منذ حين. وعندما سأل موسى ربه عن السر، كان الجواب: يا موسى، لقد تاب فحصل على رحمتي لأنه فارق أهله وأضحى غريباً عنهم، من أجل كل ذلك نال رحمتي يا موسى.

* قراءة القرآن ليلة الوحشة:

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يستحسن أن يقرأ القرآن على قبر الميت في ليلة الوحشة، لأن في ذلك أنساً له وعوناً. ولذلك ترى



الحسين ليلة العاشر من محرم يوصي أخته زينب - سلام الله عليهما - ألا تنسأ في صلاة الليل لا سيما بقراءة القرآن. وكذلك الزهراء - سلام الله عليها - تطلب من الإمام علي عليه السلام أن يتعهد قبرها بتلاوة القرآن. لذلك كان يذهب إلى قبرها ويقرأ القرآن.

وفي ذات ليلة غلبه النوم وهو عند قبرها، فرأى الزهراء تطلب إليه أن يعود إلى البيت لأن الحسن والحسين وزينب قد استيقظوا من النوم فوجدوا الدار خالية. فرجع أمير المؤمنين إلى الدار فوجدهم أيقاظاً يكون في ظلام الليل. وعندما سأله أين كان أخبرهم بأنه كان عند أمهم الزهراء - سلام الله عليها - فأصرت عليه الحوراء أن يأخذها إلى قبر أمها فاطمة فعاد إلى القبر ومعه الحسن والحسين وزينب - سلام الله عليهم أجمعين -.

* الضلع المكسور:

تروي أسماء بنت عميس أن الإمام علياً عليه السلام عندما كان يغسل الزهراء على المغسل، انتحى جانباً وراح يبكي بكاءً مرّاً. وعندما طلبت إليه أسماء أن يتصبر قائلة له: هون عليك يا أبا الحسن فأنتم علمتمونا أن نصبر. فقال لها: يا أسماء الصبر عنها جميل، ولكنني لما وضعتها على المغسل رأيت ضلعها المكسور.

وعندما انتهى من غسلها وتكفينها، تقول أسماء: نظر أبوالحسن إلى أولاده الحسن والحسين وزينب الذين كانوا يكون بحرقه، فناداهم هلموا وتزودوا من أمكم فاطمة الزهراء فهذا الودع الأخير.



فأقبل الحسن والحسين وزينب وألقوا بأنفسهم على أمهم فاطمة.
يقول الإمام علي عليه السلام: «والذي نفس علي بيده، لقد رأيت فاطمة حنت
وأنت وأخرجت يديها وضمت أولادها إلى صدرها» وإذا جبرائيل ينادي
بين السماء والأرض: يا علي إرفعهم عن جسد أمهم الزهراء فلقد والله
أبكوا ملائكة السماء.

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولسوف يعلم الذين ظلموا
أي منقلب ينقلبون.

الإيمان والأخلاق
نور في طريق
الحضارة الإنسانية

الإيمان والأخلاق

نور في طريق الحضارة الإنسانية

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (١).

في الفكر الإسلامي والبحوث الإسلامية توجد خطوط أساسية لتوجيه الإنسان. وهذه الخطوط تقتضي من الإنسان أن يفتح عقله وقلبه حتى يستوعبها استيعاباً كاملاً، لأن الحواس غير قادرة على هذه المهمة الصعبة.

* مفهوم النور في الإسلام:

في القرآن الكريم مفهوم أساسي عظيم الشأن في حياتنا اسمه النور. وليس المراد بذلك هذا النور المادي الذي تراه العين. وإنما بالنور إلى جانب الأعمق وهو الإيمان والأخلاق.

(١) النور: ٣٥ - ٣٦ .

ولتقريب المعنى نضرب على ذلك مثال الجنين في بطن أمه. يقول القرآن الكريم ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (١).

فالظلمات هنا مادية تدرك بالحواس، وهي ليست ظلمات معنوية، وإنما ترمز إلى الأغشية الثلاثة التي تلف الجنين وهو في بطن أمه لتحميه من المؤثرات الخارجية المضرّة به. ولكن عندما يخرج الطفل من رحم الأم يبدأ بالاتصال بنوعين من النور: النور المادي الذي يتمثل بالضوء وتلتقطه العين، والنور الآخر المعنوي الذي يتمثل بالتربية والأخلاق وخط الإيمان.

أول ما يطلّ الطفل على هذا العالم نستقبله بالأذان والإقامة، ويستقبله حجر الأم الطيّب. ولذلك يقول الرسول الأعظم: «تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس». فهو يدعو الأب إلى أن يختار حضناً طيباً لولده يتمثل بالأم الصالحة التي سوف ترضع ولدها الأخلاق الطيبة مع لبنها الطاهر. فهذا الحجر الطيب هو الذي ينعكس على الطفل حناناً وعطفاً ومحبةً ومداواة. ومن هنا يبدأ الطفل بالتمييز بين الظلمات والنور، وهو يشعر بهذا الفرق وإن كان لا يستطيع التعبير عنه، وإنما يظهر ذلك على مزاجه وسلوكه ويتضح في المستقبل.

يحكى عن والدّة الشيخ العالم الجليل مرتضى الأنصاري، عندما سئلت عن سبب نبوغ ابنها، أنها قالت: لا تعجبوا، واللّه ما وضعتّه يوماً على صدري إلا وكنت على وضوء.

(١) الزمر: ٦ .



* مثل النور والمصباح:

وحتى يضيء النور ويشعّ لابد أن يكون المصباح سليماً وصحيحاً.
فالإنسان هو هذا المصباح والزجاجة والمشكاة. فإذا كانت سليمة
صحيحة فإن الله يجعل فيها نوراً يضيء درب الحياة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (١).

أو قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ﴾ (٢).

فالنور الذي يهتدي به الإنسان ينعكس على سلوكه في العقيدة
والأخلاق والعمل الصالح. وهذه الأسس الثلاث في حياة الإنسان لا
نجدتها إلا في التربية الإسلامية. ففي الإسلام تأتي التزكية قبل كل
شيء. فأنت تأخذ نوراً على قدر استعدادك. ولذلك يقول القرآن
الكريم: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٣).

* النور وطريق الحياة :

إن الإنسان المؤمن هو الذي يصطحب معه هذا النور في سيرته في
هذه الحياة، فينير له الدرب ويهديه إلى سواء السبيل. وشرط ذلك هو
الإيمان بالآخرة. وبدون هذا الشرط لا يعرف الإنسان النور. فالذي
يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة إنما يسير على غير هدى ولا ينفعه إيمانه

(١) النور: ٤٠ .

(٢) الأنعام: ١٢٢ .

(٣) الجمعة: ٢ .



الناقص. أما المؤمن بالآخرة فإن عمله الصالح في هذه الحياة ينعكس
نورا يرافقه إلى القبر فيضيء له ظلماته ويأنس به، كما يرافقه إلى
الدار الآخرة. ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١).
فتستقبلهم الملائكة بالبشرى: ﴿بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾ (٢).

أما المنافقون الذين انقطعوا عن الإيمان فانقطع النور عنهم، فإنهم
يوميئذ في ظلام كبير: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ
بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (٣).

* شهر رمضان ونور الأخلاق:

الخطوة الأولى في طريق النور هي أن تحسن أخلاقك في شهر
رمضان. وهذه فرصة ذهبية منحها الله سبحانه لنا لنقتبس من نور
الحق. يقول الرسول ﷺ: «ألا ومن حسن منكم خلقه في هذا الشهر
كان له جوازاً على الصراط يوم تزلُّ عليه الأقدام».

وتحسين الأخلاق يعني محاسبة النفس على أعمالها. فكل واحد منا
مدعو لإجراء محاكمة ذاتية والقيام بجردة حسابية لأعماله، فيسأل
نفسه: هل كذبتُ على أحد؟ هل استغبت أخِي المؤمن؟ ثم يسأل بدنه

(١) الحديد: ١٢ .

(٢) الحديد: ١٢ .

(٣) الحديد: ١٣ .



وجميع جوارحه: هل نظرت عيني نظرة سوء؟ هل كنت همّازاً لما زاء؟ . .
لقد حذّرنا القرآن الكريم من نظرة السوء والتشكيك، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١).

ودعانا لأن نكون رقباء على أنفسنا: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
بَصِيرَةٌ﴾ (٢).

إذن نحن نبدأ بالاعتباس من النور بأن نبدأ بمحاسبة النفس في
شهر رمضان المبارك لأن أبواب الرحمة تكون مفتحة في هذا الشهر
الكريم وأبواب النيران تكون مغلقة، وفي كل ليلة من لياليه تعتق رقاب
الناس من النار بمقدار أيام السنة التي مضت ... إنها فرصة عظيمة
نتوجه فيها إلى الله لنظهر أنفسنا وأبداننا مما يكون قد علق عليها من
أدران الخطايا والذنوب.

* شروط تحسين الأخلاق:

وتحسين الأخلاق والتوبة عن الذنوب أمر لا يمكن أن يقتصر على
الموعظة ومجرد الكلام، وإنما هو قبل كل شيء، ممارسة وتطبيق.
ونجاح هذه العملية يرتبط بأمرين أساسيين: قوّة النور العقلي وضعف
الغضب والشهوة. فإذا أردت أن تغيّر عادة سيئة كالتدخين مثلاً، فإنك
تحتاج إلى قناعة تامة بهذا الأمر، أي إلى عقل نشط متيقظ يدرك
مساوئ التدخين، ومن جهة ثانية تحتاج إلى قمع غريزتك وشهوتك

(١) الهمزة: ١ .

(٢) القيامة: ١٤ .

والى إضعاف القوة الغضبية فيك. ومن هنا يقول أمير المؤمنين -عليه السلام-: «ذهاب العقل بين الغضب والشهوة». فإذا ثار الغضب ذهب العقل وتملكت الشهوة الإنسان فلا يعود قادراً على التمييز بين الصواب والخطأ، كما لا يعود قادراً على تقويم سلوكه.

ولماذا يدعونا الرسول إلى تحسين أخلاقنا في شهر رمضان؟.. لأن الثابت بالعلم والتجربة أن الصيام يكسر الشهوات ويضعفها ويكون العقل في قمة قوته وتألقه، كما تكون التقوى في أبهى حالاتها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

* نور الأخلاق والعائلة:

وإذا كان نور الأخلاق ينطلق من تقويم النفس ومحاسبتها، فإن أول تجلياته تظهر في العلاقات داخل الأسرة. فالزوجة تحسن أخلاقها مع زوجها وأولادها، والزوج يحسن أخلاقه مع زوجته وأولاده، والأخ يعامل أخاه بالرفق والرحمة، ويمتد ذلك إلى الأرحام والجيران والأصدقاء. وهكذا تتماسك الأسرة ويتماسك المجتمع وتسود فيه المحبة والالفة والتعاون. ولذلك فإننا نرى الزهراء - عليها السلام - تدعو في صلاتها لجيرانها.

إن العنوان الأساسي لمدرسة الإسلام الأخلاقية هي الوحدة والتماسك الاجتماعي والأسري، ولا شيء يدمر البيوت والأسر والمجتمعات مثل الفرقة والتباعد والتناحر.

(١) البقرة: ١٨٣ .



والأخلاق هي النور الذي يعالج الروح ويشفيها من أمراضها، كما يعالج الطب أمراض البدن. فمن لا يمتلك الأخلاق ليس له علاج. ولذلك يقول الرسول الأعظم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

فالأخلاق العظيمة السامية ترافق الرسالة العظيمة التي حملها الرسول الأكرم إلى العالمين وهي النور الذي يدخل في القلوب والنفوس فيجعلها تتقبل الرسالة والهداية. وإلا فالنفس المحرومة من الأخلاق هي نفس مظلمة وبصيرة عمياء.

وإذا تأملنا في سيرة الرسول ﷺ نجدها النموذج الأرقى لمكارم الأخلاق. فهو إذا رأى قطعة صغيرة عطشى يساعدها على الشرب، وإذا أكل التمر فإنه يضع النوى في يده اليسرى حتى إذا مرّت شاة بقربه أشار إليها به... هذه هي مكارم الأخلاق التي لا تحكم سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان وحسب، وإنما تتطلق باتجاه جميع الكائنات بالرفق واللين والرحمة. ويوم دخل الرسول مكة ظافراً منتصراً أقبل على أهل مكة الذين عذبوه وآذوه يلفّه الحياء والخجل ويضع رأسه على قريوس فرسه، ثم يخاطب أهل مكة الذين كانوا يرتجفون رعباً وخوفاً من أن ينتقم المسلمون منهم، وقال: «ما تظنون أني صانعٌ بكم الآن؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم... قال: «إني لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء!.. ثم تأتيه هند آكلة الأكباد، تلك التي مثلت بجسد الحمزة فيعطيه الرسول الكلام ويطلق حريتها في النقاش والحوار!

(١) القلم: ٤ .



بهذا النور العظيم استطاع الرسول أن ينطلق إلى جميع الناس، واستطاعت بالتالي رسالة الإسلام أن تنطلق إلى جميع أنحاء المعمورة.

* نور العدل:

وما من نور أعظم من نور العدل. فالحاكم العادل يحيي المجتمع ونفوس الناس كما يحيي المطر الأرض العطش. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت». فلنتأمل قليلاً في هذه المرتبة السامية من العدل، ولنلتمس إلى الحكام الظلمة الجائرين الذين يسلبون الإنسان حرите وكرامته، وهم موجودون في كل مكان وزمان... على أن الله سبحانه وتعالى قضى بأن ينتصر نور العدل في النهاية، وهذا النور يتمثل بظهور الإمام المهدي، عجل الله فرجه، الذي سيملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. ونحن بالتأكيد في عصر الظهور. فكل العلامات تشير إلى ظهور المهدي، وما هو إلا وقت يسير حتى نرى هذا النور الذي نتحدث عنه.

* نور أهل البيت عليهم السلام:

والآيتان الكريمتان اللتان افتتحنا بهما الحديث تشيران إلى معنيين أساسيين يتعلقان بالنور الذي نتحدث عنه. المعنى الأول أن الله سبحانه يهدي من يشاء إلى هذا النور. والمعنى الثاني أن هذا النور موجود في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. وهذه البيوت هي بيوت أهل



البيت وذريتهم. إنهم مبعث النور وطريق الهداية للبشرية. وعبثاً نحاول البحث عن هذا النور خارج أهل البيت - عليهم السلام - .

في كتاب للإمام الباقر عليه السلام اسمه «تزويج فاطمة بنت رسول الله» يذكر أن الزهراء عليها السلام كانت تقاسم أعمال المنزل مع خادمتها. يقول الإمام الباقر: ولما علم الرسول ﷺ بذلك، فاضت عيناه بالدموع وقال: «الله اعلم حيث يجعل رسالته. ذرية بعضها من بعض».

إن الرسول وأهل بيته - عليهم السلام - يدلّوننا على هذا النور المتمثل بالأخلاق الإسلامية العالية. فأنت عندما تقضي حاجة إنسان فإنك تشعر بنور يتدفق في أعماقك. وعندما تصون نفسك وجوارحك عما يشينها تشعر أيضاً بهذا النور. يقول الرسول ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله نورا وإيماناً يجد حلاوته في قلبه». فأنت إذا غضضت بصرك عن امرأة أجنبية فإنك تشعر مباشرة بالنور في أعماقك، في حين أن نظرة السوء تخلف في نفس الإنسان إحساساً قوياً بالظلام والمرارة والتأنيب.

* رمضان المبارك شهر النور:

ولقد جعل الله تعالى لنا هذا الشهر المبارك نوراً نقتبس منه ونضيء أنفسنا وأرواحنا برحمته ونزكي أعمالنا وأبداننا ببركته. فهو الشهر الذي نزل فيه النور الأعظم للبشرية ألا وهو القرآن الكريم.

وفي هذا الشهر علينا أن نحیی لیالیه بالتوجه إلى الله تعالى بدلاً من اللهو والسهر، لأن الرسول يقول لنا: «دعائكم فيه مستجاب وعملكم فيه مقبول».



وفي هذا الشهر لنتجه إلى تعزيز علاقاتنا بذوي أرحامنا وأهلنا وجيراننا، لأن أخلاق الإسلام وأخلاق أهل البيت تدعو إلى ذلك .

وفي هذا الشهر المبارك لنملاً قلوبنا بالمحبة والطمأنينة ونبتعد عن الوحشة والخوف، هذا المرض الذي يفتك بالبشرية فيحرمها حلاوة العيش لأنها تعيش في ظلام مطبق بعيداً عن نور الإسلام وأخلاقه .

ولنتوجه إلى قراءة القرآن فإن فيه من الخير ما لا يحصيه الحاصون ولا يعدّه العادون . فمن قرأ « الحمد » و « قل هو الله أحد » وكل الله عليه عشرين ملكاً يحرسونه إلى الصباح ويستغفرون له .

وللصلاة نور ينعكس في سلوك الإنسان: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (١).

وهي تنزه الإنسان عن أنواع الفواحش والسيئات . ولذلك تقول الزهراء عليها السلام: «جعل الله عليكم الصلاة تنزيهاً عن الكبر» .

هذا هو النور الذي نحتاجه في حياتنا ... إنه نور الإسلام وأخلاقه، نور الحبيب المصطفى، نور أهل البيت ... نور البيوت التي ﴿أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ (٢).

إنه: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣).

(١) العنكبوت: ٤٥ .

(٢) النور: ٣٦ .

(٣) النور: ٣٥ .





مواصفات الشيعة في الحياة

مواصفات الشيعة في الحياة

قال الصادق عليه السلام شيعتنا أهل الهدى، وأهل التقى وأهل الخير، وأهل الفتح والظفر. لاحظوا الخط الفكري كيف تتكامل حلقاته في هذا الحديث، حتى لم يعد في إمكانك أن تستبدل كلمة مكان أخرى.. وإنما هناك رباط يشد حلقات الحديث، بخط فكري رفيع يصل بالإنسان إلى أرفع المستويات في النجاح والانتصار.. ولكي تبدو صورة الحديث واضحة، فإنه لا بد من مشية هادئة في ظلال هذا الحديث الوارد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - فالإمام هنا يرسم صورة صادقة وحقيقية لكل من ينتمي إلى أهل البيت، ويطلق كلمة الشيعة على نفسه..

إنه يكشف لنا عن مواصفات الشيعة في الحياة، فيقول: شيعتنا أهل الهدى وأهل التقى، وأهل الخير، وأهل الفتح والظفر..

الهدى معناه الوعي الكامل للأمر.. بل أكثر من ذلك، الهدى يعني انفتاح البصيرة على أشدها، وهذا معناه الوصول إلى قمة الرشده..

وإذا تربع الواحد على قمة الرشده، فذلك يعني انكشاف الطرق، والحيل أمام عينيه بشكل واضح جلي، إذ لم تعد الطرق خافية على صاحب الرشده.. وهنا يكمن الخطر.. فإن الذي يعرف الطرق ممكن أن ينزل في مهاوي الشيطان كما حدث لباعم باعورا، وكما حدث لشبث بن ربعي، وشريح القاضي وأمثالهم.. حيث بلغ كل واحد منهم قمة الرشده ثم انزل وهوى.. كما يحدثنا التاريخ عن شريح القاضي فإنه

كان يقضي قرابة ٥٠ عاماً في العراق في الكوفة، والبصرة، ولكنه مع هذا المقام الرفيع انحدر ولم يتمكن من حفظ مكانته فافتى بوجوب قتال الإمام الحسين، وأمر الناس أن يشهروا السلاح بوجهه.

ومن أمثال شبت بن ربعي، وشريح القاضي، من أمثالهم كثير وكثير.. ولذلك نجد الترابط الفكري في هذا الحديث أنه لا يكتفي بالهدى، وإنما يجيء معه بصفة ثانية ملازمة للهدى، وهي التقى، لأن التقى تحفظه من الانزلاق والضياع.. ولكن عند اجتماع الهدى والتقى في الإنسان، تبرز عقبة ثانية في الطريق وهي أن الذي يملك زمام الهدى، وناصية التقى بيده، يصبح موضع ثقة الجميع، وهنا بيت القصيد، وهنا الطامة الكبرى، وذلك أنه حين يصبح موضع الثقة والمورد - العذب كثير الزحام كما يقولون - فإن الناس يسلمونه أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وعليه أن يقوم بعمل الخير، وإلا فإنه سيكون أقرب إلى الانزلاق من غيره. وليس هناك ضمان له من الانزلاق إلا عمل الخير، لأن عمل الخير في الواقع هو ممارسة فعلية لحالة الإيمان، ولذلك نجد القرآن الكريم في كل آياته التي يتحدث بها عن الإيمان والمؤمنين، نجده يربط الإيمان بالعمل الصالح، لأن القيام بالعمل الصالح يعمق جذور الإيمان في النفس الإنسانية، ولهذا نسمع الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام يقول: وإنما يستدل على الصالحين بأعمالهم، أو حديث من هذا القبيل.

إذن: فتحنا هنا أمام رجل مؤمن مجاهد كله نشاط وحيوية، قد اجتمعت فيه عناصر ثلاثة: الهدى، والتقى، والخير، فإذا اجتمعت هذه المواصفات فيه، فلا بد أنه سيكون من أهل الفتح والظفر - لأن الذي



يملك الهدى والتقى والعمل الصالح، يملك أقوى سلاح، وأعظم سلاح
يمكن أن يحقق الانتصار والنجاح في الحياة.. وعندما ينجح الواحد
منا في الحياة، بهذا الشكل فإنه بالقطع سوف ينجح في الآخرة، ويكون
من أصحاب الفردوس الأعلى في جنة عرضها السموات والأرض..
جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمارها الملائكة
مع نبينا محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.. ولكن دعني أذكرك، أن
الجنة لا تأتي بلا عمل، وإنما هي ثمرة جهود جبارة يقدمها الإنسان
المؤمن في الحياة، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها فلا بد أنه الفائز
الأكبر وذلك أن الآخرة لها طريق خاص بها، وطريقها أن تكون الدنيا
في خدمة أهدافك ومبادئك. ليس العكس، لأن الأهداف والمبادئ إذا
صارت تحت أقدام الدنيا، وتحت أقدام المادة والطمع، والدينار
والدرهم فإن الآخرة بلاء وعذاب شديد..

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ...﴾ (١).

(١) الإسراء: ٧٢ .



رواية عن علي عليه السلام وشيعته

في وصية النبي ﷺ للزهراء عليها السلام

عن يزيد بن شراحيل كاتب علي عليه السلام قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: حدثني رسول الله ﷺ وأنا مسنده إلى صدري، وعائشة عند أذني فأصغت عائشة تسمع ما يقول، قال: أي أخي ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ (١).

هم أنت وشيعتك، وموعدني وموعدك العوض إذا جئت الأمم تدعون غراً محجلين شباعاً مرويين.

عن أبي جعفر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبض فيه لفاطمة عليها السلام: يا بنية بأبي أنت وأمي أرسلني إلى بعلك فادعيه لي، فقالت للحسن عليه السلام: انطلق إلى أبيك فقل له إن جدِّي يدعوك فانطلق إليه الحسن فدعاه فأقبل أمير المؤمنين حتى دخل على رسول الله ﷺ وفاطمة عنده وهي تقول: واكرياه لكربك يا أبتاه، فقال رسول الله ﷺ: لا كرب على أبيك بعد اليوم، يا فاطمة إن النبي لا يشق عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى له بالويل ولكن قل لي كما قال أبوك على إبراهيم: تدمع العين، وقد يوجع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولو عاش إبراهيم لكان نبياً.

(١) البينة: ٧ .

ثم قال: يا علي ادن مني فدنا منه ثم قال: فأدخل أذنك في فمي، ففعل فقال: يا أخي ألم تسمع قول الله في كتابه «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية»؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هم أنت وشيعتك تجيئون غرا محجلين، شباعا مرويين أو لم تسمع قول الله عزوجل في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ .

قال: بلى يا رسول الله قال: هم عدوك وشيعتهم يجيئون يوم القيامة مسودة وجوههم ظماء مظمئين أشقياء معذبين، كفارا منافقين، ذاك لك ولشيعتك، وهذا لعدوك وشيعتهم^(١).

أقول:

بأبي وأمي يا رسول الله.. بأبي أنت وأمي يا حبيب الله - صلى الله عليك وعلى آلك وسلم تسليماً كثيراً - وعلى أعدائك وأعداء أهل البيت اللعنة الدائمة إلى يوم الدين، يوم يقوم الخلق جميعاً لرب العالمين، فيفوز الفائزون ويسقط الساقطون.

إنه ﷺ وفي لحظاته الأخيرة، ما يزال يردد حقيقة لطالما ردها في حياته على مسمع من الناس جميعاً. ردها في كل مناسبة وأكدها في كل حين، ولكن معظم القوم وضعوا أيديهم في آذانهم كأن فيها وقراً، وأداروا له الظهر فكانوا من الجاحدين الناكرين.

أقول: ما زال رسول الله ﷺ في لحظاته الأخيرة وهو يلفظ أنفاسه الشريفة يؤكد أن علياً عليه السلام وشيعته هم خير البرية، وموعده ﷺ

(١) بحار الأنوار: ٦٥ / ٥٣ - ٥٤ .

وموعد وصيه ﷺ الحوض، في ذلك اليوم العظيم يوم تأتي الأمم جاثية بينما يأتي الإمام علي ﷺ وشيعته غراً محجلين، شباعاً مرويين، علامات الفوز والنجاح ترتسم فوق محياهم، وعلامات النصر والفلاح تلوح تباشيرها في وجوههم وعلى سيماهم.

في الوقت الذي يأتي أعداؤه وأعداء شيعته ﷺ مودة وجوهم، ظماء مظمئين أشقياء معذبين، كفارا منافقين، ترهقهم وتثقل كواهلهم ذنوبهم التي حملوها بسبب عداوتهم لرسول الله ﷺ ولأهل بيته الطيبين الأبرار ولشيعتهم الذين ثبتوا على مواقفهم من التعلق بأهل البيت وبخطهم الواضح الذي رسمه رب العالمين سبحانه وتعالى، ورسوله الأمين على وحيه محمد ﷺ.

ولطالما أكد رسول الله ﷺ هذه الحقيقة لا سيما في حجة الوداع وعلى مرأى ومسمع من الحجيج جميعا وبالفم الملآن والمنطق الصارخ المبين قائلاً في علي ﷺ: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه.

ولقد سمعها القوم ووعوها، ولكنهم نكثوا البيعة بمجرد أن أصبح النبي طريح الفراش وقبل أن يغادرهم إلى ربه الكريم، نكثوا وغدروا، وتلقفوها بنفوس مريضة وقلوب متعطشة إلى الحكم والسلطان، وأداروا ظهورهم لإرادة الله ورسوله وصموا آذانهم دون صوت رسول الله ﷺ فاتهموه بالهجر والهذيان - والعياذ بالله - عندما ناداهم: أعطوني قلماً ودواة، اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً، ولكنهم اختاروا الضلالة على الهدى والعمى على البصر والبصيرة.



إننا عندما نوالي علياً عليه السلام وأهل البيت الكرام - سلام الله عليهم أجمعين - فنحن لا نفعل ذلك تحيزاً أو عصبية أو ميلاً، أو لهوى في النفس، وإنما نفعل ذلك استجابة لإرادة رب العالمين ولنداء رسوله الكريم ولأننا نرى في سلوكهم الخط الإسلامي الواضح والمنهج القرآني المبين، ولأننا نرى في اختيارهم خيار رب العالمين ورسوله العظيم، فهم أئمة هدى ومصاييح دجى، فاز من سار على دربهم ونمج منهجهم وخسر وسقط في بؤرة الكفر والنفاق من تتكب لهم فعاداهم وحاربهم.

والغريب في الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يوصي بوصيته لوليّه ووصيه على مسمع من عائشة وحضورها كما يؤكد ذلك الإمام على عليه السلام فله، هل حفظت الوصية وعملت بها يوم جيّشت الجيوش وهي تقودها من على جملها لمحاربة الوصي عليه السلام لقد حاربت ما استطاعت وعادته ما شاءت تعبيراً عن حقد دفين ومرض لئيم، ولكنها باءت بالفشل الذريع والخذلان الوضيع.

وقد وقف إلى جانبها من وقف، وتكب لإرادتها وتديرها من تتكب ممن حفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وإنني عندما اقرأ رسالتها عندما كانت في البصرة إلى زيد بن صوحان، لأعجب من جرأتها على معصية الله ورسوله بقدر ما أعجب من موقف زيد هذا عندما اختار طاعة الله ورسوله.

فقد كتبت إلى زيد رسالة رواها ابن أبي الحديد في شرح النهج كما رواها غيره من المؤرخين، وقد جاء في رسالتها له: «من عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق، زوجة رسول الله، إلى ابنها الخالص

زيد بن صوحان، أما بعد فأقم في بيتك وخذّل الناس عن ابن أبي طالب، وليبلغني عنك ما أحبّ فإنك أوثق أهلي عندي والسلام».

فأجابها ذلك الرجل الصالح: «من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر، أما بعد فإن الله أمرك بأمر، وأمرنا بأمر، أمرك أن تقري في بيتك وأمرنا أن نجاهد، وقد أتاني كتابك تأمريني أن أصنع خلاف ما أمرني الله به، فأكون قد صنعت ما أمرك به، وصنعت ما به أمرني. فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك لا جواب له».



من الفكر الحضاري في الاسلام

- جاء عن الصادق عليه السلام: «اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا، فإننا لا نعد الفقيه منهم فقيهاً حتى يكون محدثاً. فقليل له: أو يكون المؤمن محدثاً؟ قال: يكون مفههماً والمفهم محدث»^(١).

- وكتب علي بن سويد السائي، إلى أبي الحسن الأول موسى الكاظم عليه السلام وهو في السجن فأجابه «وأما ما ذكرت يا علي ممن تأخذ معالم دينك؟ لا تأخذن معالم دينك عن غير شيعتنا، فإنك إن تعد يتهم أخذت دينك عن الخائنين الذين خانوا الله، ورسوله وخانوا أماناتهم.. إنهم أؤتمنوا على كتاب الله - جل وعلا - فحرفوه وبدلوه، فعليهم لعنة الله ولعنة رسوله وملائكته ولعنة آبائي الكرام البررة ولعنتي ولعنة شيعتي إلى يوم القيامة»^(٢).

- وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لرجل من أصحابه: «لا تكن إمعة تقول: أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس»^(٣).

- وقال أيضاً: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب فجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن».

(١) بحار الأنوار: ٨٢/٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) بحار الأنوار: ٩٠/٢ .

وقال: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح مفتاحاً، وجعل لكل مفتاح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً من عرفه عرف الله، ومن أنكره أنكر الله، ذلك رسول الله ونحن»^(١).

ولعل المراد بالشئ ذي السبب: القرب والفوز والكرامة والجنة، وسببه الطاعة وما يوجب حصول تلك الأمور، وشرح ذلك السبب هو الشريعة المقدسة، والمفتاح: الوحي النازل لبيان الشرع وعلم ذلك المفتاح أي ما يعلم به هو الملك الحامل للوحي - والباب الذي به يتوصل إلى هذا العلم هو رسول الله ﷺ والأئمة - عليهم السلام -.

- وقال الباقر عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «فوالله لا يوجد العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرائيل»^(٢).

- وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كل ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل»^(٣).

- وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال: وصية ورقة بن نوفل لخديجة بنت خويلد عليه السلام إذ دخل - عليها يقول لها:
يا بنت أخي لا تماري جاهلاً ولا عالماً، فإنك متى ماريت جاهلاً

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٩١ .

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ٩٤ .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ١٣ .

أذلك ومتى ماريت عالماً منعك علمه، وإنما يسعد بالعلماء من أطاعهم^(١).

- وقال الصادق عليه السلام: «إياكم والخصومة في الدين فإنها تشغل القلب عن ذكر الله عزوجل، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، تستجير الكذب»^(٢).

- وعن الفضيل قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا فضيل إن حديثنا يحيي القلوب»^(٣).

- وعن خيثمة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «تزاوروا في بيوتكم فإن ذلك حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا».

- وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أرحم خلفائي اللهم أرحم خلفائي، اللهم أرحم خلفائي، قيل: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي»^(٤).

(١) بحار الأنوار: ٢ / ١٢٨ .

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٥ .

أحاديث في الكتابة

- وعن الرضا عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي
- ثلاث مرات - قيل له: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون
من بعدي ويروون أحاديثي وسنتي فيسلمونها الناس من بعدي»^(١).

- وعن حمزة بن عبد الله الجعفري، قال: كتبت في ظهر قرطاس:
إن الدنيا ممثلة للإمام كفلقة الجوزة فدفعته إلى أبي الحسن -عليه
السلام - وقلت: «جعلت فداك إن أصحابنا رووا حديثاً ما أنكرته غير
أنني أحببت أن أسمعه منك، قال: فنظر فيه ثم طواه حتى ظننت أنه قد
شق عليه ثم قال: هو حق فحوله في أديم»^(٢).

فلقة الجوز بالكسر: بعضها أو نصفها قال الجوهري: الفلقة أيضاً:
الكسرة يقال: أعطني فلقة الجفنة وهي نصفها.. والمعنى أن جميع
الدنيا حاضرة عند علم الإمام يعلم ما يقع فيها، كنصف جوزة يكون
في يد أحدكم ينظر إليه، وإنما قال: فحوله في أديم وفي بعض النسخ
إلى أديم، ليكون أدوم وأكثر بقاءً من القرطاس لاهتمامه بضبط هذا
الحديث، ويظهر منه استحباب كتابة الحديث والاعتناء به.

- وقال رجل من أصحاب الصادق عليه السلام: قلت لأبي عبد الله الصادق
عليه السلام: رجل راوية لحديثكم يبت ذلك إلى الناس، ويشدده في قلوب
شيعتكم، ولعل عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرواية، أيهما أفضل؟

(١) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٤ .

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٥ .

قال: «راوية لحديثنا يبث في الناس ويشدد في قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد»^(١).

- وقال علي عليه السلام: «ذكرنا أهل البيت شفاء من الوبك والأسقام ووسواس الريب وحسبنا رضى الرب تبارك وتعالى».

- وعن عبد الله الجعفي قال: دخلت على الرضا عليه السلام ومعي صحيفة أو قرطاس فيه عن جعفر عليه السلام: «أن الدنيا مثلت لصاحب هذا الأمر في مثل فلة الجوزة، فقال: يا حمزة ذا والله حق فانقلوه إلى أديم»^(٢).

- وعن عبد الله بن عمر، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله أقيّد العلم؟ قال: نعم. وقيل: ما تقيده؟ قال: كتابته^(٣).

- وقام أحد أصحاب النبي وسأله: «يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم.. قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم فإنني لا أقول في ذلك كله إلا الحق»^(٤).

- وعن الباقر لجابر: «يا جابر والله لحديث تصيبه من صادق في حلال وحرام، خير لك مما طلعت عليه الشمس حتى تغرب»^(٥).

(١) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٧ .

(٤) بحار الأنوار: ٢ / ١٤٧ .

(٥) البحار: ٢ / ١٤٦ .

- وعن ابن مارد قال: كنت عند الصادق عليه السلام وقد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا ابن مارد من زار جدي عارفاً بحقه كتب الله له بكل خطوة حجة مقبولة، وعمرة مبرورة، يا ابن مارد والله ما يطعم الله النار قدماً تغبّرت في زيارة أمير المؤمنين ماشياً كان أو راكباً، يا ابن مارد اكتب هذا الحديث بهاء الذهب^(١).

(١) البحار: ٢ / ١٤٧ .

في منازل الناس والكتابة

قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «اعرفوا منازل شيعتنا على قدر روايتهم عنا وفهمهم منا»^(١).

- وعن جابر قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: إذا حدثتني بحديث فأسنده لي، فقال: حدثني أبي عن جده عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل عن الله عزوجل، وكل ما أحدثك بهذا الإسناد، وقال: يا جابر لحديث واحد تأخذه عن الصادق خير لك من الدنيا وما فيها»^(٢).

قل لمن حجنا بقول سوانا حيث فيه لم يأتنا بدليل
نحن قومٌ إذا رويانا حديثاً بعد آيات محكم التنزيل
- وعن الرسول ﷺ: «نَضَرُ الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها...».

قوله نضره أي نَعَمَهُ. ويروى بالخفيف من النضارة وهي حسن الوجه.

«وربّ حامل فقه غير فقيه، وكم من حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

فرب حامل رواية لم يعرف معناها أصلاً، ورب حامل رواية يعرف بعض معناها، وينقلها إلى من هو أعرف بمعناها منه.

(١) البحار: ١٤٨/٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

- وقال أبو جعفر عليه السلام: «إن حديثنا يحيي القلوب، وقال: منفعته في الدين أشد على الشيطان من عبادة سبعين ألف عابد».

- النبي ﷺ قيّدوا العلم، قيل: وما تقييده؟ قال كتابته.

- أبو عبد الله عليه السلام: «اعرفوا منازل الرجال منا على قدر رواياتهم عنا»^(١).

- اعرفوا منازل الناس منا على قدر رواياتهم عنا^(٢).

- وعن داود بن القاسم الجعفري، قال: عرضت على أبي محمد صاحب العسكر عليه السلام كتاب يوم وليلة ليونس (وأظنه يونس بن عبد الرحمن أو واحد من أصحابه وهذه الرواية تدل على تشجيع أهل البيت على التأليف وحرصهم على التأليف ونشر الفكر الإسلامي) قال: عرضت على أبي محمد العسكري كتاب يوم وليلة ليونس، فقال لي: تصنيف من هذا؟ فقلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين، فقال: «أعطاء الله بكل حرف نوراً يوم القيامة»^(٣).

- روي أن رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى النبي ﷺ فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: استعن بيمينك، وأوماً بيده أي خط.

- وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا.

(١) الأنوار: ٢ / ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ١٥٠ .

- القلب يتكل على الكتابة.

- احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها.

- النبي ﷺ: «من أدّى إلى أمتي حديثاً يقام به سنة أو يثلم به بدعة فله الجنة».

- «من تعلم حديثين اثنين ينفع بهما نفسه، أو يعلمهما غيره فينتفع بهما كان خيراً من عبادة ستين سنة»^(١).

- وعن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: دخل عليّ أناسٌ من أهل البصرة فسألوني عن أحاديث وكتبوها، فما يمنعكم من الكتابة، أما إنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا^(٢).

- الصادق عليه السلام: «من حفظ من شيعتنا أربعين حديثاً، بعثه الله عزوجل يوم القيامة عالماً فقيها ولم يعذبه»^(٣).

- «من حفظ من أحاديثنا أربعين حديثاً، بعثه الله يوم القيامة عالماً فقيهاً».

- الرسول ﷺ: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيها عالماً»^(٤).

- وعن الحسين عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيما أوصى به أن قال له: يا

(١) البحار: ٢ / ١٥٢ .

(٢) البحار: ٢ / ١٥٣ .

(٣) البحار: ٢ / ١٥٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه.

علي من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عزوجل، والدار الآخرة حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أخبرني ما هذه الأحاديث؟ فقال: «أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبد، ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، ولا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله عزوجل، وتؤدي الزكاة وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت» ثم يعد أربعين حديثاً في هذا الخبر فراجعه^(١).

- وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «كونوا في الناس كالنحل في الطير، ليس شيء من الطير إلا وهو يستضعفها، ولو يعلم ما في أجوافها لم يفعل بها ما يفعل. خالطوا الناس بأبدانكم وزائلوهم بقلوبكم وأعمالكم. فإن لكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وهو يوم القيامة مع من أحب...»^(٢).

- وقال أبو الحسن الماضي عليه السلام: «قل الحق ون كان فيه هلاكك فإن فيه نجاتك ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك فإن فيه هلاكك»^(٣).

- وقال المفضل: أخذ أبو عبد الله بيدي وقال لي: «يا مفضل إن هذا الأمر ليس بالقول فقط، لا والله حتى تصونه كما صانه الله، وتشرفه كما شرفه الله، وتؤدي حقه كما أمر الله».

(١) البحار: ٢ / ١٥٤ .

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ٧٩ .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ٧٩ .



كيف تنمي طاقتك

لتنمية الطاقات الذهنية، والروحية، لابد من ممارسة، وتمارين...
بوجود إرادة قوية، فطاقات النفس، بغير رياضة وإرادة، تطفئ، وتحدث
دمارا وخرابا في الحياة.

وقد أشار القرآن الكريم ، إلى هذا الجانب بقوله: (إن الإنسان
ليطفئ أن رآه استغنى).

على أن الطغيان، هنا، ليس فقط في المال، وإنما في كل طاقة، وقوة
يمتلكها الإنسان، إذا لم يكن لديه إيمان يعدل به هذا الطغيان، ويحد
من فورانه، فإنه لا شك يطفئ، ويطفئ، حتى يصل إلى مرحلة العمى،
والبوار.

إذن: فالطغيان، هنا ليس فقط في المال، وإنما في كل ما من شأن،
أن يحقق القدرة.. ولهذا أشار علي عليه السلام إلى ضرورة ترويض هذه
القدرة، وتطويعها، في البناء والعمل الصالح، وذلك بقوله: (وأيم الله
لأروضن نفسي، رياضة تهش معها إلى القرص مطعوما، وتقبل بالملح
مأدوما، ولأدعن مقلتي كعين ماء، نضب معينها، مستفرغة دموعها).

ثم يبيّن وسائل الرياضة، هذه فيذكر التقوى، لأنها أعظم وسيلة في
الرياضة النفسية، فيقول:

وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الفزع الأكبر.



أحاديث مختلفة

- قال الصادق عليه السلام: من حفظ من أحاديثنا أربعين حديثاً بعثه الله يوم القيامة عالماً فقيهاً^(١).
- وقال: «من حفظ من شيعتنا أربعين حديثاً، بعثه الله عزوجل يوم القيامة فقيها عالماً، ولم يعذبه»^(٢).
- وقال الصادق عليه السلام: «اعرفوا منازل الناس على قدر رواياتهم عنا»^(٣).
- وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص، قال: «إن كنت تريد معانيه فلا بأس»^(٤).
- قال رسول الله ﷺ: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً، ينتفعون بها، بعثه الله يوم القيامة فقيها عالماً»^(٥).
- وقال: «اللهم ارحم خلفائي - ثلاث مرات - فقل له: يا رسول

(١) وسائل: ١٨ / ٥٤ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر. وهذا يعني جواز نقل الحديث بالمعنى.

(٥) الوسائل: ١٨ / ٦٦ .



الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون عني أحاديثي وسنتي، فيعلمونها الناس من بعدي»^(١).

- وقال الإمام الرضا عليه السلام: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا، قلت: كيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا، ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا»^(٢).

- وقال النبي ﷺ: تذاكروا وتلاقوا، وتحديثوا فإن الحديث جلاء للقلوب، إن القلوب لترين كما يرين السيف جلاؤه الحديد»^(٣).

- وقال الصادق عليه السلام: من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له، في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة، أعطاه الله خير الدنيا والآخرة»^(٤).

- وعن داود بن فرقد، قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إني أسمع الكلام منك فأريد أن أرويه كما سمعته منك، فلا يجيء، قال: فتعمد ذلك؟ قلت: لا. قال: تريد المعاني؟ قلت: نعم، قال فلا بأس»^(٥).

- وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إذا حدثتم بحديث فاسندوه إلى الذي حدثكم، فإن كان حقاً فلكم، وإن كان كذباً فعليه»^(٦).

(١) نفس المصدر.

(٢) الوسائل: ١٨ / ٦٦ .

(٣) وسائل: ١٨ / ٥٣ .

(٤) وسائل: ١٨ / ٥٣ .

(٥) وسائل: ١٨ / ٥٥ .

(٦) وسائل: ١٨ / ٥٦ .



- وقال الصادق عليه السلام: «القلب يتكل على الكتابة»^(١).

- وقال أيضاً: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»^(٢).

- وقال: «احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها...»^(٣).

- قال المفضل بن عمر: قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام -: «اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلا بكتبهم»^(٤).

- وقال الصادق عليه السلام: «إياكم والكذب المفترع، قيل له: وما الكذب المفترع؟ قال: أن يحدثك الرجل بالحديث فتتركه وترويه عن الذي حدثك عنه»^(٥).

- وقال: «اعربوا حديثنا فإننا قوم فصحاء»^(٦).

- وقال أيضاً: «تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم، ونجوتهم، وإن تركتموها ضللتهم وهلكتم، فخذوا بها، وأنا بنجاتكم زعيم»^(٧).

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) وسائل: ١٨ / ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

(٥) وسائل: ١٨ / ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

(٦) وسائل: ١٨ / ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

(٧) وسائل: ١٨ / ٦١ - ٦٥ .

- وقال الرسول ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي قيل: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي»^(١).

- وقال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله والدار الآخرة، حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»^(٢).

- وقال أيضاً: «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النار، وأعطاه الله تبارك وتعالى بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات»^(٣).

- وعن أبي هاشم الجعفري قال: عرضت على أبي محمد العسكري عليه السلام كتاب يوم وليلة ليونس بن عبد الرحمن، فقال لي: «تصنيف من هذا؟ قلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين، فقال: أعطاه الله بكل حرف نوراً يوم القيامة»^(٤).

- وقال الإمام علي عليه السلام «يا كميل لا تأخذ إلا عنا تكن منا»^(٥).

- وقال الصادق عليه السلام: ليس عليكم فيما سمعتم مني أن ترووه عن أبي علي عليه السلام وليس عليكم جناح فيما سمعتم من أبي أن ترووه عني، ليس عليكم في هذا جناح.

(١) وسائل: ١٨ / ٦١ - ٦٥ .

(٢) وسائل: ١٨ / ٦٨ .

(٣) وسائل: ١٨ / ٦٨ .

(٤) وسائل: ١٨ / ٧٢ - ٧٣ .

(٥) وسائل: ١٨ / ٧٢ - ٧٣ .

وقيل للصادق عليه السلام: نسمع الحديث منك، فلا أدري منك سماعه
أومن أبيك، «فقال: ما سمعته مني فاروه عن أبي، وما سمعته مني
فاروه عن رسول الله ﷺ»^(١).

- وقال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت لأبي عبد الله
عليه السلام: أسمع الحديث منك فلعلي لا أرويه كما سمعته، فقال: «إذا
أصبت الصلب منه فلا بأس، إنما هو بمنزلة تعال، وهلم.. واقعد،
واجلس»^(٢).

- وقال الصادق لبعض أصحابه: «إذا أصبت معنى حديثاً فأعرب
عنه بما شئت»، وفي مكان آخر: «إذا أصبت المعنى فلا بأس»^(٣).

- وقال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: - لمحمد بن مسلم -: «لا
تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل»^(٤).

(١) وسائل: ١٨ / ٧٤ .

(٢) وسائل: ١٨ / ٧٥ .

(٣) وسائل: ١٨ / ٧٥ .

(٤) وسائل: مجلد ١١، ٦ / ١٨٤ . ومثله في أمالي الطوسي ص ٢٧٩ عن الباقر عليه السلام:
إنما شيعتنا من أطاع الله عز وجل.

أحاديث في طلب العلم

- وعن يونس، قال: قال العبد الصالح عليه السلام: يعني الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: يا يونس ارفق بهم، فإن كلامك يدق عليهم، قال: قلت: إنهم يقولون لي: زنديق، قال لي: ما يضرك أن تكون في يدك لؤلؤة فيقول لك الناس: هي حصاة، وما كان ينفعك إذا كان في يدك حصاة فيقول الناس: هي لؤلؤة^(١).

- ودخل يونس بن عبد الرحمن على الإمام الرضا عليه السلام فشكا له ما يلقي من أصحابه من الوقيعة، فقال الرضا عليه السلام: «دارهم فإن عقولهم لا تبلغ»^(٢).

- قال الصادق عليه السلام: نفس المهموم لظلمنا تسبيح، وهمه لنا عبادة، وكتمان سرنا جهاد في سبيل الله، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «يجب أن يكتب هذا الحديث بماء الذهب»^(٣).

- وعن مدرك بن مهزيار قال الصادق جعفر بن محمد - عليهما السلام - : «يا مدرك رحم الله عبداً، اجتبر مودة الناس إلينا، فحدثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون»^(٤).

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٦٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ٦٤ .

(٤) بحار الأنوار: ٢ / ٩٥ .

وجاء في حديث وصية الإمام الرضا عليه السلام لأحد الخطباء:

قال محمد بن عيسى بن عبيد عن أخيه جعفر قال: كنا عند أبي الحسن الرضا عليه السلام وعنده يونس بن عبد الرحمن، إذ استأذن عليه قوم من أهل البصرة، فأوماً أبو الحسن عليه السلام إلى يونس: ادخل البيت فإذا بيت مسبل عليه ستر، وإياك أن تتحرك حتى يؤذن لك، فدخل البصريون فأكثرُوا من الوقعة والقول في يونس، - أي فأكثرُوا من السب والعيب والغيبة - وأبو الحسن عليه السلام مطرق حتى لما أكثرُوا، فقاموا وودعوا، وخرجوا، فأذن يونس بالخروج فخرج باكياً، فقال: جعلني الله فداك إني أحامي عن هذه المقالة، وهذه حالي عند أصحابي، فقال له أبو الحسن عليه السلام: يا يونس فما عليك مما يقولون إذا كان إمامك عنك راضياً، يا يونس حدث الناس بما يعرفون، واطرکهم مما لا يعرفون كأنك تريد أن تكذب على الله في عرشه.

«يا يونس وما عليك أن لو كان في يدك اليمنى درة ثم قال الناس: بعة، إذا كنت على الصواب وكان إمامك عنك راضياً لم يضرک ما قال الناس»^(١).

- وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره، وإن أبغض الرجال إلى الله العبد وكله الله إلى نفسه جائراً عن قصد السبيل سائراً إن دعي إلى حرث الدنيا عمل،

(١) البحار: ٢ / ٦٥ .



وان دعي إلى حرث الآخرة كسل. كأن ما عمل له واجب عليه، وكأن ما وني فيه ساقط عنه»^(١).

- الصادق عليه السلام: «إن أعظم الناس حسرة يوم القيامة، من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره»^(٢).

بمعنى أنه بيّن للناس خيراً ولم يعمل به، أو قبل ديناً حقاً وأظهره، ولم يعمل بمقتضاه.

- علي عليه السلام: «زلة العالم كانكسار السفينة تفرق وتُفرق»^(٣).

- قال رسول الله ﷺ: «من فقه الرجل قلة كلامه فيما لا يعنيه»^(٤).

- الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم، والصمت»^(٥).

- علي عليه السلام: «إن للعالم ثلاث علامات: العلم والحلم والصمت، وللمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه بالمعصية، ويظلم من دونه بالغلبة، ويظهر الظلمة»^(٦).

- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إن صاحب الدين فكر فعلته السكينة، واستكان فتواضع، وقنع باستغني، ورضي بما أعطي، وانفرد فكفى الأحزان، ورفض الشهوات فصار حراً، وخلع الدنيا فتحامى الشرور،

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٢ .

(٢) بحار: ٥٥ / ٢ .

(٣) بحار: ٥٨ / ٢ .

(٤) بحار: ٥٥ / ٢ .

(٥) نفس المصدر.

(٦) بحار: ٥٩ / ٢ .

وطرح الحقد فظهرت المحبة، ولم يخف الناس، فلم يخفهم، ولم يذنب إليهم فسلم منهم، وسخط نفسه عن كل شيء ففاز واستكمل الفضل وأبصر العاقبة فأمن الندامة»^(١).

- علي عليه السلام: «.. وان من الحزم أن تتفقهوا، وأن من الفقه ألا تغتروا»^(٢).

- النبي ﷺ: «علماء هذه الأمة: رجلان: رجل آتاه الله علماً فطلب به وجه الله والدار الآخرة، وبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا قليلا، فذلك يستغفر له من في البحور، ودواب البحر والبر، والطير في جو السماء ويقدم على الله سيداً شريفاً.. ورجل آتاه الله علماً فبخل به على عباد الله، وأخذ عليه طمعا، واشترى به ثمنا قليلا، فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي ملك من الملائكة على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في دار الدنيا فبخل به على عباده حتى يفرغ من الحساب»^(٣).

- وقال الصادق عليه السلام: «الخشية ميراث العلم، والعلم شعاع المعرفة،

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٥٣ .

بيان وتفسير: فكر أي في خسارة أصله ومصائب نفسه وعاقبة أمره، أو في الدنيا وفنائها الخ، فعلته السكينة، واطمئنان النفس وترك العلو.. والفساد، وعدم الانزعاج عن الشهوات. واستكان أي خضع وذلت نفسه، وترك التكبر فتواضع عند الخالق والخلق وانفرد عن علائق الدنيا فارتفعت عنه أحزانه، التي كانت تلزم لتحصيلها.

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ٥٢ .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ٥٢ .

وقلب الإيمان، ومن حرم الخشية لا يكون عالماً وإن شق الشعر في متشابهات العلم، قال الله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وآفة العلماء ثمانية أشياء: الطمع، والبخل، والرياء، والعصبية، وحب المدح، والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ، وقلة الحياء من الله، والافتخار وترك العمل بما علموا...».

- أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ما شيب شيء أحسن من حلم بعلم».

- وقال النبي ﷺ: «لا تجلسوا عند كل داع مدع يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة.. وتقربوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة، ولا يصلح لموعظة الخلق إلا من خاف هذه الآفات بصدق، وأشرف على عيوب الكلام، وعرف الصحيح من السقيم، وعلل الخواطر وفتن النفس والهوى»^(١).

- الإمام الرضا عليه السلام: «ألا إن الفقيه من أفاض على الناس خيره وأنقذهم من أعدائهم، ووفر عليهم نعم جنان الله وحصل لهم رضوان الله تعالى»^(٢).

- وقالت فاطمة الزهراء عليها السلام: وقد اختصمت إليها امرأتان

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٥ .

(٢) بحار الأنوار: ٢ / ٨ .

فتنازعتا في شيء من أمر الدين، وكانت أحدهما معاندة والأخرى مؤمنة ففتحت على المؤمنة حجتها فاستظهرت على المعاندة ففرحت فرحا شديدا - فقالت فاطمة عليها السلام: «إن فرح الملائكة باستظهارك عليها أشد من فرحك.. وإن حزن الشيطان ومردته بحزنها أشد من حزنها، وإن الله تعالى قال لملائكته: أوجبوا لفاطمة بما فتحت على هذه المسكينة الأسيرة من الجنان ألف ألف ضعف مما كنت أعددت لها، واجعلوا هذه سنة في كل من يفتح على أسير مسكين فيغلب معاندا مثل ألف ألف ما كان معداً له من الجنان».

- قال أبو محمد العسكري عليه السلام: حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقالت: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر الصلاة شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، فثقت فأجابت ثم ثلثت إلى أن عشت فأجابت ثم خجلت من الكثرة، فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله ﷺ قالت فاطمة: هاتي وسلي عما بدا لك، رأييت من اكرى يوما يصعد إلى سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار، يثقل عليه؟ فقالت: لا. فقالت: اكرتيت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى. إلى العرش لؤلؤا فأحرى ألا يثقل علي، سمعت أبي ﷺ يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة من نور ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد ﷺ الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتهموهم ونعشتهموهم، فاخلموا عليهم خلع العلوم في الدنيا فيخلعون

على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم. حتى إن فيهم يعني في الأيتام لمن يخلع عليه مائة ألف خلة، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثم إن الله تعالى يقول: أعيّدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تتموا لهم خلعتهم، وتضعفوها لهم فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم ويضاعف لهم، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم...، وقالت فاطمة عليها السلام: «يا أمة الله إن سلّكه من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة وما فضل فإنه مشوب بالتغيب والكدر»^(١).

- قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «يستدل بكتاب الرجل على عقله، وموضع بصيرته، وبرسوله على فهمه وفطنته»^(٢).

- وجاء في الحديث أنه: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: حبّني إلى خلقي، وحبب خلقي إلي، قال: يا رب كيف أفعل؟ قال: «ذكرهم آلائي ونعمائي ليحبوني»^(٣).

والحديث هكذا أصله: قال علي بن الحسين عليه السلام: أوحى الله تعالى الخ...

- النبي صلى الله عليه وآله: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس...».
وقال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التحبب إلى الناس».

(١) واليتيم هنا هو المنقطع عن العلم وعن أهل البيت.. ولذا قال الشاعر:

ليس اليتيم الذي قد مات والده بل اليتيم يتيم العلم والأدب

(٢) بحار الأنوار: ١ / ١٣٠ .

(٣) بحار الأنوار: ٢ / ٤ .

وروي أن رسول الله ﷺ مر بمجنون، فقال: ما له؟ فقيل: إنه مجنون، فقال: «بل هو مصاب، إنما المجنون من أثر الدنيا على الآخرة».

- «ينبغي للعاقل إذا كان عاقلاً أن يكون له أربع ساعات من النهار: ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يأتي أهل العلم الذين ينصرونه في أمر دينه وينصحونه، وساعة يخلي بين نفسه ولذتها من أمر الدنيا فيما يجل ويحمد»^(١).

- وقال علي عليه السلام: «زينة الرجل عقله»^(٢).

- «الجمال في اللسان، والكمال في العقل».

وقال عليه السلام: «العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء»^(٣).

- وقال النبي ﷺ: «سيد الأعمال في الدارين العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه»^(٤).

- وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إنه قال: «.. إن الغلظة في الكبد.. والعقل مسكنه القلب»^(٥).

- النبي ﷺ: «لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن وعدته العقل»^(٦).

(١) بحار الأنوار: ١ / ١٣١ .

(٢) البحار: ١ / ٩٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) البحار: ١ / ٩٨ .

(٦) البحار: ١ / ٩٥ .

أقوال في العقل

- الصادق عليه السلام: يغوص العقل على الكلام فيستخرجه من مكنون الصدر، كما يغوص الغائص على اللؤلؤ المستكنة في البحر.
- علي عليه السلام: «أربع خصال يسود بها المرء: العفة، والأدب، والجود، والعقل»^(١).
- أبو محمد العسكري عليه السلام: «حسن الصورة جمال ظاهر، وحسن العقل جمال باطن»^(٢).
- وقال علي عليه السلام: «الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام بائر، فاستر خلل خلقكم بحلمك وقاتل هواك بعقلك»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٩٤/١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

من أجوبة الإمامين :

علي والصادق عليهما السلام

دخل رجل على الإمام أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - فسأله قائلاً: جعلت فداك، - أي جعلني الله فداً لك - اشتهي أن أعرف: كيف أنا عندك؟ فقال له الإمام: انظر كيف أنا عندك؟ وهذا من أدق الأحاديث التي سمعتها، أو قرأتها في هذا المجال. ومعنى ذلك أن الإمام يريد أن يكشف عن حقيقة وهي، بمقدار ما تحترم الإمام، وتحبه، وتكنّ له الإخلاص فإنه بنفس المقدار وأكثر تكون مكانتك عند الإمام.

على أن مشاعر الإمام عظيمة، لأنه عظيم ، فمشاعره، وأحاسيسه أعظم وأعمق منا نحن عوام الناس.

يقال إن رجلاً سأل أمير المؤمنين علياً عليه السلام بقوله: أتحبني؟ فقال له: سل قلبك؟.

ولا شك أنه جواب بليغ وعميق، غير أن كلمة الإمام الصادق أعطت صورة أكثر وضوحاً للموضوع، والاختلاف في الحديث إنما حصل نتيجة اختلاف الرجلين السائلين، وليس اختلافاً في فكر أهل البيت.

لا قيمة للرواية بغير دراية

يقول الإمام الباقر - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - لولده: «يا بني اعرف منازل شيعتنا على قدر رواياتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان».

وحديث آخر يقول الإمام الصادق عليه السلام فيه: «حديث تدريه خير من ألف حديث ترويه...».

إن استيعاب الحديث، وفهم الفكر الإسلامي، هو من أعظم الوسائل التي ترفع الإنسان المؤمن إلى درجات رفيعة وعالية.. بل إن الإنسان المؤمن بمقدار ما يستوعب فكر أهل البيت، ويفقه أحاديثهم، بنفس المقدار يرتفع شأنه، وتعلو منزلته.

قل لأحد الحكماء إن فلاناً حفظ ديوان شعر، فقال: زاد في السوق نسخة. لأن الحفظ وحده بغير التدبر، والتأمل لا قيمة له على الإطلاق.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يؤكد على مسألة التدبر والتأمل في الآيات الكريمة، لأن التأمل هو الذي يفتح آفاق العقل، وأبواب الفكر، والرشد وهذا هو معنى التفقه في الدين، أي الاستيعاب الكامل للحديث الشريف، والفكر الإسلامي العظيم.

وبهذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لوددت أن أصحابي
ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا..» وفي حديث آخر: ليت
السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الدين».





مفهوم العبادة في الإسلام

مفهوم العبادة في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

* قبل البدء:

إن من يقرأ هذه الآية الكريمة قد يتبادر إلى ذهنه للوهلة الأولى أن المقصود بالعبادة الصلاة والصوم. على أن الآية تأخذ بنا إلى أبعاد وخطوات أكثر دلالة وأوسع مفهوماً. وخير من يرشدنا إلى هذه الأبعاد ذات الدلالة الواسعة لمفهوم العبادة هو الإمام جعفر الصادق - سلام الله عليه -، وبالتالي يمكننا من فهم الآية الكريمة حق فهمها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: « وجدت علم الناس كله في أربع:

الأول: أن تعرف ربك.

الثاني: أن تعرف ما صنع بك.

الثالث: أن تعرف ما أراد منك.

الرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك ».

لذلك سوف نحاول أن نستوضح خفايا هذا الحديث وصولاً بنا إلى فهم الآية الكريمة، لا سيما معنى العبادة الواردة فيها.

(١) الذاريات: ٥٦ .

* أولاً - معرفة الله:

إن أول خطوة يمكن أن يخطوها الإنسان لمعرفة دينه هي معرفة الله سبحانه وتعالى، إذ كيف يمكن لنا أن نعبد رباً لا نعرفه. على أن المعرفة هنا ليست بالمفهوم المتعارف عليه بين الناس، ذلك المفهوم العادي الذي يتبادر إلى الذهن، وإنما هي محاولة معرفة قدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى، لأنه ليس بحجم يمكن أن ندركه بحواسنا فهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. (١)

إنما هو خالق الأشياء وفوق الزمان والمكان والكيفية. ولكن كيف نعرفه؟

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان زرع فيه الرغبة في أعماقه، تلك الرغبة في المعرفة التي يشعر من خلالها بجوع دائم إلى أن يعرف ما حوله، وهذه الرغبة هي ما تسمى بالفطرة، إذ أن الإنسان يحس بحاجة تدفعه إلى عبادة الله ومعرفته في أعماقه.

وهذه الفطرة إنما تولد مع الإنسان منذ ولادته طفلاً صغيراً. فالطفل دائماً يسأل ليجد تفسيراً لما يدور حوله. فإذا ما انقطع التيار الكهربائي يسأل أباه وأمه لماذا انقطع التيار؟ ومن خاط هذه الملابس؟ ومن جاء بهذه الحلوى؟ ولماذا أمطرت السماء؟ ولماذا هذا البرق؟ وهكذا.

إن هذه الكلمة « لماذا » يطلقها الطفل باستمرار لأنه يريد أن يعرف ما يدور حوله، وهي - أي الكلمة « لماذا » - نداء الفطرة أي أن الطفل

(١) الشورى: ١١ .

مدفوع إلى الاستفهام عن طريق الفطرة، لأن الإنسان يعرف أن لكل معلول علة ولكل مسبب سبباً ولكل صنعة صانعاً ولكل مخلوق خالقاً. إنها رغبة كامنة في نفس الإنسان تدفعه دائماً إلى السؤال.

كيف لا يسأل هذا الإنسان وهو لو نظر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها لوجد أنها تشكل ذرة صغيرة ودقيقة جداً بالقياس إلى هذا الكون الواسع الذي لا يحد، أي أن الأرض هذا الكوكب العملاق لا يشكل شيئاً بالنسبة إلى سائر الكواكب والنجوم من شمس وقمر ومريخ وغيرها من سائر المجموعة الشمسية.

فمن المعلوم أننا نعيش ضمن ما يسمى مجرة درب التبانة، تلك السحابة البيضاء الرقيقة التي نشاهدها في السماء في ليلة صافية. وهذه المجرة تتضمن مليارات المجاميع الشمسية، ويبلغ طولها حوالي ٥٠٠ مليون سنة ضوئية على اعتبار أن سرعة الضوء في الثانية هي ١٨٦ ألف ميل أو ٣٦٠ ألف كلم.

ومجرتنا هذه هي واحدة من ملايين المجرات الفارقة في أحضان الكون. وهذه الكواكب والنجوم التي نراها هي كلها في السماء الدنيا كما يؤكد ذلك القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ (١).

والسماء الدنيا هي تلك التي تقع عليها أعيننا من كواكب ونجوم. وإذا كانت هذه هي السماء الأولى، فما بالك بالثانية والثالثة والرابعة.. الخ. وقد ورد عن الإمام زين العابدين - سلام الله عليه - قوله: إن

(١) الملك: ٥ .

نسبة السماء الأولى إلى السماء الثانية كحلقة صغيرة في صحراء قاحلة.

إن الإنسان الذي يعيش على سطح الأرض وتحيط به ملايين المجرات وبلايين الكواكب والنجوم، ألا يجدر به أن يسأل أو يتساءل: من الذي أوجدني في هذا الكون العجيب؟ ومن الذي يسير هذا الكون؟ ولماذا لا تصطدم النجوم والكواكب بعضها ببعض الآخر؟ ومن الذي رفع هذه السماء أي الكواكب والنجوم بغير عمد ترونها؟ إلى ما هنالك من ملايين الأسئلة التي يمكن أن تخطر بالبال.

إن الإنسان يعيش خارج حدود الإرادة في كثير من حياته، قد تبلغ نسبتها ٩٥٪ من حياته بينما يبلغ الجانب الإرادي حوالي ٥٪ فقط. فهو رهن للكون الذي يعيش فيه، فالشمس تشرق وتغرب بغير إذنه، والقلب يعمل والدماغ يأمر وينهي والكبد في شغل دائم والعينان في حركة لا تهدأ وكل ما في الكون في عمل مستمر ونحن لا نعرف منه وعنه إلا النذر اليسير الذي لا يروي غلة ولا يغني من جوع.

وإنني لأعجب لأولئك الشباب الذين سرقهم منا الغرب الكافر وجرفهم في تياره المادي، كيف يسمحون لعقولهم أن تتجمد في حدود المادة ولا يطلقون لها العنان لكي تتفكر في هذا الكون العجيب وفي من خلقهم، ومن الذي أوجدهم من قبل أن يخلقوا، ومن تراب هم أم من عدم....

إنني أدعوهم لكي يتفكروا في نظام الكون الذي حير العلماء فقالوا إنه يسير على العدد، والعدد يحكم العالم، والعالم بأجمعه يسير ضمن

معادلات رياضية في غاية الدقة والتعقيد: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. (١)

إني أسأل هؤلاء الشباب وأدعوهم إلى التفكير الحر في كل ما يجري حولهم. إن القمر الصناعي يجتمع عليه ما يزيد على خمسة وثلاثين ألف عالم وخبير في شتى أنواع العلوم والاختصاصات ومع ذلك يطلقونه في الفضاء، حيث يبقى فترة زمنية محددة وبعد ذلك ينفجر في الفضاء ويتحول إلى شظايا، بينما هذا القمر، قمر السماء يدور حول الأرض منذ ملايين السنين، فكيف لا يقبل هؤلاء الشباب إلا أن يكون للقمر الصناعي صانع، ومع ذلك يقبل عقلهم أن يكون قمر السماء بلا صانع أو خالق أو موجد؟ كيف يسمحون لأنفسهم أن يفكروا على هذا النحو الظالم. فهل يعقل أن تكون هذه المجرات وهذه الكواكب والنجوم قد وجدت بطريق الصدفة ومن غير خالق لها يدبر شؤونها ويحركها؟ إن الإنسان يشعر في قرارة نفسه بوجود الخالق مهما ذهب بعقله المذاهب ومهما شرق وغرب ومهما كفر وألحد.

إن الإنسان يشعر بهذا في قرارة نفسه، وأن الله موجود: ﴿وَيُؤْمِنُكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. (٢)

فلماذا لا ينظر الإنسان في ما حوله ليتلمس رحمة الله وفضله عليه. لماذا لا ينظر إلى الهواء الذي يتشقه وإلى الطعام الذي يأكله؟ لماذا لا يشكر الله ويحمده لأنه في مأمن من النيازك والشهب التي

(١) يس: ٤٠ .

(٢) الحج: ٦٥ .

تتساقط باتجاه الأرض بمعدل يصل في الساعة الواحدة إلى أكثر من خمسين ألف نيزك، ولكنها عندما تحتك بالغلاف الجوي تتحول إلى طاقة. ألا يدل هذا النظام الكوني البديع على وجود الله سبحانه؟ لذلك يقول الإمام الحسين - سلام الله عليه - : « عميت عين لا تراك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل ».

حتى البدوي الذي يعيش في الصحراء عندما سأله: هل تؤمن بالله؟ قال: بلى . فسأله: والدليل؟ قال: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا يدلان على اللطيف الخبير؟

* ثانياً - معجزة خلق الإنسان:

إذا كان أول الدين معرفة الله سبحانه، فكيف تكون المعرفة وأي نوع هي؟ ويأتيك جواب الإمام الصادق - سلام الله عليه - ليقول: « أن تعرف ما صنع بك ».

وإذا أردنا أن نعرف ماذا صنع بنا فنحن نسأل: من أية جهة؟ لجهة الجسد أم لجهة النفس؟ فإذا كانت المعرفة تتوجه إلى صنيع الله بنا من الناحية الجسدية فما علينا إلا أن نتأمل هذا الجسد ونشرحه لنجد أن العلماء في دراساتهم المطولة لم يعرفوا من جسم الإنسان إلا القليل. وما عرفوه يدعو إلى العجب والدهشة.

إذ ثمة ٥٠٠ مليون عصب دقيق متفرع من الدماغ الذي ينقل الأوامر بأسرع من لمح البصر. فمن زرع هذه الملايين من الأعصاب غير الله عزَّ

وجلّ؟ من زرعها في طرف اللسان حتى نميز بين الطعام الخبيث والطعام الطيب، ونعرف الطعام المالح من الطعام الحلو أو المر؟

إن كل ما في جسم الإنسان معجزة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى فكيف يتعامى الإنسان عن هذه الحقائق: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ علماً أنها حقائق دامغة واضحة وهي دليل صارخ على وجوده سبحانه وقدرته ووحدانيته، إذ كل شيء في جسد الإنسان يدل على أنه واحد.

ذاك فيما يتعلق بالجسد، لكن الإمام الصادق عليه السلام إنما أراد أن يشير في كلامه إلى نقطة أخرى هي أهم من الجسد وأجل. وسوف يتضح لنا ذلك من خلال الأمثلة والشواهد لكي نعرف بالضبط ما هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام الصادق - سلام الله عليه -.

إن الإنسان هو واحد من ثلاثة أنواع خلقها الله سبحانه: الملائكة والحيوانات. ولندع الجن جانباً. وقد جاء الإنسان في مكان وسط ما بين الملائكة والحيوانات. وأرجو هنا ألا يتبادر إلى أذهانكم أن الملائكة أفضل من الإنسان من حيث النوع، بل العكس هو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وزوده بقابليات وخصائص ومميزات فريدة أهله لكي يقوم بدور الخليفة الشرعي في الأرض من قبل الله تبارك وتعالى.

على أن هذه الخاصيات والفضائل غير موجودة وغير متوفرة لا عند الملائكة ولا عند الحيوانات، لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإنسان خليفته في أرضه، وبالتالي فهناك دور ينتظره ورسالة عليه أن

يؤديها، من خلال هدف محدد من قبل رب العالمين. وسوف نتعرف إلى هذا الهدف فيما يلي من أمثلة وشواهد.

عندما صنع الإنسان السفينة الفضائية التي يريد لها أن ترسو على سطح القمر كانت مهمتها وهدفها يجعلانها أهم من الطائرة والصاروخ، والقمر الصناعي، لذلك زودها الإنسان بقابليات ومميزات وأجهزة غير متوفرة في الطائرات وغيرها.

وكذلك الإنسان، فقد زوده الله سبحانه بقابليات وملكات وأجهزة غير متوفرة عند الملائكة ولا أثر لها عند الحيوانات، لأنه مطلوب منه أن يصر إلى الهدف الذي حدد له. ولكي تتضح الصورة أكثر أقول: إن الإنسان يشترك مع سائر الحيوانات بالفريضة، ولكنه يفترق عنها بالأمور التالية:

١- بالعقل.

٢- بالقدرة على التعلم والتعليم.

٣- بالقدرة على القراءة والكتابة.

٤- بالقدرة على النطق والبيان.

وقد عرفنا أن هناك هدفاً سامياً حتم أن يتميز الإنسان بهذه القدرات دون الحيوانات.

لقد أعطاه الله سبحانه العقل كما هياً له العلم ليكون غذاءً للعقل. لأن الناس يولدون على درجة طبيعية واحدة من العقل لكنهم يتفاوتون في درجات الذكاء، لأن الإنسان إذا ولد بليد العقل أو أحرق فذلك

يكون عن طريق الوراثة وذاك بحث ليس الآن وقته. وبالتالي فإن الإنسان يمتلك القدرة للتعلم والتعليم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العقل عقلان: مطبوع ومسموع». العقل إذاً يحتاج إلى غذاء، وغذاؤه العلم وبدون العلم يصبح عقلاً هزياً ضعيفاً كالجسم الذي نمنع عنه الغذاء فإنه يذوي ويضعف حتى يصبح هزياً.

ودليلنا إلى ذلك المثال الذي يضره علماء النفس في أخوين اثنين، مصدرها خلية واحدة ومن فصيلة دم واحدة، يتميزان بالقابليات نفسها والصفات الجسدية ذاتها.

فإذا فرقنا بين هذين الأخوين فأرسلنا أحدهما إلى المدرسة يتعلم فيها وينهل العلم والثقافة، وسلمنا الآخر قطعاً من الغنم يرعاه. وبعد حوالي ثلاثين سنة نأتي بالأخوين ونجمعهما على مائدة واحدة ثم نطرح عليهما بعض المسائل الحسابية وغيرها. فماذا نجد؟

من الطبيعي جداً أن يجيبنا الأول على المسائل بدقة وسرعة في حين أن أخاه سوف يعجز عن الجواب، لأن ذاك أمّن لعقله الغذاء المطلوب من العلم والمعرفة، وهذا مات عقله جوعاً وعطشاً إلى المعرفة التي كان يفتقدها طوال ثلاثين عاماً.

والمقصود بأن يموت العقل من الجوع هو أنه يفقد قابلية العطاء بمجرد انقطاع العلم عنه، تماماً كالمصباح عندما تقطع عنه التيار الكهربائي. وعندما تتعطل آلة العقل تسقط المسؤولية عن الإنسان، فإله تبارك وتعالى لا يحاسب الإنسان المجنون، لأنه فقد عقله وبالتالي فقد قابلية العطاء.

وهكذا نجد أن قابلية التعلم متوفرة عند الإنسان، ولكنها غير موجودة عند الحيوانات. فلو أخذنا طفلاً وقرداً وجعلناهما في مدرسة تقدم العلم لكل منهما، فبعد مدة نلاحظ أن الطفل بمقدوره أن يعلم طفلاً آخر، في حين أن القرد حتى لو تعلم فإنه عاجز عن أن يعلم قرداً آخر الأمور التي تعلمها هو لأنه لا يملك القدرة على التعليم كما يمتلكها الإنسان.

ولندع الحيوانات جانباً فنحاول أن نقارن بين الإنسان والملائكة من هذه الناحية. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (١)﴾.

يتضح لنا من سياق هذه الآيات أن الله سبحانه قد «علم آدم» بينما «عرض» على الملائكة، لأن الإنسان يمتلك قابلية التعلم أما الملائكة فليس لديهم هذه القابلية وبالتالي فإن معلوماتهم محدودة يأخذونها عن طريق «العرض» كآلة التسجيل تماماً التي تتلقى العرض فتسجل ما

(١) البقرة: ٣٠-٣٣ .



يعرض عليها. بدليل أن الملائكة قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

في حين أن الإنسان معلوماته غير محدودة أخذاً أو عطاءً.

ويلاحظ أيضاً أن آدم أنبأهم «بأسمائهم»، فمن هم أصحاب هذه الأسماء، لأن الكلمة وردت بالميم وهي لجمع العاقل. فلو كانت الأسماء للأشياء لكان السياق في الآية ورد: «يا آدم أنبئهم بأسمائها»، وهذا يدل على أمرين: الأمر الأول هو أن الأسماء هي العلوم الكونية التي تعلمها الإنسان من الله سبحانه وتعالى. والأمر الثاني هو أن هذه العلوم إنما تصدر عن بيت طاهر مطهر، أصحابه هم أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

لذلك جاء في التفسير «أنبئهم بأسمائهم» أي بأسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين -عليهم السلام-.

إذاً أصبحت المسألة واضحة، إذ أن الله تبارك وتعالى قد أعطانا موهبة العقل والقدرة على التفكير والتعلم والفهم والمعرفة.

* ثالثاً - معرفة المطلوب منا:

وبهذا نكون قد وصلنا إلى بيت القصيد في هذه الجولة من خلال عودتنا إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. (١)

(١) الذاريات: ٥٦ .



فهل خلقنا الله سبحانه وتعالى للصلاة فقط أو لغيرها من سائر العبادات المعروفة كالصوم والحج والزكاة؟

إن العبادة في الإسلام أشبه ما تكون بشجرة تعددت أغصانها وأوراقها وامتدت ظلالتها لتتجاوز الصلاة والصوم والحج فتشمل حركة الحياة كلها وفي كل المجالات والمناحي، فطلب العلم عبادة والتفكير في أمر الله عبادة، والعمل في الأرض أو في المصنع عبادة... الخ.

يقول الإمام العسكري - سلام الله عليه - : «ليست العبادة كثرة الصلاة والصيام وإنما العبادة في كثرة التفكير في أمر الله». على أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن لفظة «كثرة» الواردة في الحديث إنما تشير إلى الصلاة المستحبة والصوم المستحب، لا إلى الصلاة والصوم المفروضين الواجبين. فكأنه عليه السلام يقول: إن العبادة ليست بكثرة النوافل في الصلاة والصوم، فالصلاة المفروضة معروفة ومحدودة وكذلك الصوم المفروض في شهر رمضان.

إذاً ما هو الهدف الذي من أجله خلقنا الله سبحانه وتعالى؟ إن الهدف هو التكامل العلمي والعملي. أما العلمي فهو أن تدرس وتقرأ وتتفقه والعملي هو أن تعبد الله وتبني الأرض وتتشئ الحضارة. هذا هو الهدف الأسمى الذي لأجله خلقنا الله سبحانه وتعالى.. إنها رحلة التكامل في مسيرة الإنسان حيث لا يمكن الحصول عليها إلا تحت ظلال الإسلام وظلال القرآن وظلال أهل البيت - عليهم السلام - لأن أهل البيت هم الذين يوضحون لنا مَدْلَهُمُ الطريق ومظلم الدروب.

قد يشكو إنسان ما فيقول لك: أنا عامل أكّد طوال النهار لكي أؤمن الطعام لعيالي فلا يبقى لي متسع من الوقت لكي أعبد الله بصلاة أو



صوم مستحبين فأنا محروم من صلاة الليل وسائر النوافل بسبب التعب المضني. ولكنه يجد الجواب عند أهل البيت عندما يقولون: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله» ويوضحون أن هناك ذنباً لا يكفرها إلا الهموم في طلب المعيشة. وساعتئذ يدرك هذا المتعب المهموم أنه في عمله وطلب المعيشة لعياله إنما هو في حالة من العبادة.

إنه عندما يفكر في عياله وأطفاله، وعندما تساوره الهموم في كيفية تأمين الملابس والأقساط المدرسية واللوازم من كتب ودفاتر، وتأمين إيجار السكن، فإن همومه هذه تسقط عنه كل ذنب من ذنوبه، لأن هذا اللون من التفكير هو شكل من أشكال العبادة.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المسلمين اليوم سنة وشيعة، وأقولها من غير تفريق، وبالإجماع يقولون إن تعلم الصناعة واجب كفاً، وعلى المسلمين إتقانها، وهي بمعناها الشامل للتطور التكنولوجي والعلوم التجريبية وكل ما ينبثق عن العلوم المادية.

وإذا لم يكن هناك في بلد إسلامي ما، من يتقن هذا اللون من الصناعة فإن المسؤولية تطال كل أفراد الأمة حتى ينهض بعضهم إلى إتقانها وتعلمها وساعتئذ يسقط التكليف عن سائر الأفراد الباقين.

كما أنه تجدر الإشارة أيضاً إلى أن العلم إذا تجرد من الإيمان تحول إلى جريمة وإلى عبث لا قيمة له. فكل طلابنا الذين يذهبون إلى أوروبا لتلقي العلم ألا فليعلموا أنه لا قيمة لعلومهم إذا كانت فارغة من المحتوى الإيماني. فالطبيب الذي همه الربح فقط من غير أن يفكر في الحالة الاجتماعية لمريضه فيساعده، إن هذا الطبيب لا قيمة لعمله في

ميزان العمل الصالح، بينما الأطباء المؤمنون تراهم يعملون بوحى من إسلامهم و إيمانهم، هاجسهم الأول مساعدة المرضى المحتاجين في تأمين الكشف والدواء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

* رابعاً - أن تعرف ما يخرجك عن دينك:

على الإنسان المؤمن أن يكون على دراية وبصيرة بكل ما يمكن أن يخرج به عن دينه. إذ أن هناك بعض الناس يخالفون دينهم وهم لا يدرون ذلك. فإذا جاء رجل إلى المسجد وصلى ثم سرق كتاباً للدعاء وراح إلى بيته يقرأ الدعاء ويبكي ويتوسل ويتقرب إلى الله، إن هذا الرجل قد خرج عن الطريق وهو لا يدري. ورجل آخر عائلته بأمس الحاجة إلى النفقة، وعليه ديون مترتبة للناس، وعندما جاء وقت الحج استدان مبلغاً من المال لأداء هذه الفريضة في الوقت الذي ترك عائلته تعاني الجوع والحرمان، وأصحاب الديون يطلبون أموالهم. إن مثل هذا الرجل يكون قد خرج عن الطريق وهو لا يدري أيضاً.

يجب أن نعرف دوافعنا الحقيقية، ويجب أن نعرف ما الذي يحركنا ويدفعنا في حركة الحياة، لا سيما في هذا الزمن الذي تحاصرنا فيه تيارات من الفكر تقوم على الكفر والإلحاد، وتكاد تستولي على عقولنا وعقول شبابنا مما يجعلنا ننحرف عن جادة الدين القويم. من هذه التيارات الفكرية ما يقول إن الاقتصاد هو الذي يحرك الإنسان ومنها ما يقول: إن الغرائز هي المحرك الأول، ومنها ما يقول: إن حب الذات هو المحرك الأساسي للبشر.



لكن الإسلام يضع النقاط فوق الحروف عندما يقول: إن العقل والإيمان هما اللذان يحكمان حركة الإنسان وينظمانها ويوجهانها الوجهة الصحيحة التي تصل بنا إلى شاطئ السلامة والأمان.

إن سلوك المؤمن هو ترجمة عملية لإيمانه وإسلامه إذ لا وجود في حياته وفي حركته للكذب ولا وجود للغيبة، في الوقت الذي تجد كثيراً من الناس لا يهناً لهم بال إلا إذا اغتابوا وكذبوا وناقضوا، ونحن نعلم أن الغيبة والكذب والنفاق تآكل الحسنات كما تآكل النار الحطب.

كما أن هناك من الناس من يصلي ويصوم ويعبد الله، ولكنه يأكل الربا. فما الفائدة من صلاته وصومه. فإذا كان يفعل ذلك عن جهل ألا فليعلم أنه يرتكب ذنباً كبيراً، وإذا كان يفعل ذلك وهو عالم بما يترتب على هذه الفاحشة من نتائج فليتب إلى الله توبة نصوحاً لأن الله غفور رحيم.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه بكى عندما قرأ عليه معاذ بن جبل هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾. (١)

قال معاذ: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: يا معاذ يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله وبدل صورهم، فطائفة تحشر على هيئة القردة، وطائفة تحشر على هيئة الخنازير، وطائفة تحشر عُمياً يترددون في عرصات القيامة، وطائفة مصلبون على جذوع من النار... إلى آخر السلسلة.

فقال معاذ: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: أما الذين يحشرون على

(١) النبأ: ١٨ .

هيئة القُرود فهم القتاتون من الناس (أي النمامون). أما الذين يحشرون على هيئة الخنازير قال: أكلة السُّحت. والسُّحت يشمل كل المحرمات وفي طليعتها الربا. والجزاء من جنس العمل، لأن الخنزير والذئب فيهما خصلة لا توجد في سائر الحيوانات. فالذئب إذا جرح رفيقه يمتص دمه، وكذلك الخنزير. والمرابي الذي يأكل الربا على مال أقرضه لأخيه أو جاره إنما يمتص عرقه وتعبه كالذئب والخنزير تماماً. يقول الشاعر:

وكنـت كـذئـب السـوء لما رآى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدم

أما الذين يحشرون مقطعة أيديهم وأرجلهم، فهؤلاء الذين يؤذون جيرانهم. فكأن هؤلاء لم يسمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: « الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، إن للجار عليك حقوقاً ومن حقوقه عليك ألا تؤذيه بقتار قدرك حتى تقدح له منها ».

* خلاصة:

هذا هو الإسلام بأبهى صورته وتلك هي الأخلاق بأنصع إشراقها الإسلامية وهكذا نستطيع أن نفهم مدلول العبادة في الإسلام من خلال هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

هذه العبادة ذات المفهوم العام الشامل لحرية الإنسان وكرامته، لأن العبودية أفضل في المرتبة من الرسالة. ففي الصلاة نقول: أشهد أن محمداً عبده ورسوله فنقدم العبودية على الرسالة، ومحمد عليه السلام هو عبد الله قبل أن يكون رسوله. والإنسان لا يمكن أن يحقق حرية إلا إذا كان عبداً مطيعاً لله سبحانه.



هذه هي الحرية الكامنة في العبادة، وهذه هي العبادة التي ننطلق منها إلى أجواء الحرية، حيث نلتف حول الحسين ونتجه إلى الله سبحانه وتعالى. فالمؤمن يذكر الله كثيراً، ويحافظ على صلواته ودعائه، وعبادته على طريق أهل البيت -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام-، ومنهجهم ودربهم في حياته الدنيوية من غير أي انحراف، وبذلك يحقق مضمون العبادة، ويتكامل عملياً وعلمياً، ليصل إلى الذروة حيث الهدف السامي الذي هو مهتم بتحقيقه.

ففي كربلاء وعلى أرضها المحرقة وقف سبعون نفرًا مع الإمام الحسين فيهم الشيخ الكبير الذي قاتل مع الحسين عليه السلام كحبيب بن مظاهر، وزهير بن القين وبرير بن خضير، وفيهم البراعم الشابة في الربيع الثاني عشر والثالث عشر، يجاهدون ويقاتلون مع الحسين ويبذلون دماءهم دونه، كعلي الأكبر والقاسم وأخوته، وفيهم الطفولة البريئة التي جاهدت وقاتلت مع الحسين -سلام الله عليه-. حتى المرأة كان لها مكان في ملف الثورة الحسينية وأرشيف الجهاد الحسيني.

كلهم قذفوا بأنفسهم إلى لهوات الحرب والشهادة من علي الأكبر شبيه رسول الله محمد ﷺ إلى أبي الفضل العباس وجعفر وعبد الله وعون، يتساقطون على رمال كربلاء كالأقمار المشرقة.

فاطمة تصف علياً في خشوعه وعبادته

- لي، (الأمالى الصدوق) عبدالله بن النضر التميمي عن جعفر بن محمد المكي عن عبدالله بن إسحاق المدائني عن محمد بن زياد عن مغيرة عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال كنا جلوساً في مجلس في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان فقال أبو الدرداء يا قوم ألا أخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة قالوا من قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إنا معرض عنه يوجهه ثم انتدب له رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها فقال أبو الدرداء: يا قوم إني قائل ما رأيت وليقل كل قوم منكم ما رأوا شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات النخل فافتقدته وبعد علي مكانه فقلت لحق بمنزله فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي وهو يقول: إلهي كم من موبقة حملت عن مقابلتها بنقمتك وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك ولا أنا براج غير رضواني فشغلني الصوت واقتفيت الأثر فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه فاستترت له وأخملت الحركة فركع ركعات في جوف الليل الغابر ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء

والبث والشكوى فكان مما به الله ناجاه أن قال إلهي أكفر في عفوك
فتهون عليّ خطيئتي ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي ثم
قال آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول
خذوه فيا له من مأخوذ لا تتجيه عشيرته ولا تتفعه قبيلته يرحمه الملائكة
إذا أذن فيه بالنداء ثم قال آه من نار تتضج الأكباد والكلى آه من نار
نزاعة للشوى آه من غمرة من ملهبات لظى قال ثم أنعم في البكاء فلم
أسمع له حساً ولا حركة فقلت غلب عليه النوم لطول السهر أوقفه
لصلاة الفجر قال أبو الدرداء فأتيته فإذا هو كالخسبة الملقاة فحركته
فلم يتحرك وزويته فلم ينزو فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله
علي بن أبي طالب قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم فقالت فاطمة
العليّة: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته فأخبرتها الخبر
فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله ثم
أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي فقال: مما
بكاؤك يا أبا الدرداء فقلت: مما أراه تتزله بنفسك فقال: يا أبا الدرداء
فكيف ولو رأيته ودعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب
واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ فوقفت بين يدي الملك الجبار
قد أسلمني الأحياء ورحمني أهل الدنيا ولكنك أشد رحمة لي بين يدي
من لا تخفى عليه خافية فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد
من أصحاب رسول الله ﷺ.

بيان انتدب له أي أجابه والشوحت شجر يتخذ من القسي والغيلة
بالكسر الشجر الكثير الملتف والمغياي الشجرية الملتفة الأفنان الوارقة

الظلال وقد أغيل الشجر وتغيل واستفيل وفي بعض النسخ بيعيلات
النخل جمع بُعيل مصغر البعل وهو كل نخل وشجر لا يسقى والذكر من
النخل والغابر الماضي والباقي ضد.^(١)

(١) بحار الأنوار : ٤١ - ١١ باب ١٠١ - عبادته وخوفه ﷺ.



محاور ثلاثة
في طريق الإيمان

محاوّر ثلاثة في طريق الإيمان

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١).

هذه الآية الكريمة تطرح مسألة الإيمان والتقوى وما فيهما من خير وبركة على المؤمنين والمتقين. وهذه البركة هي من الوفرة بحيث تتدفق تدفقاً كأن أبواب السماء والأرض انفتحت لها. والمراد بالسماء هنا المطر، وبالأرض النبات. ولكن أهل القرى (أي أهل المدن والناس بشكل عام: كذبوا الرسل وما اتقوا الله واليوم الآخر، فأخذهم الله بما قدمت أيديهم وجزاء بما فعلوا).

والقرآن الكريم يطرح مسألة الإيمان باعتبارها حالة طبيعية منطقية يرتبط بها الإنسان من حيث الفطرة والعقل. أما الكفر فهو الحالة الشاذة غير الطبيعية وغير المنطقية، وهو غالباً نوع من الكبر والتعاضم والتجبر.

ومن هنا نستطيع تقسيم البحث في هذا الموضوع مستويات أو محاوّر ثلاثة: محور العقل والمنطق، محور التفكير في دقة وإعجاز الخلق، ومحور التصديق والامتنال... وهذه كلها منفردة أو مجتمعة تؤدي إلى ضرورة الإيمان بالله.

(١) الأعراف: ٩٦ .



* المحور الأول - العقل والمنطق يدعوان إلى الإيمان:

ونبدأ بالسؤال الأساسي: من الذي خلق هذا العالم وكيف وجد؟
على هذا السؤال نستطيع أن نفترض أربعة أجوبة.

١ - الجواب الأول: أن هذا العالم غير موجود بالفعل، وما نراه ليس إلا وهماً وخيالاً.

وهذه الفرضية ضعيفة وساقطة، ولا تستطيع أن تصمد أمام حقائق الحياة والواقع، وضرورة أن الإنسان يحس بوجوده. ولكننا نذكرها لأن فريقاً من الفلاسفة القدماء في اليونان قد أخذوا بها وبنوا عليها تصوراً فلسفياً معيناً.

٢ - والفرضية الثانية هي التي تقول بأن العالم وجد من تلقاء نفسه وخلق من العدم. وهذه أيضاً ساقطة لأن المنطق يقول بأن لكل حركة محركاً، وأن العدم لا يستطيع أن ينتج وجوداً: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (١).

٣ - الفرضية الثالثة هي أن هذا الكون أزلي قديم. وهذا معناه أن تعطي لهذا الكون صفة الألوهية. فالمادة هنا أزلية، وبالتالي هي الله.

ولكن اكتشاف قانون الحرارة الديناميكية في الفيزياء الحديثة أثبت أن المادة في هذا الكون تسير تدريجياً من حرارة شديدة إلى حرارة أقل، وهكذا حتى تصل إلى درجة الصفر المطلق حيث تنعدم الحياة.

(١) الطور: ٣٥ .



فلو كان العالم أزلياً لفقد طاقته وحرارته منذ زمن بعيد، وهنا يأتي العلم ليسقط هذه الفرضية.

٤ - وتبقى إذاً الفرضية الرابعة وهي أنه لا بد لهذا الكون من خالق أزلي أبدي غير مخلوق ودائم لا يزول. لأن المنطق السليم يقول بأن لكل سبب مسبب، ولكل مخلوق خالق، ووراء المتغيرات الزائلات مبدأ ثابت لا يزول.

* المحور الثاني - التفكير في دقة وإعجاز الخلق:

لا شك أن الإنسان يتمتع بطاقات هائلة وقدرات كبيرة يستطيع بواسطتها أن يكتشف طبيعة ما حوله من الكائنات، كما يستطيع أيضاً أن يصنع آلات كثيرة يسخرها لخدمته. وقد يأنس الإنسان من نفسه القوة والجبروت فيتعاضم. ولكن تجربة الإنسان الطويلة أثبتت له أنه عاجز عجزاً مطلقاً أمام سر الحياة. فهو قادر على صنع ما يشاء ولكنه لا يستطيع أن يهب الحياة. هو يستطيع أن يكتشف التكوين الدقيق لأصغر الأجسام الحية، ولكنه لا يستطيع أن يهب الحياة لجناح بعوضة ميت.

وعندما يتأمل الإنسان في دقة صنع المخلوقات التي تحيط بوجوده وفي دقة النظام الذي تسير عليه فإنه يصل حتماً إلى الإيمان بوجود الخالق. ولذلك نرى مثلاً أن أكثر العلماء المتبحرين المتعمقين في



معرفة الطبيعة والأحياء الفيزياء هم من أعمق الناس إيماناً بالله. ومن هنا نستطيع أن نفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١).

ولننظر في بعض الأمثلة من حولنا:

١ - مثال الكرة الأرضية التي نعيش عليها:

هذه الكرة معلقة في الفضاء وتتمتع بجميع الشروط التي تحفظ حياتنا عليها. إنها بحركتها تؤمن التصاقنا بها، لأن توقف حركة الأرض يبطل فعل الجاذبية فيتطاير كل ما عليها من إنسان وحيوان ونبات. وهي تدور حول نفسها دورة كل ٢٤ ساعة فتعطينا النهار للعمل والسعي، وتعطينا الليل للسكينة والراحة: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (٢).

وهي تدور حول الشمس كل سنة مرة واحدة فتعطينا الفصول الأربعة وما فيها من دورة الزرع والحصاد.

وحول الأرض هناك غلاف غازي بسماكة ثابتة هي حوالي سبعمائة كيلومتر وبتركيب محدد ثابت. وهذا الغلاف الغازي الذي يرتفع فوق رؤوسنا هو الذي يحفظنا من النيازك والشهب التي تتطاير من الأجرام السماوية الأخرى. ولو سقط حجر واحد منها لأفنى عدداً هائلاً من الناس.

وبالإضافة إلى كل هذا نرى أن الأرض تسبح في هذا الفضاء

(١) فاطر: ٢٨ .

(٢) النبأ: ١٠ - ١١ .



الواسع ضمن مجموعات كوكبية ونجمية عديدة، وكل واحد من هذه الكواكب والنجوم له مسار دقيق محدد، بحيث لو أنه خرج عنه لاصطدم بكوكب آخر وتحطم وتناثر في الفضاء: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١).

وهذا الغلاف الغازي هو الذي يحفظ الماء على الأرض، فيأخذ الأبخرة ويحولها إلى سحب ثم مطر ينزل علينا خيراً وبركة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ (٢).

إذن هذه الكرة الأرضية التي هي مسرح حياتنا في هذه الدنيا تسير على نظام دقيق يحفظ حياتنا. وهذا النظام لا يعتريه وهن ولا خلل ولو للحظة واحدة. فهل نحن من وضع هذا النظام؟ وهل نستطيع التحكم فيه؟

٢- مثال الجنين في رحم الأم:

ونحن نلاحظ أن الجنين في رحم الأم ملفوف بغطاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام: غطاء أول يعزل الضوء عن عيون الجنين حتى تتكامل عيناه وجهازه البصري، وغطاء ثان عازل للصوت حتى يتكامل جهازه السمعي، وغطاء ثالث عازل للحرارة حتى يتكامل نموه العام: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (٣).

(١) الأنبياء: ٣٣ .

(٢) الواقعة: ٦٨ - ٧٠ .

(٣) الزمر: ٦ .



ثم نجد الحبل السري الذي يبلغ طوله خمسين سنتمتراً لا تزيد ولا تنقص. لأنها لو زادت التف الحبل على عنق الطفل وخنقه، ولو نقصت منعت حركة الطفل في رحم الأم.

وحركة الطفل هذه في رحم الأم تتصل بناحيتين: الأولى أنها ضرورية لتقوية عضلات الطفل وهيكله العظمي، والثانية أنها صلة بين الأم وطفلها، بحيث أن هذه الحركة تولد سعادة غامرة في نفس الأم وتساعد على تقبل مهمة العمل بفرح وسرور: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (١).

وهذا من عجيب صنع الله ومن رحمته. إذ بمجرد أن يخرج الطفل إلى الحياة تنشأ بينه وبين أمه رابطة هي سر عظيم من أسرار حفظ الحياة، في حين لا نرى هذه الرابطة بنفس القوة والمستوى بين الطفل والأب.

وهذه الرابطة بين الأم وطفلها أوجدها الله في طبيعة الأم حتى تحفظ هذا المخلوق الضعيف الذي خرج إلى الحياة مجرداً من أي سلاح. ونستطيع أن نلاحظ ذلك لدى جميع الحيوانات.

٣ - غريزة الأمومة وحفظ الطفل:

حدثني بعض الأصدقاء قال: أنا كنت من هواة صيد القروود في الغابات الأفريقية ثم أقلعت عن هذه الهواية البغيضة. قلت له: لماذا؟ قال: لسبب أرويه لك... كنت ذات مرة أصيد القروود في إحدى غابات كنشاسا في الزائير. رأيت قردة أنثى على شجرة. أطلقت عليها من

(١) الأحقاف: ١٥ .



بندقيتي فأصبتها إصابة مباشرة، ولكني لاحظت أنها تباطأت ولم تسقط. وأردت أن أطلق عليها طلقة ثانية، فرأيت على ظهرها طفلها الصغير. ثم لاحظت أنها تتحامل على نفسها وتداري طفلها، وقد بذلت جهداً كبيراً حتى وضعتة على غصن بجانبها، وعندها سقطت على الأرض مضرجة بدمائها!...

يقول: إن هذا المنظر ألمني أشد الألم وجعلني أقلع عن تلك العادة ولا أرجع إليها ثانية، لأنه علمني كيف يكون تعلق الأم بطفلها.

هذه العلاقة المتينة بين الأم وطفلها، وتلك الدقة المتناهية في طبيعة الرحم إنما هي شروط وفرها صانع عظيم لحفظ الحياة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾.

٤- درس من الإمام الصادق عليه السلام:

دخل رجل ملحد على الإمام الصادق، وكان يدعى الديصاني، فتناول الإمام بيضة وقال له: «يا ديصاني، هذا حصن حصين، تحته جلدة رقيقة، وتحت الجلدة الرقيقة فضة ذائبة، وبينها ذهب مائعة، فلا الذهب تختلط بالفضة، ولا الفضة تختلط بالذهب. ثم تتفلق عن مثل ألوان الطواويس. رأيت لها خالقاً أم لا؟» قال: نعم، أشهد أن لا إله إلا الله.

(١) المؤمنون: ١٢-١٤ .



٥ - ودرس من أمير المؤمنين عليه السلام:

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده».

٦ - عجز الإنسان عن الخلق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (١).

في هذه الآية يظهر لنا القرآن الكريم عجز الإنسان أمام مسألة الخلق. وهو يتحدى الإنسان بهذا الكائن الضعيف الذي هو الذبابة.

وقد استطاع الإنسان بعلمه وتجربته أن يتوصل إلى معرفة عناصر المادة والخلية التكوينية، كما استطاع أن يعيد تركيب الأجزاء لتأتي على صورة المادة أو الخلية التي فكها، ولكنه وقف عاجزاً أمام إعطاء الحياة للمادة الميتة... من أين جاءت الحياة؟ هذا هو السؤال الأساسي!...

لقد ادعى دارون ذات مرة أن الحياة كانت في كوكب آخر، ثم عبرت السموات ووصلت إلى الأرض... ناقشه العلماء المسلمون في هذا الرأي الفاسد، وبعثوا إليه برسائل كثيرة يبينون له أن هذه الفرضية تفضي بنا إلى سؤال آخر: ومن أين جاءت الحياة إلى هذا الكوكب الآخر؟ ومهما تهرب من الإجابة بالانتقال من كوكب إلى كوكب فلا بد من أن يكون هنالك مصدر أول لهذه الحياة وهو الله سبحانه.

(١) الحج: ٧٣ .



وهنا سكت دارون، ولم يستطع الإجابة. وكان له صديق ألماني، عالم مؤمن، كان يرأسه ويلتقي به أحياناً. وذات يوم بينما كانا معاً، شكّا ذلك العالم الألماني لصديقه من ألم في إصبعه بسبب سقوط ظفر، فتألم دارون له. ولكن العالم استدرّك قائلاً: سوف أعرضه على طبيب صادق ماهر يستطيع إعادته خلال أربعين يوماً!.. تعجب دارون وسأل: ومن هو ذاك الطبيب الذي تتحدث عنه؟ قال: إنه الله سبحانه وتعالى.

بعد هذا كان دارون يرأسل صديقه ويعترف له بأنه أصبح يعتقد بوجود قوة تدير هذا الكون وتدبر أموره... أجابه صديقه: إن القوة التي تتحدث عنها هي الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم.

٧ - مثل إبراهيم والعزير: ثلاث صور:

والقرآن الكريم يقدم لنا ثلاث صور تدل على قدرة الخالق وتحكمه بأمر الحياة والكون، وذلك من خلال نبيّين هما إبراهيم والعزير.

(أ) الصورة الأولى هي قصة إبراهيم مع النمرود. فالنمرود كان ملكاً طاغية لا يؤمن بالله. وكان يقول لأتباعه: أنا الله!...

قال له إبراهيم: أنت لا تستطيع أن تكون رب البشر لأنك لم تخلقهم. فهل أنت تملك أمر الحياة والموت؟ قال النمرود: بلى، أملك أمر الحياة والموت... وأشار إلى جنده بأن يحضروا له سجينين محكوم عليهما بالإعدام. فلما أحضرا بين يديه أمر بقطع رأس الأول وعفا عن الثاني. ثم قال لإبراهيم: رأيت كيف אני أتحكم بالحياة والموت؟!

كان بإمكان إبراهيم أن يقول له: هل تستطيع أن تعيد الحياة إلى



الذي قطعت رأسه؟ ولكنه واجهه بسؤال آخر وقال له: إذا كنت تتحكم بالموت والحياة كما تدعي فلا بد أنك تستطيع التحكم بالكون وسيره. إن الله يأتي بالشمس كل صباح من المشرق، فهل تستطيع أن تأتي بها من المغرب؟.. سكت نمرود وبهت ولم يجب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (١).

(ب) الصورة الثانية التي يقدمها القرآن هي أيضاً من سورة البقرة وهي قصة العزيز النبي:

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

إذا فقد مر العزيز على قرية فوجد كل ما فيها ميت، فقال: كيف يمكن لله أن يحيي هذه القرية؟! وهو هنا لا ينكر قدرة الله لأنه نبي مؤمن، إنما يتساءل تعجباً وليس استككاراً. ولكي يريه الله قدرته ويكون ذلك درساً وبرهاناً للناس، فقد أماته وحماره مائة عام. ثم أعاد الحياة

(١) البقرة: ٢٥٨ .

(٢) البقرة: ٢٥٩ .

إليه وسأله: كم تحسب أنك لبثت؟ قال العزيز، وقد ظن نفسه أنه كان نائماً: قد لبثت يوماً أو بعض يوم. قال: إنما لبثت مائة سنة، ثم أعدنا إليك الحياة لتكون عبرة للناس. فانظر إلى حمارك كيف تتأثر لحمه وعظمه، وسنريك كيف نعيد الحياة إليه، ونعيد تركيب أجزائه ونرفع بعضها فوق بعض (ننشزها) وكيف نكسوها لحماً. ثم انظر إلى طعامك وشرابك الذي كان معك قبل مائة عام، إنه ما زال على حالته الأولى لم يتغير ولم يتعفن رغم مرور السنين (لم يتسنه)... ولما رأى العزيز ذلك قال: «أعلم أن الله على كل شيء قدير» هو يعلم ذلك، وليس بحاجة إلى برهان، وإنما البرهان للناس الذين سيأتون بعده، أي إلى أيامنا هذه وبعدها: «ولنجعلك آية للناس».

(ج) الصورة الثالثة لقدرة الله على إعادة الحياة من سورة البقرة أيضاً:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

وإبراهيم مؤمن أيضاً بقدرة الله، فهو لم يقل: «رب هل تحيي الموتى» وإنما طلب أن يرى بأم عينه كيف يعيد الله الحياة إلى الموتى، وذلك ليطمئن قلبه.

فقال له الله عزوجل: إذن خذ يا إبراهيم أربعة من الطير ثم قطعهن إلى أجزاء متعددة واخلط الأجزاء ببعضها البعض (صرهن إليك) ثم

(١) البقرة: ٢٦٠ .

ضع كل جزء على رأس جبل. ثم قف أنت في مقابلها، فخذ منقار أي طائر منها تجد أن الأجزاء تأتي إليك سريعاً ثم تلتحم في جسم واحد كامل وتعود الحياة إليه بقدرة ربك وأمره. وهكذا فعل إبراهيم ورأى بأم عينه كيف هي قدرة الله على جمع الأجسام المتناثرة وإعادة الروح إليها.

ولماذا طلب إبراهيم هذا الأمر؟ لأنه كان قد رأى دابة ميتة اجتمعت عليها السباع وتوزعت لحمها، فأراد أن يعرف كيف يعيد الله الأجسام يوم القيامة بعد أن تتناثر ذرات، كل ذرة في مكان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

* المحور الثالث - التصديق والإيمان:

من الناحية العقائدية فإن المؤمن يعتقد بصدق ويقين أن الله سبحانه هو الذي يهب الحياة وهو القادر على بعث الأجساد حية يوم القيامة. ومن هنا علينا أن نستنتج أن الله ما خلقنا للدنيا وإنما خلقنا للآخرة. وهذه الدنيا هي دار امتحان: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢).

إذن فإن مقياس الإيمان هو العمل الصالح. وإذا رجعنا إلى الآية

(١) لقمان: ١٦ .

(٢) الملك: ٢ .



المباركة التي اففتحنا بها الحديث نجدها تؤكد على هذا المعنى: «فلو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا...».

والتكذيب يكون بالذنوب وارتكاب المعاصي، والإيمان والتصديق يكون بالتقوى والعمل الصالح.

وهنا علينا أن نلاحظ أن القرآن الكريم يقرن دائماً الإيمان بالعمل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

لأن العمل يعمق الإيمان ويثبت اليقين.

فأنت عندما تقوم بقضاء حاجات الناس ومساعدتهم تشعر بأن إيمانك يقوى وثقتك بنفسك وبريك تزداد قوة ورسوخاً.

كذلك فإن القيام بالفرائض من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك إنما تطهر النفس وتزكيها وتبعد عنها الأمراض من بخل وطمع ولؤم.

ومن صفة الإنسان المؤمن أنه يعظم شعائر الله ويؤدي الفرائض: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

أو قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (٢).

ومن صفة المؤمن الزهد في الدنيا. والزهد لا يكون مع الفقر وإنما يكون مع الغنى. فالفقير المحتاج بماذا يزهد؟ إذ يده لا تطال شيئاً حتى يزهد فيه. ولكن الزهد الحقيقي يكون عند الأغنياء الذين يبذلون

(١) الحج: ٣٢ .

(٢) التوبة: ١٠٣ .

أموالهم في سبيل الله فيساعدون المحتاجين وينفقون الأموال في سبيل المشاريع الإسلامية والدعوة. فالزهد هو أن تمتلك المال لا أن يمتلكك.

والبخل مرض من الأمراض النفسية الخبيثة التي لا تتفع معها الوصفات الطبية، وإنما تعالج فقط بالإنفاق، وخاصة إنفاق الحقوق. وهكذا يوظف الإنسان المؤمن دنياه في سبيل آخرته. وقد لخص القرآن الكريم كل ذلك بعبارة واحدة: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (١).

بعض الناس يتظاهرون بالإيمان وبالتعلق بالدين ولكنهم يتهربون من دفع الحقوق والإنفاق مما آتاهم الله، فهؤلاء كيف سيواجهون ربهم يوم القيامة؟! هل سيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (٢).

ولكن الأمر عندئذ يكون قد فاتهم.

إن جميع الأنبياء والصالحين وأهل البيت - عليهم السلام - كانوا مثلاً للبذل ومساعدة الناس وخدمة المحروم والفقير والعاجز. لقد كانوا يتحسسون آلام الفقراء ويشعرون معهم، لأن هذا من صفات المسلم الأساسية: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

فإذا لم ينفق الميسورون من أموالهم فمن يهتم بالفقراء والأرامل والأيتام؟! لماذا الحرص على جمع المال وكنزه ونحن نرى حولنا آلاف الشباب يريدون الزواج ولا يملكون المهر لزواجهم!...

(١) الحديد: ٢٣ .

(٢) السجدة: ١٢ .



إن هذه الحياة الدنيا كما قلنا ليست إلا دار اختبار، ثم نمضي جميعاً ولا نحمل معنا إلا الكفن:

وهزة المهد في أيدي قوابلنا كهزة النعش عند الحمل أحياناً

والعمر حبات أسلاك تفرقها أنفاسنا و صفيح اللحد مأوانا

أو كما يقال أبو الطيب المتتبي:

رأيت بني الدنيا كوفدين كلما ترحل وفد حط في إثره وفد

وكل يجد السير عنها ونحوها ويمضي بذنا نعش ويأتي بذنا مهد

إن المرء يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن أمواله مم اكتسبها وفيما أنفقها.

وسوف نُسأل أيضاً عن حبنا لأهل البيت. ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (١).

أي أننا سنُسأل عن ولاية علي بن أبي طالب والذي يأتي بدون ولاية علي بن أبي طالب مستحيل أن يدخل الجنة، وإنما سيكبه الله على منخريه في نار جهنم.

لما كان معاوية يشتم الإمام علي أرسلت إليه أم سلمة من المدينة كتاباً قالت فيه: «يا معاوية، إنك بسبك لعلي وأصحاب علي والذين يحبون علياً إنما تدخل نفسك النار وتتنزل غضب الله عليك. لأن رسول الله قال: يا علي، من سبك فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله فقد كفر».

(١) الصافات: ٢٤ .

ومعاوية هذا الذي كان يسب أمير المؤمنين على المنابر يقولون عنه
كاتب الوحي وخال المؤمنين!!...!

والأعجب من ذلك أن هؤلاء يقولون إن أباطالب قد مات مشركاً!..
عجيب أمرهم! أبوطالب عم النبي ووالد علي يموت مشركاً، وأبو
سفيان والد معاوية يموت مؤمناً!... عندما مات أبوطالب أعلن النبي
الحزن عليه لمدة عام كامل، فهل يُعقل أن يحزن النبي هذا الحزن على
مشارك!؟...!

* لا تؤجل العمل الصالح:

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «إياك والتسويف بعملك. فإنك بيومك
ولست بما بعده. فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن
لم يكن غد لك لم تتدم على ما فرطت في يومك».

هكذا يعلمنا الرسول أن نعمل صالحاً كل يوم ولا نقول: سوف
نعمل.. أي يحذرنا من التسويف، لأن الإنسان لا يملك غده.

وهنا أورد حادثة فيها موعظة ودرس. كنت أعرف رجلاً من الأثرياء
الموسرين، وهذا الرجل كنت ألتقيه دائماً وأحدثه عن ضرورة العطاء
وضرورة إنفاق الحقوق، لأن المحتاجين كثيرون ولأن الإنفاق وبذل
الحقوق هو الذي يظهر أموالنا ويزكيها. ولكنني كنت أجد منه دائماً
التردد والتسويف. ومرة قال لي: أنا أعطيت نفسي مهلة خمس سنوات
لأرتب أموري، وبعدها أنفق الحقوق المتوجبة عليّ. والحقيقة أن ذلك

الرجل لم يعيش خمسة أيام بعد كلامه ذاك! فانظروا إلى هذا الدرس وهذه العبرة.

وتوفي ذلك الرجل وترك الأموال الطائلة، فسارع أولاده إلى اقتسامها وصرفها على موائد القمار وفي أحضان الراقصات والغواني!..

هذا الرجل ما الذي حبسه ومنعه عن العطاء والخير؟... إنه بعد أملة!... ولذلك تجد دعاء كميل يقول: «وحبسني عن نفعي بُعد أُملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بخيانتها وجنايتها، ومطالي يا سيدي...».

فلننظر إلى يومنا ونسأل أنفسنا: ماذا قدمنا لآخرتنا، حيث يسأل كل إنسان عما فعل. فإن كان من أهل الخيرات والعمل الصالح يستقبله رضوان على باب الجنة مبتسماً مستبشراً: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١).

وإن كان من أهل الشمال، أهل العمل السيئ استقبله مالك غاضباً على باب النار.

ولنستغفر الله على ذنوبنا لأن الله رحيم يغفر الذنوب. «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء».

(١) الزمر: ٧٣ .



معرفة النفس الإنسانية والطريق إلى الله

معرفة النفس الإنسانية

والطريق إلى الله

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (١)﴾.

لكي نفهم هاتين الآيتين المباركتين نحتاج إلى معرفة بالنفس الإنسانية وعلاقتها بالله سبحانه وتعالى، لأن الآيتين تطرحان مسألة العلم ومعرفة الله. ومعرفة النفس لا يمكن أن تقدمها لنا إلا مصادر أهل البيت وعلومهم. وأما مصادر ومدارس ما يسمى بعلم النفس الحديث، من أمثال مدرسة فرويد أو أدلر، فإنها لا تعرف شيئاً عن أسرار النفس وطبيعتها ولا تقدم إلا تفسيرات قاصرة محدودة كالتفسير الجنسي أو التفسير المادي وما شابه ذلك.

*** الإمام علي ومعرفة النفس :**

سأل كميل بن زياد - رضوان الله - أمير المؤمنين فقال: سيدي،

(١) فاطر: ٢٧ - ٢٨ .



أريد أن تعرفني نفسي. قال الإمام: يا كميل، أيّ نفس تريد أن تعرفها؟
قال: سيدي، أليست هي نفس واحدة؟

قال أمير المؤمنين: لا يا كميل، إنما هي أربع.

- لنلاحظ في البداية أنه قال: «إنما هي أربع» ولم يقل: «إنما النفوس أربع».

قال الإمام: «فأما الأولى فهي النفس النامية النباتية، والثانية هي الحسيّة الحيوانية، والثالثة هي الناطقة القدسية، والرابعة هي الملكوتية الإلهية. فهذه أربع يا كميل، ولكل واحدة خمس قوى وخاصّيتان».

١- فأما النامية النباتية فلها خمس قوى: القوة الماسكة، والقوة الجاذبة، والقوة الهاضمة، والقوة الدافعة، والقوة المربية.

(أ) فأما القوة الماسكة فهي التي تنظم الطعام وتحفظه.

(ب) والجاذبة هي التي تجذب الطعام من المعدة إلى الكبد.

(ج) والهاضمة هي التي تحول الطعام إلى خلايا حية في الكبد. (أي الدم الذي ينتقل ويتوزع بعد ذلك عن طريق شبكة الأوعية الدموية).

(د) والدافعة هي القوة التي تدفع الاحتراقات الكيماوية من بدن الإنسان. (وهي الفضلات والاحتراقات التي إذا بقيت في جسم الإنسان يصاب بنوع من التسمم الكامل ويموت. ولنلاحظ هنا أن ملايين من الخلايا الكامل ويموت. ولنلاحظ هنا أن ملايين من الخلايا الفاسدة والمحتركة تخرج مع العرق والبول والزفير وفي كل لحظة

ملايين من الخلايا تموت وتتجدد مكانها ملايين فكأنما بان الإنسان عبارة عن نهر يجري بالخلايا والطاقات).

(هـ) والقوة الخامسة هي المربية، وتكون في كل خلايا البدن، تربي الخلية وتتميمها وتوجهها. (ويقول علماء اليوم أن كل خلية تمتلك جهازاً عقلياً الكترونياً من أدق العقول في الكون).

وللقوة النامية هذه خاصيتان: الزيادة والنقصان.

٢- والنفس الثانية الحسية لها خمس قوى: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس... ولها خاصيتان: الرضا والغضب، ومنطلق الخاصيتين من القلب.

٣- والنفس الثالثة الناطقة القدسية لها خمس قوى: الفكر، والذكر والعلم، والحلم، والنباهة.

ولهذه النفس الثالثة خاصيتان: التزكية والحكمة.

٤- والنفس الرابعة الكلية الإلهية أو الملكوتية الإلهية هي قمة القمم ولها اتصال بعرش الله وسدرة المنتهى.

ولهذه النفس الرابعة خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وفقر في غنى، وصبر في بلاء. وهذه النفس تبدأ من الله وإلى الله تعود: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (١).

(١) الفجر: ٢٨ .

نستطيع أن نلاحظ من كلام أمير المؤمنين أن النفس الأولى والثانية، أي النامية النباتية والحسية الحيوانية، تموتان بموت الإنسان، وأما الثالثة والرابعة، الناطقة القدسية والكلية الإلهية، فإنهما باقيتان وهما اللتان تتعرفان على الله، لأنهما القوتان اللتان بهما يكون العلم، وهو ما أشارت إليه الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وحياة الإنسان ونعيمه أو شقاؤه إنما هي مرتبطة بالنفس الثالثة والرابعة، ذلك أن النفس الثالثة الناطقة هي بشكل أساسي القوة المفكرة العالمة النبيلة التي تتعرف إلى الله فتوحده وتخشاه والتي تمتلك في نفس الوقت الحرية والاختيار. أما النفس الرابعة فهي التي تتصل بالله وتتعرف إليه بالصفاء والفطرة، وهي على اتصال بسدرة المنتهى.

وفي الروايات أن كل ما عمله في حياتك ينتهي إلى العرش وسدرة المنتهى، حيث لكل منا صورة هناك تتطبع فيها أعمالك. وفي بعض الأخبار أن المؤمن إذا زلت قدمه وعصى الله فإن الله تبارك وتعالى يطفئ صورته في سدرة المنتهى حتى لا ترى الملائكة معصيته، أي أن الله يستر عليه. أما إذا كان عابداً لله ملتزماً بأحكامه محسناً إلى الناس فإن الله يظهر صورته وأعماله أمام الملائكة، إنه يباهي به الملائكة. وقد أشار العلامة المجلسي إلى هذا المعنى في تفسيره لدعاء: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح» بروايات عن أهل البيت - سلام الله عليهم -.

والنفس الرابعة أيضاً هي النفس التي تمتلك قوى التعبد والخشية والتقرب من الله. فيها يكون الصبر على البلاء، لأن البلاء امتحان.



وبها يكون الإحساس الدائم بالافتقار إلى مغفرة الله والغنى برحمته،
وبها يكون الإحساس بالذل أمام الله والإحساس بالعز في طاعة الله...
هكذا إذاً يعرفنا أمير المؤمنين بأنفسنا ويفتح أمامنا سبل العلم
والإيمان ومعارج السمو والارتقاء. هذا العلم الذي كلما اتسع وتعمق
كلما دفعنا إلى خشية الله والاعتراف بعظمته والإقرار بوحدانيته،
فتعبده عبادة العلماء الأحرار، لا عبادة الجهلاء العبيد... ويعبر أمير
المؤمنين عن قمة العبادة الواعية العالمة بكلمته العظيمة: «إلهي، ما
عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكني وجدتك أهلاً
للعبادة فعبدتك»... إنها عبادة العلماء الأحرار.

* معرفة النفس ومحاسبة النفس:

إن معرفتنا لأنفسنا تفترض علينا حسب مفاهيم الإسلام وتعاليمه
محاسبتها في كل لحظة وتربيتها لترتفع إلى أعلى عليين، وذلك أن
النفس ستحاسب في الآخرة، وفي رهينة بما عملت وما قدمت
وأخرت.

فأما نفوس الظلمة الطفافة فإنها ستلاقي عقابها في جهنم، وذلك
من مقتضيات العدل الإلهي. إذ ليس من العدل الإلهي أن يكون الطفافة
والمستضعفون، المؤمنون والكافرون، الأتقياء والفاسقون، البررة
والفجرة... أن يكون جميع هؤلاء جنباً إلى جنب في الجنة. ولا عبرة
فيما يردده ويقوله بعض الجهلة الذين لا يعرفون الإسلام على حقيقته
ولا يعرفون قيمة التبرّي والتولي في العقيدة الإسلامية.



يقول الغزالي صاحب «إحياء علوم الدين»: إن الله يجمع الحسين
ويزيد يوم القيامة ويصالحهما!...

إن هذا الكلام يعني أن الله يساوي بين الظالم والمظلوم، ويساوي بين
موسى وفرعون... الخ. وهذا معناه أنه لا حاجة بعد ذلك إلى النار!...
هل هذا الكلام منطقي ومعقول؟!... وأين على ذلك جهاد المجاهدين
وصبر الصابرين وعبادة العابدين وتقوى المؤمنين؟!... إن الولاية لأهل
البيت والبراءة من أعدائهم هي شرط النجاة والحد الفاصل بين
الرحمة والعذاب... وفي جميع الأحوال فإن الله فعال لما يشاء. على أن
الله سبحانه وتعالى قد ألزم نفسه بالعدل، وأن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

حجر بن عدي، مثال الأحرار في العالم، ومثال المؤمنين المتمسكين
بالولاية، قتله معاوية ولم يستطع أن ينتزع منه أومن ولده كلمة براءة من
أهل البيت. قال لهما حجر: اقتلوا ابني قبلي، لأنه خاف إن قتل هو
قبل ولده أن يضعف ولده ويتكرر لعقيدته. هكذا قتلوا الابن والوالد.
قال لهم حجر: اقتلوني وأنا مصفد بالحديد لأنني أريد أن ألتقي
معاوية أمام الله وأنا على هذه المحجة وهذه الهيئة... إذاً كيف سيلتقي
حجر ومعاوية ويتصالحان؟!... ومعاوية نفسه يقول بعد اقترافه
لجريمته: «ليلي منك يا حجر طويل!». ونحن نقول: وعذابك طويل
أيضاً يا معاوية، إن شاء الله.

(١) الزلزلة: ٧-٨ .

بالعودة إلى الآيتين السابقتين نقع على منهج واضح في المعرفة ومحاسبة النفس، وهذا المنهج يتلخص في نقطتين:

١- الأولى هي التأمل في آيات الله الباهرات. إن التأمل في آيات الله يوصلنا إلى معرفة الله ومعرفة أنفسنا في نفس الوقت، باعتبار أن النفس البشرية والكيان الإنساني بكليته هما آيتان من آيات الله، كما هي الأفلاك والمجرات وقوانين الفيزياء والكيمياء والطاقة والحركة... ويحدد القرآن في آية أخرى من آياته هذه المنهجية بشكل أكثر دقة ووضوحاً إذ يقول: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

٢- والنقطة الثانية تترتب على الأولى، وهي أنه إذا ما حصل العلم والمعرفة بالتأمل فإنه ينتج عن ذلك الاعتبار وبالتالي التقوى والخشية. ومن هنا فإن خشية الله وعبادته مرتبطتان بمعرفته.

والآيتان الكريمتان تأخذان يدنا تدريجياً في هذا المنهج إلى أن نصل إلى الغاية المنشودة: فانظر أيها الإنسان إلى هذا الماء الذي أنزله الله من السماء فأخرج به من الأرض اليابسة الميتة حياة تمثلت في هذه الثمرات التي ترمز إلى كل ما ينبت من الأرض. هنا نلاحظ أن تكون الماء ثم نزوله هو بحد ذاته آية من آيات الله الدالة عليه المشيرة إليه. ثم إن إحياء الأرض وإخراج النبات والثمر منها آية أخرى. وهناك آية ثالثة أيضاً وهي تتمثل في أن هذا الماء الواحد الذي يسقط على الأرض الواحدة يُنبِت ثمرات متعددة مختلفة اللون والطعم. ويشير

(١) فصلت: ٥٣ .

القرآن إلى هذا المعنى في غير آية، ومن ذلك قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (١).

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

والأرض التي تنبت الزرع هي أيضا تختلف من منطقة إلى أخرى، وكذلك تركيب التربة يختلف من قطعة إلى أخرى: فترى أرضاً رملية وأخرى كلسية وثالثة طينية وهكذا... وترى أيضا أرضاً حمراء وأخرى بيضاء وثالثة سوداء... الخ. وكذلك ترى العناصر الكيماوية المختلفة مبعثرة في التربة وتشكل عنصر الغذاء اللازم لخصب الأرض ونماء النبتة. ولقد توصل العالم الكيميائي المسلم جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق عليه السلام قبل ألف وثلاثمائة سنة إلى اكتشاف واستخراج العناصر الكيماوية المختلفة من التربة.

إذاً هذه كلها من آيات الله الدالة عليه. ويضاف إلى ذلك أنك إذا نظرت إلى الجبال ترى فيها تلك العلامات ذات الألوان المختلفة، فمنها البيض والحممر والسود الغرابيب. (والغرابيب أي الشديدة السواد، والجُدَد، على وزن غُرْف، وهي جمع جُدَّة، على وزن مُدَّة، وهي العلامة والطريقة. يقال: في هذا الجبل جُدَّة سوداء أي لون أسود ممتد كالطريق).

وليس هذا التعدد والتنوع والاختلاف محصور في الأرض والطبيعة

(١) الحج: ٥ .

(٢) فصلت: ٣٩ .



فقط، وإنما تراه أيضاً في الناس والدواب والأنعام. ألوانها مختلفة، أشكالها مختلفة، وكذلك أصواتها وطرائق عيشها وحركتها وسعيها... الخ.

إذن هذه هي النقطة الأولى في منهجية المعرفة وهي النظر والتأمل في الكون والطبيعة والكائنات الحية والإنسان.

والنظر في اللغة العربية التي هي لغة القرآن لا يعني مجرد الإبصار وإنما هو يستدعي دائماً تفكيراً وتأملاً وإعمال رؤية. تقول: نظرت في الأمر، أي فكرت فيه وتأمّلت فيه من جميع جوانبه، فهو عملية استيعاب لكل نواحي هذا الأمر سواء كانت حسية منظورة أو ذهنية معنوية تلتقط بالفكر ونفاذ البصيرة. ومن هنا فإن النظر يتجه إلى بواطن الأمور أيضاً وإلى ما لا يرى بالعين فقط. وعلى هذا يكون النظر في نفس الإنسان.

وما تنتقل إلى النقطة التالية في منهجية المعرفة التي حددتها الآيتان وهي الخشية والاعتبار، وهذا يكون من مهمة وعمل النفس الثالثة الناطقة القدسية والرابعة الملكوتية الإلهية التي أشار إليها حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

يعني أن حصول المعرفة بالله، من خلال النظر في آياته، يؤدي إلى خشية الله.

وهنا لا بد من توضيح أمر، وهو أن المراد بالعلماء يحتمل حدّين أو مستويين في العلم والمعرفة. فإذا كان المراد بالعلماء تلك القلة المحدودة

المحدودة الخاصة فيكون المراد بالخشية كمال الخشية ودرجتها القصوى الناتجة عن درجة قصوى في العلم والمعرفة. ومن هنا نرى أن بعض العلماء الذين يعيشون في مختبرات أبحاث الطب والفيزياء والكيمياء والذرة وسواها يتوصلون إلى إيمان عميق رائع مذهش ناتج عن تعمقهم في اكتشاف قوانين الخلق والحياة والطبية في المخلوقات فيصلون مباشرة إلى معرفة العظمة الإلهية. هذا بالإضافة إلى الخاصة من المفكرين والفلاسفة وعلماء الدين الكبار. ولكن هل يعني ذلك أن خشية الله محصورة بهذه القلة؟ بالطبع لا. وهنا علينا أن نعتبر أن الحد الآخر للعلم والخشية يتمثل أيضاً بأولئك المؤمنين الكثر الذين يؤمنون بوجود الله ويعلمون أنه غفور رحيم ويلتزمون بأحكامه ويتعدون عن طريق الشيطان.

وهؤلاء يمكن أن يصلوا إلى خشية الله - وهم غالبية الناس - عن طريق المعرفة الفطرية السليمة وعن طريق التعلم. ذلك أن معرفة الله وخشيته ليست أمراً مختصاً بفئة قليلة ولا هي امتياز لنفر قليل. وهكذا نرى أن العلم والإيمان والخشية هي مسيرة طويلة وسلم طويل غير محدد الدرجات لعلها تبدأ بقول الشهادتين وتنتهي بدرجة قصوى من نوع إيمان الأنبياء والأئمة والمرسلين. فالدرجة القصوى عبر عنها أمير المؤمنين بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» وهي درجة العلماء الريانيين. ولعل الدرجة الدنيا تتمثل بالكثرة التي تتعلم على سبيل النجاة، كما عبر أمير المؤمنين أيضاً.

والناس بالنسبة إلى علمهم وإيمانهم ينقسمون إلى أربعة أقسام أساسية:

قسم من الناس لا علم له ولا إيمان، وهؤلاء يكونون أقرب إلى الدواب منهم إلى الإنسان.

وقسم عنده علم ولا يملك الإيمان. وهؤلاء هم العلماء الذين لا يسعون إلى خير البشرية وتكريم الإنسان، فتراهم يصنعون الأسلحة المدمرة الفتاكة ويستهيئون بحياة الإنسان لتحقيق أغراض وغايات أنانية خاصة. فنحن إذا نظرنا إلى عالمنا اليوم نجد فيه من أسلحة الفتك والدمار ما يمكن أن يدمره ويمزقه عشرات المرات. وعلى هذه الأسلحة تتفق الأموال التي لا حصر لها، في حين نرى الملايين من الناس تموت فقراً وجوعاً ومرضاً، ناهيك باستعباد الشعوب وسرقة خيراتها. فهذا النوع من العلم الذي يرمي إلى القهر والاستعباد هو علم ملعون لا خير فيه.

وقسم ثالث من الناس لديه إيمان وليس لديه علم. وهذا النوع يمكن أن يرتقي ويتطور لأن فيه بذرة الخير المتمثلة بالإيمان. فهو يستطيع أن يتعلم ويطلب العلم على سبيل النجاة. وقد جعل الإسلام من طلب العلم فريضة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ويقول الرسول الأعظم ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». وكذلك نرى أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ (١).

(١) العلق: ١ - ٤ .

والقسم الرابع من الناس هو الذي يملك العلم والإيمان، وهذه أرفع الدرجات. هذا النوع من الناس هو الخير والبركة والنماء في هذه الحياة، وبه تكون عمارة الكون تلك المهمة العظيمة التي أنيطت بالإنسان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله خلق الملائكة وركب فيها عقلاً من دون شهوة، وخلق البهائم وركب فيها شهوة من دون عقل، وخلق الإنسان وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلبت شهوته عقله كانت البهائم أرفع منه، ومن غلب عقله شهوته كان أرفع من الملائكة».

* مصداق العلم والإيمان هو السلوك:

ولابد أن نصل أخيراً إلى نقطة أساس في هذا البحث وهي أن السلوك الإنساني هو مصداق العلم والإيمان. فالعلم أو الإيمان ليس مجرد ادعاء كاذب أو تباهٍ أجوف، وإنما هو مثل كل شيء سلوك وممارسة في الحياة تتفعل وتتفعّل الناس، إنه الخير الذي يمكث في الأرض ويبقى وما سواه غثاء يذهب. ذلك أن الله سبحانه ليس بحاجة إلى علمنا لأنه العالم الذي لا يعلم، وليس بحاجة إلى إيماننا لأن كفرنا لن يضره شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾^(١).

وإنما مردود العلم والإيمان هو على حياتنا الشخصية والاجتماعية. ومن هنا فإن العلم والإيمان يجدان مصداقهما في البيت والمجتمع

(١) آل عمران: ١٧٧ .



والعمل والوظيفة والنادي والشارع وفي كل مجال يتحرك فيه الإنسان. وعليه كانت الأوامر والنواهي وكانت الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وغير ذلك مما يستقيم به أمرنا وتصلح به حالنا ويكون بالتالي خلاصاً لنا في الدنيا والآخرة.

إن معاملة الزوجة والأبناء بالحسنى هي من أمارات العلم والإيمان، وكذلك معاملة الجار ووصل ذوي القربى والأرحام، والإحسان إلى الفقراء والأيتام، ومساعدة الضعيف والمحتاج.

ومن الدلائل على صدق العلم والإيمان الاستقامة في الحياة الخاصة والعامة والابتعاد عن المفسد، والإقبال على كل ما ينفع الناس.

ومن شروطه أيضاً محاربة النفس الأمارة بالسوء والابتعاد عن طريق الشيطان الذي يغري بالوساوس والشكوك، ويحرض على المعصية والعقوق. فلا تدع له إليك سبيلاً، بل استعذ بالله من الشيطان الرجيم، واقرأ القلائل في كل حين، قل أعوذ برب الناس... قل أعوذ برب الفلق... قل يا أيها الكافرون... وتذكر دائماً أن المسلم هو من سلم الناس من يده ولسانه. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(١).

ومحاسبة النفس هي من مستلزمات الإيمان، لأننا بذلك نقطع الطريق على الشيطان الذي يترصد خطواتنا في كل لحظة. فالشيطان يحاول دائماً أن يسد منافذ الوعي على الإنسان وذلك بإغرائه بشتى أنواع الكبرياء والعجرفة والتكبر والجهل، فيرتكب الإنسان عندئذ

(١) فاطر: ٦ .

الحماقات وينساق وراء أهوائه ونزواته، حتى إذا ما سقط تخلى عنه الشيطان وابتعد قائلاً: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١).

لذلك فإن محاسبة النفس الدائمة هي الطريقة الوحيدة لاستدراك الأخطاء وردع الهوى والشهوات وقطع الطريق على الشيطان. ومن هنا نفهم المعنى العميق لقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم».

* محاسبة النفس طريق التسامي والتكامل

السبق إلى الخيرات:

إن في محاسبة الإنسان لنفسه طريقة فضلى للتقدم والتسامي والتكامل الإنساني. ففي المراجعة والمحاسبة يعرف الواحد منا أين يقف: هل هو يتقدم ويتطور، أم هو يراوح مكانه، أم أنه يتراجع وتسوء حاله يوماً بعد يوم؟ فالذي يتراجع ظالم لنفسه، والذي يراوح مكانه مقتصد، والذي يتقدم ويتطور سابق بالخيرات. والإسلام يريد لنا أن نكون سباقين إلى الخير مسارعين إلى مغفرة الله ورضوانه، وبهذا يتكامل الإنسان ويسمو: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (٢).

(١) الأنفال: ٤٨ .

(٢) آل عمران: ١٣٣ .



والسبق إلى الخيرات يعني المسارعة إلى عمل الخير والإنفاق في سبيل الله. وبما أن الله غني عن العباد فإن الإنفاق في سبيل الله يعني عمل الخير في هذه الدنيا والتوجه إلى خدمة الناس. وبهذا يثبت الإنسان أنه غير متعلق بهذه الدنيا وأنه يسعى إلى الآخرة وأنه على قدر المسؤولية في هذه الحياة.

فالأموال التي نملكها ليست خالصة لنا، وإنما فيها حقوق للآخرين. فيها الخمس والزكاة، وفيها أيضاً حق معلوم للسائل والمحروم. وكثير من الناس لا يدفعون الحقوق الشرعية لأنهم لا يجدون من يطالبهم بدفعها ويحثهم على أداء هذه الفريضة. وإنما لنجد بعض رجال الدين يأنفون من دعوة الناس إلى دفع الحقوق، وهذا موقف خاطئ، فإن رسول الله نفسه كان يدعو الناس إلى دفع هذه الحقوق، والقرآن صريح في هذا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾^(١).

ويقول القرآن الكريم: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٢).

فاطمة الزهراء عليها السلام في ليلة زفافها قدمت ثوبها الجديد لفتاة فقيرة. رآها والدها الرسول ﷺ فقال لها: ما لي أراك ترتدين ثوبك القديم هذا؟ أين ثوبك الجديد؟ قالت: جاءت فتاة فقيرة البارحة وطلبت ثوباً لها، فقدمت لها ثوبي الجديد الذي أحبه لأنني تذكرت قوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ).

(١) التوبة: ١٠٣ .

(٢) آل عمران: ٩٢ .

ثم تضيف الزهراء عليها السلام: إن أُمي خديجة علمتني أيضاً أن أنفق على الفقراء مما أحب، فهي كانت إذا طرقت بابها امرأة فقيرة أعطتها أجمل ثيابها.

وهكذا فإننا نجد في سيرة أهل البيت مثلاً رائعاً لمحاسبة النفس والسلوك الإيماني العميق الذي يرتقي بالإنسان في معارج السمو والتكامل وذلك أن سيرة أهل البيت نموذج للعلماء الذين يخشون الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وفيهم نجد قوى النفس الرابعة التي أشرنا إليها، وهي النفس الكلية الإلهية الملكوتية، وهذه القوى التي يجب أن نتذكرها دائماً هي: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذلك، وفقر في غنى، وصبر في بلاء.

**في التوحيد
والإيمان والعقيدة
معتنقوا الحضارة الغربية
يسألون: أين الله؟**

معتنقوا الحضارة الغربية يسألون:

أين الله ؟ . . .

الله موجود في كل مكان فهو - سبحانه وتعالى - موجود في أعماق فطرة الإنسان، وهو موجود في أعماق هذا الكون، - إنه مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١).

إنه أقرب إلينا من مجرى الدم في عروقنا: إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، وهو معكم أينما كنتم.

وأكبر دليل على وجود الله تعالى، هو ما نشعر به في أعماق فطرتنا، ونحسه جيداً في داخل كل منا.. من حالة توجه كاملة إلى الله، يتساوي الكل فيها.. المؤمن وغير المؤمن، ولكن غاية ما في الأمر أن المؤمن يذكر الله في السراء والضراء.. وفي الرخاء والشدة والمحنة، فتراه معربداً بعيداً عن الله في أيام الرخاء، حتى إذا اشتدت المحنة به، ونزلت المصيبة عليه، ألجأته إلى الله، وإذا بالفطرة تستيقظ وتتوجه إلى الله سائلة منه المساعدة والعون والمدد، إن كل واحد منا يستطيع أن يلمس هذا الشعور لدى ركاب الطائرة أو سفينة، حين تتعرض الطائرة لخطر

(١) ق: ١٦ .



السقوط أو حين تتعرض السفينة لخطر الفرق بفعل عواصف الجو والبحر، فإن الحالة - عندئذ - ستتحوّل من الصلابة إلى اللين، ومن الجحود إلى اليقين.. وكم مرة حدث لي أن كنت مسافراً على متن طائرة قد حاصرتها المطبات الجوية وسوء الأحوال الجوية، فراحت تترنح يميناً وشمالاً تريد أن تنقّض على البحار والجبال، فرأيت - عندها - الناس يجأرون إلى الله في صوت واحد طالبين منه النجدة والمساعدة والعون.

وبالمثل، فقد حدث لي، ذات يوم - أن كنت جالساً إلى جنب شاب مليء بالحيوية والنشاط، ولكنه غارق في الكفر والإلحاد، كنت أنا وهو على مقعدين متجاورين على متن طائرة من كندا إلى القارة السوداء في إفريقيا، ونظراً لأن المسافة بعيدة والرحلة تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة في الجو فقد تشعب الحديث بيننا، ورحنا نتجاذب أطرافه في الإيمان والعقيدة، والحق والحرية والأديان، وخالق السموات والأرض، فرأيت الشاب لا يلوي على شيء في كلامه، فقد بدا منتفخاً حاقداً على الأديان، ومليئاً بالجهل الذي أفسد رأسه وأبعده عن الله وعن الحق، شأنه في ذلك شأن الكثير من أبنائنا الذين ذهبوا إلى الخارج لطلب العلم فعادوا مثقلين بأطنان الجهل، والغرور، والانبهار بالحضارة المادية الكافرة.. وكم حاولت أن أثّبه عن رأيه الجاحد، ولكنني عبثاً كنت أحاول.. فقد ذكرته بآلاف الرجال والشباب المؤمنين الذين هم أكثر منه علماً وفهماً فازدادوا إيماناً فوق إيمانهم بخلاف نظرتهم البتراء.. على كل حال، ليس هذا هو المهم، ولكن المهم في الأمر أننا وفي أثناء الكلام، حدث أن اهتزت الطائرة اهتزازاً عنيفاً

أدى إلى تساقط أكواب الشاي والحلوى التي كانت مطروحة أمامنا ..
وهنا رأيت صاحبي يتلون وجهه خوفاً وجزعاً .. فقلت له في هدوء: ما
بالك يا فلان قد بدا عليك الجزع؟ ألسنا نحن نعيش في عبث. أليس
الأمر عبثاً في عبث، وفوضى في فوضى كما تقول، حيث لا خالق ولا
جنة ولا آخرة، ولا هم يحزنون؟ فلماذا إذا الجزع والحزن؟ فما دمنا قد
وردنا الحياة في فوضى فلنخرج منها أيضاً في فوضى في سقوط
طائرة أو انفجارها بالجو، فالموت واحد سواء في الطائرة المحترقة
أوفي السرير الناعم الوثير.. وما دام أنه ليس هناك شيء وراء هذا
الكون فلنمت إذاً ولنسقط..

هكذا كنت أتكلم معه، وقلبي أهدأ من وجه الطفل الرضيع، وأقوى
من الجبال الراسية.. فما كان من مرافقي الملحد إلا أن التفت إليَّ
وعيناه زائفتان في أم رأسه، وشفته تترجفان من الخوف والهول
والذعر، بسبب اشتداد أزمة الطائرة لحظة بعد لحظة وأنا بعد آن..
أقول: فما كان منه إلا أن التفت إلي، ليقول: يا فلان أرجوك ادع الله
يفرج عنا.. ثم أردف قائلاً: بالله عليك قل لي: لماذا أنت هادئ هكذا لا
يظهر عليك خوف ولا يبدو عليك اضطراب؟ قلت له: أولاً أنا هادئ
كما تراني، لأنني قرأت آية الكرسي وهي آية واحدة من كتاب الله
العزیز، وقراءة هذه الآية مرة واحدة، تكفي ليس فقط لحفظي أنا
وإنما هي تكفي لحفظ الطائرة كلها بركابها من السقوط ومن أي أذى،
لأن الرواية تقول: من قرأ آية الكرسي مرة وكلَّ الله به ملائكة
يحفظونه.. ومن قرأها أكثر من ذلك قال الله لملائكته: يا ملائكتي
تتحوا، وابتعدوا عن عبدي، فأنا الذي أتولى حراسته بنفسي.. ثم

وجدت نفسي أسأله وهو مشدود إلي: أنت قبل لحظات كنت تنكر وجود الله والآن جئت تقسم بالله علي أن أدعو وأتضرع وأطلب من الله النجدة فما هذا التناقض؟.. قال: لا.. ليس هذا تناقضاً إنما هو الواقع. إني أحس بوجودي كله يتجه إلى الله.. إن الله موجود، وأنا مؤمن به، وأقسم بالله العظيم لئن أنجاني من هذه المحنة لأكونن له من الشاكرين، وأصبح أول المؤمنين.. فرق قلبي له ودعوت له من كل قلبي بالهداية والرشاد، وقد فاضت عيوننا بالدموع في لحظة انقطاع إلى الله، عزوجل، ما هي إلا لحظات حتى استعادت الطائفة توازنها وراحت تشق الفضاء وتخترق السماء، كما يخترق سهم النور في الأفق.

وهنا رجعت إلى القرآن الكريم أفتش عن صورة حقيقية لهذا الإنسان، فوجدت القرآن يصور هذا اللون من الناس تصويراً دقيقاً لا يشوبه كدر، ولا غبر.. ففي آية كريمة يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ (١).

ويقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ (٢).

وآية ثالثة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ

(١) الروم: ٣٣ .

(٢) الزمر: ٨ .



تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١﴾.

ويقول الإمام الحسن العسكري - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - في تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول: (الله الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد، كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونه) وأحياناً نجد الإنسان لا تتفع معه حتى هذه المواقف التي يقف لها شعر الرأس، فيظل على ضلالتة وقسوته وبعده عن الله...، وإن بدا في أثناء الأزمة وشدة المحنة متوجهاً إليه كما قلنا سلفاً حسب الرجوع إلى القاعدة الأصل، وهي أن يذكر الإنسان خالقه عند اشتداد المحن، وصلوات الزمن.

يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٢﴾﴾.

ويقول الله سبحانه في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْغُونَ فِي

(١) الأنعام: ٦٣ - ٦٥ .

(٢) الأنعام: ٤٠ - ٤١ .

الْأَرْضَ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

وحتى فرعون في اللحظة الأخيرة من عمره حين أدركه الفرق، ذكر الله، ولكن ولات حين مناص، فلطمه جبرائيل على وجهه قائلاً له: (الآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين).

على أن القرآن ينقل عن الكافرين قولهم أو جوابهم حين يسألون: من خلق السموات والأرض، فيقولون الله، وذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة، كل مولود يولد على الفطرة، إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما قال النبي ﷺ أو المهم.. أن الفطرة تظل تحنّ إلى الحق، وتظماً إلى ذكر الله.. ولا يستطيع أحد أن يروي ظمأ الفطرة إلا بذكر الله.. لأن الإيمان بالله وباليوم الآخر، هو وحده الذي يسقي عطش الفطرة، ويبعث السكينة في أعماق النفس البشرية.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢).

وهكذا نجد الفطرة شاخصة إلى الله في إلحاح وإصرار.. فتظهر تارة في الرخاء، وطوراً في الشدة.. ولكن مع فارق واحد - كما أسلفنا - فهي، أي الفطرة، تطل من عيون المؤمن متألفة في الشدة والرخاء، وفي السر والعلن.. في حين أنها لا تخرج رأسها من مفرزها عند

(١) يونس: ٢٢ - ٢٣ .

(٢) لقمان: ٢٥ .



الكافر إلا في أوقات الشدة ونزول البلاء، وحين تبلغ القلوب الحناجر.
يقول الله الرؤوف الرحيم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١).
ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (٢).

أجل.. إن الذي يذكر الله في الرخاء، يذكره الله في الشدة والرخاء،
ويجب أن نعلم أن عظمة الإنسان تتبع من مدى صلته بالله العزيز
الحكيم، فكلما كانت علاقة الإنسان بخالقه أعمق وأقوى كانت درجة
إيمانه أكبر وأصلب وأقوى.

(١) البقرة: ١٥٢ .

(٢) الحشر: ١٩ .

- ٥ - مبادئ وقوانين لكل زمان ومكان
- ٤٩ - القوانين الطبيعية وخضوعها للقوانين التشريعية
- ٨٦ - الإنسان معجزة الكائنات
- ٩٣ - الزهراء تقول: الجار ثم الدار
- ٩٧ - في طريق الحق والحقيقة
- ٩٨ - الفكرة الأولى: القلب الأعمى والقلب البصير
- ١٠٦ - الجرأة في الموقف انعكاس للنفس المؤمنة
- ١١٢ - الفكرة الثالثة: في بيت فاطمة غذاء الروح
- ١١٥ - القلب العامر بالإيمان
- ١١٧ - الفكرة الخامسة: فاطمة هي الصراط المستقيم
- ١١٩ - دور الأخلاق الفاضلة
- ١٢٢ - الفكرة السابعة: العقل مفتاح حرية المرء
- ١٣٠ - الفكرة الثامنة: دور العقل والإرادة في أفعال الإنسان
- ١٣٤ - الفكرة التاسعة: مفهوم القضاء والقدر في الإسلام
- ١٣٩ - الفكرة العاشرة: البصر والقلب ورؤية الأشياء والحق
- ١٤٥ - الفكرة الحادية عشرة: فضيلتا ابن آدم الحضاريتان
- ١٤٨ - أحاديث شريفة في ذكر الله سبحانه
- ١٥١ - النظرية الاجتماعية في الإسلام
- ١٧٩ - القراءة والاستماع
- ١٨٦ - الإسلام ملاذ المرأة وحصنها المنيع
- ٢١٠ - في قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾
- ٢٣١ - المرأة في القرآن الكريم
- ٢٤١ - رأي النبي في المرأة

- ٢٤٧ - الرجل والمرأة من نفس واحدة
- ٢٧١ - بحث في السالبة بانتفاء الموضوع
- ٢٧٥ - بين الجوع والكفر والاطعام والإيمان
- ٢٧٩ - الإمام الحسين عليه السلام يقول كلمته
- ٢٨٥ - نظرة الإسلام الحضارية لليتم
- ٢٩١ - من المنبر الحر نعم الله وقوانين العدل والرحمة
- ٣٠٥ - عالم البرزخ
- ٣٣١ - الإيمان والأخلاق نور في طريق الحضارة الإنسانية
- ٣٤٣ - مواصفات الشيعة في الحياة
- ٣٤٦ - رواية عن علي عليه السلام وشيعته في وصية النبي (ص) للزهراء (ع)
- ٣٥١ - من الفكر الحضاري في الإسلام
- ٣٥٤ - أحاديث في الكتابة
- ٣٥٧ - في منازل الناس والكتابة
- ٣٦١ - كيف تنمي طاقتك
- ٣٦٢ - أحاديث مختلفة
- ٣٦٧ - أحاديث في طلب العلم
- ٣٧٥ - أقوال في العقل
- ٣٧٦ - من أجوبة الإمامين: علي والصادق عليهما السلام
- ٣٨١ - مفهوم العبادة في الإسلام
- ٣٩٨ - فاطمة تصف علياً في خشوعه وعبادته
- ٤٠٣ - محاور ثلاثة في طريق الإيمان
- ٤٢٣ - معرفة النفس الإنسانية والطريق إلى الله
- ٤٤١ - معتقوا الحضارة الغربية يسألون: أين الله؟